Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ الفرق الإسلامية السياسي والديني

الكتاب الثاني

الشيعة العربية والزيدية

الدكتور
محمد إبراهيم الفيومي

دار الفكر العربي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ الفرق الإسلامية السياسي والديني

الكتاب الثاني

الشيعة العربية والزيدية

الدكتور

محمد إبراهيم الفيومي

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

٢٤٧ محمد إبراهيم الفيومى.
م ح ش ى الشيعة العربية والزيدية/ محمد إبراهيم الفيومى. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٢.
٤٤٠ ص؛ ٢٤ سم. ـ ([سلسلة] تاريخ الفرق الإسلامية السياسى والدينى؛ الكتاب الثانى).
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية .
تدمك: ٦ - ١٦٢٩ - ١٠ - ٩٧٧.
١ ـ الشيعة. ٢ ـ الزيدية (الشيعة). أ ـ العنوان.
ب ـ السلسلة.

تصميم وإخراج فنى
الأستاذ/ محيى الدين فتحي الشلودى

رقم الإيداع	٢٠٠٢ / ٤٨١٣
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1629 - 6

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه موسوعة تقدم دراسة متواضعة عن:

«تاريخ الفرق الإسلامية السياسى والدينى»

* الخوارج والمرجئة.
* الشيعة العربية.
* الشيعة الشعوبية والاثنى عشرية.
* المعتزلة ـ تكوين العقل العربى.
* الإمام أبو الحسن الأشعرى فحص نقدى لعلم الكلام.
* الإمام أبو منصور الماتريدى وحدة أصول علم الكلام.

وهى دراسة تعالج موضوع الفرق الإسلامية والبحث عن أسبابها السياسية والدينية والاجتماعية، والبحث عن علاقتها بما أصاب المجتمع الإسلامى من علل وانحلال سياسى واجتماعى.

وبالرغم من أن موضوع الافتراق قد أشار إليه النبى ﷺ فى حديثه: «ستفترق أمتى..» واحتار العلماء فى شرحه وتكلفوا تصنيف الفرق حتى بلغت اثنين وسبعين أو ثلاثة وسبعين. وكان تكلفهم شديدا يحمل عسر التأويل بل ومخالفا لقانون النشوء والارتقاء والسنن الطبيعية لتطور الأشياء، إذ من الصعب أن نحمل عصرا واحدا مخاض ولادة جميع الفرق الإسلامية التى تضمنها الحديث، وكأن قانون التطور وقف عند القرون الأولى. بينما الحديث ورد فى ذم التفرق ومدح الوحدة الواحدة وجعل مثواها الجنة. والتفرق مثواه النار.

فالدراسة تقويم وتقييم وتحليل ومقارنة وتجلية رؤية نرصد من خلالها مستقبل نهضة المجتمع الإسلامى من خلال أحداث التاريخ الإسلامى. فهى دراسة للتاريخ الإسلامى قبل أن تكون دراسة عقائد الفرق، على ضوء ما أراه أن كل تغيير يلم بالمجتمع وراءه فكرة وعلى هذا أقدم الموسوعة.

د. محمد إبراهيم الفيومى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾

[الأحزاب: ٣٣]

قال الإمام على فى بعض خطبه:

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق:

حق الوالى على الرعية، وحق الرعية على الوالى فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالى حقه وأدى الوالى إليها حقها عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن. فصلح بذلك الزمان فى بناء الدولة، ويئست مطامع الأعداء، فإذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالى برعيته اختلفت هناك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الأدغال فى الدن، وتركت محاج السنن فعمل الهوى، وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس...[1].

(١) نهج البلاغة للإمام على.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

بقلم: سيد هادى خسروشاهى

خطوة على الطريق

إن هناك الكثير من الشواهد والوثائق التى تؤكد أن الوجود الشيعى قديم، قدم الدعوة الإسلامية، فهو يواكب بعثة الرسول ﷺ من بدايتها، هذا ما تؤكده النصوص[1] الواردة على لسان النبى ﷺ والتى تكتظ بها كتب السنن والمتعلقة بالإمام علي وآل البيت عليهم السلام، هذه النصوص جعلت للإمام ولآل البيت خصوصية. ومن جانب آخر دفعت الكثير من الصحابة إلى التشيع لهم والالتفاف حولهم والاستظلال بظلهم..[2].

---

(١) من هذه النصوص حديث: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى..» انظر مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبى طالب.

وحديث: عهد إلى النبى الأمر: اذهب يا علي لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق. انظر مسلم، باب حب الأنصار.

وحديث جابر بن عبد الله: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ بأمرين: بغض علي وترك صلاة العتمة.. انظر مسند أحمد.. وغير هذه النصوص كثير يمكن مراجعتها فى كتاب خصائص الإمام على للنسائى والكتب المتعلقة بآل البيت.

(٢) منهم: أبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى، وعمار بن ياسر، والمقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك النهرانى الحضرمى، وحذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت فاكهة بنى ثعلبة الأنصارى، والحبّاب الخزاعى، وأبو سعيد الخدرى، وابن التيهان أبو الهيثم بن مالك بن عتيك الأنصارى الأوسى، وقيس بن سعد بن عبادة، وأنس بن الحرب بن نبيه، وأبو أيوب الأنصارى، وجابر بن عبد الله بن عمرو بن كعب بن غنم ابن سلمة الأنصارى، وهاشم بن أبى وقاص، ومحمد بن أبى بكر بن أبى قحافة، ومالك بن الحرث النخعى، ومالك بن نويرة، والبرّاء بن عازب بن حارث بن عدى بن جَشَم الأوسى الأنصارى، وأبى بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصارى، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر بن ثعلبة الخزرجى الأنصارى، وعبد الله بن غافل بن حبيب الهذلى، وظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل، وخالد بن سعيد بن أبى عامر بن أميّة بن عبد شمس، وأسيد بن ثعلبة الأنصارى، وأسود بن عيسى بن أسماء بن وهب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتميز الإمام علي ـ عليه السلام ـ بقدرته العلمية والجهادية من بين صحابة الرسول ﷺ هو ما يؤكد استمرار تشيع الصحابة له فى عهد الرسول ﷺ وبعد وفاته. . وتولد من جيل الصحابة جيل آخر من التابعين المتشيعين للإمام وآل البيت عليهم السلام.

ويشهد التاريخ على أن الشيعة من صدر الإسلام لم ينقطعوا أبدا، ولا برهة، عن صف الأكثرية (الصف الإسلامى العام) فى ممارسة النشاط الاجتماعى، بل مضوا بجد ومثابرة إلى كل ما يخدم تقدم المسيرة الإسلامية بفاعلية، وكان لهم حضورهم فى حروب الفتوحات، وشاركوا فى الثورة على الأنظمة الطاغوتية فى عصورهم، وبذلوا فى هذا السبيل الأرواح والأموال، ولم يتوانوا عن شىء من التضحيات.

لم يكن قد ظهر فى مجتمعات ذلك الزمان التضاد بين الباطن والظاهر، والازدواج بين الفكر والعمل، بالشكل الذى يتجلى فيه اليوم، ونراه رأى العين فى مجتمعاتنا ـ وذلك إثر جهل بعضهم ممن يؤثر التضحية بالمبدأ لحساب المصالح الشخصية ـ وبالتالى لم يأخذ اتباع الأئمة وأوليائهم المخلصين، التشيع مغنما ووسيلة للارتزاق، بحيث يدفعهم ذلك للتخلف عن تعاليم الإمام!

فحينما يدعو الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ الشيعة إلى الاندماج مع بقية المسلمين، والمساهمة فى النشاط العام، وعدم التخلف عن المسار الكلى الذى ينتظم المسلمين، ألا يكون التخلف عن ذلك، والتعلل بالأهواء والفهم المنحرف، سوى مخالفة لحكم الله ورسوله؟

جاءنا فى الأثر أن أحدهم سأل الإمام ـ عليه السلام ـ بما نصه: كيف ينبغى لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وبين خلطائنا من الناس، ممن ليسوا على أمرنا؟ قال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم، فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدون الأمانة إليهم. . .»[1].

هناك إذن فرق بين الشيعة ـ بمعنى أتباع الإمام ـ وبين الشيعة المحترفين الذين تشيّعوا للتكسب!.

الشيعى الحقيقى لا يضحى أبدا بالمبدأ لحساب مصلحته الخاصة، ولا يركب الوسيلة غير المشروعة، لبلوغ ما يريد بعد أن يسبغ عليها لونا من الشرعية!.

(١) أصول الكافى، ج٢ ص٦٣٦، كتاب العشرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشيعـى المخلص هو الذى يحافظ أبدا على أصول ثقافـته. . . وهو الذى يعكس بسلوكه الذكر الحسن لأئمته، ويجعل القلوب تنبض بـهذه الذكرى وتحافظ عليها حية. . وهو الذى يسعى لكى يبـقى علم التشيع يهـتز عاليا خفـاقا حتى ظهور الإمـام المهدى ـ الذى سيملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا[1]

أجل، إن الشيـعى الذى يوالى الإمـام عليا ـ عليـه السلام ـ حـقا، لا يضـحي بالحقيقة، وإذا قدر له أن يسبح ضد التـيار، فهو يفعل ذلك دون أن يخشى الغرق. إذ لا شرف أسمى من الموت فى طريق نهج الإمام علي ومدرسته.

وشيعى مثل هذا، لا يسـمح لنفسه أبدا، أن يهوى أخلاقيـا إلى منحدر سحيق، فيلجأ إلى لغـة الشتيمة ويحتـمى بالافتراء والكلمات الفاحشـة، يرمى بها من يتبع نهج علي ويسيـر على دربه، يكيل إليه الافـتراء ويبهـته بالتـهمة. . ويرفع حـراب التشهـير والتسقيط دون مـروءة ضد الذين يستمدون فى عصرنا هذا، من أبى ذر نهـجه وصدقه، فيستبقون غيرهم من الناس فى تشخيص الأمور وإدراكها، حتى لتكون هذه الحرب التى يواجه بهـا هؤلاء المستـمدون من علي وأبى ذر نهـجهمـا، أشد مما تكون ـ فى حـدتها وقسوتها وبشاعتها ـ على النواصب والخوارج!

هذه واقـعة صفـين أمامنا، وهذا أمـير المؤمنين يرى أهل الشـام يبادرونه بالشـتم والسباب، فما يكون منه (سلام الله عليـه) إلا أن يمنع أصحابه من التعرض لهم بالمثل، إذ يقـول: إنى أكره لكم أن تكونوا سـبّابين، ولكنكم لو وصـفتم أعـمالهـم، وذكرتم حالـهم، كان أصـوب فى القول، وأبلغ فى العـذر، وقلتم مكان سـبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودمـاءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهـم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغىّ والعدوان من لهج به[2].

والآن هل يليق بالإنسان وهو يعلن انـتسابه إلى الشيـعة أن يمر على هذا النهج بما ينطوى عليه من تعـاليم ـ فى التعامل مع الآخرين ـ فـيبادر إلى تحطيم من يختـلف معه بالرأى، وينزل عليه بأقذع التهم والباءات؟

ثم لنا أن نجدد السؤال، ونقول: ما العمل؟ وما هى الوظيفة التى يجب أن ينهض بها المشايعون الصادقون لعلي.

---

(١) انظر المهدى المنتظر، للشيخ عبد المحسن العباد، طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) نهج البلاغة للإمام على، ص٣٢٣ طبعة القاهرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وآل علي عليهم السلام، فى عصر لا يملك فيه الأعداء - أو المخالفون الجهلة - إلا لغة الشتيمة والسباب يسدون بها صفحات كتبهم ومجلاتهم، وهم يملأون الجو ضجيجا، ويسوقون ضروب التهم الواهية إلى الشيعة من قبيل نسبتهم إلى الإسرائيليات، وإلى أسطورة عبد الله بن سبأ!

لا ريب أن الشتيمة والسباب لا يليقان لغة بمقام هذه الفئة التى أراد لها مولاها أن تنزه أفواهها عن هذا المنحدر الهابط، كما أراد لها الإمام الصادق - عليه السلام - أن يكون من شأنها أنها تعكس فى أعمالها وسلوكها القدوة المثلى، حتى تشهد الدنيا، أى أناس هم أولئك الذين تربوا فى مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

يقول الإمام الصادق - عليه السلام - فى حديث آخر يوصى به شيعته بعد أن يقرئهم السلام: صلوا عشائرهم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفرى، فيسرنى ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك، دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر[1].

ولكن يطرح، بإزاء هذا النهج، السؤال التالى:

فى ظل هذا النهج الذى يطفح بالسلام والإنسانية، ما هو واجبنا، وكيف ينبغى لنا أن نتصرف إزاء أشخاص من قماش ابن تيمية وإبراهيم الجبهان وإبراهيم على شعوط وإحسان إلهى ظهير ودكتور عبد الله الغريب ومن يقع على شاكلتهم؟

لا ريب أن سموم هؤلاء وأمثالهم - فى الماضى والحاضر - وأغراضهم الملوثة والمنشورة فى كتبهم، هى الباعث الذى جعل بعض عوام أهل السنة ينسبون إلى الشيعة أبشع الصفات وأفظعها مما يخرج بهم عن صفة الإنسانية[2] فى حين ذهبت مجموعة أخرى منهم لرمى الشيعة بالشرك أو الغلو، حتى راح الشق يتسع فى المجتمع الإسلامى الشيعى - السنى، وتزداد الفاصلة بين الاثنين أكثر فأكثر، بحيث باتت تواجهنا أحيانا أسئلة من قبيل: وهل قرآن الشيعة هو مثل قرآن السنة؟ هل الشيعة يسبّون أصحاب الرسول؟ و...

---

(١) أصول الكافى، ص٢، باب العشرة، ص٦٣٦.

(٢) تراجع مقدمة: أصل الشيعة وأصولها، طبعة القاهرة، للمرحوم كاشف الغطاء، لملاحظة بعض ما يقال عن الشيعة وينسب إليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى النتيجة آل الأمر إلى أن يستغل الاستعمار وأياديه هذه الفرقة، ويسعر نارها أكثر فأكثر كى تكون له السيطرة دائما.

أجل، ليس ثمة من يشك بوجود مثل هذه الأوضاع، بيد أن السؤال الذى يبقى يفرض نفسه، هو: ما العمل؟

الذى نعتقده نحن، أنه ـ بدلا من أن نسلك نهج الرد بالمثل ـ علينا أن نفكر بعمل جذرى أساسى يتيح لنا فرصة نشر تاريخ الشيعة وعقائدها وبيانها بلغات مختلفة، وعلى مستوى عالمى، وذلك بالاعتماد على رؤية علمية كاملة للتشيع، تتوسل التحقيق العلمى والتأريخى الذى يعكس التشيع على حقيقته وكما هو، لا كما هو عليه عند بعض العوام، وكما يفهمونه، أو الجهلة أو بعض العملاء من المستشرقين!

نحن نعتقد أن هذا الأسلوب يمكننا إلى حد بعيد من وضع حد للسفسطة المغرضة التى تهدف إلى دقّ إسفين الفرقة بين الصف الإسلامى الذى يعتقد بأصول واحدة.

حقا، لماذا يلجأ الإنسان إلى لغة الشتيمة والسباب، إذا كان يعتقد بصحة منطقه، ويؤمن بأحقية ما يقول؟ ولماذا يتوسل بممارسات صبيانية تافهة، لا تليق بمقام الإنسان الشيعى، ليعطى بذلك الذريعة إلى أعدائه، فيقلبون الحقائق وينسبون الشيعة جميعهم إلى عبد الله بن سبأ الشخصية اليهودية الموهومة؟[1].

لا نشك فى أن مشاركتنا فى الملتقيات الإسلامية والمبادرة إلى تشكيل المؤتمرات على مستوى كبار علماء المذاهب الإسلامية، وإصدار الكتب النافعة والمجلات المفيدة بلغات مختلفة، وهى مما يساعد على بلوغ الهدف الذى ننشده بشكل أفضل، فى حين تلعب الجهود المبذولة فى طريق تنشيط دور مؤسسة التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة، دورا مؤثرا فى هذا المضمار.

وعلى هذا الصعيد تعد عملية تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى الأربعينيات، التى بادر إليها فى القاهرة أحد علماء ومفكرى الشيعة الكبار الشيخ محمد تقى القمى بمساعدة كبار مشايخ الأزهر الشريف، واحدة من أبرز المشاريع الأساسية التى يمكن أن يكون لها دور مهم فى التعريف بالشيعة على مستوى عالمى، وخصوصا أن ما

(١) انظر الدراسة المعمقة للعلامة السيد مرتضى العسكرى فى كتابه «عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى» طبعة بغداد وبيروت. وكتابنا: عبد الله بن سبأ، بين الواقع والخيال، طبعة مركز البحوث الإسلامية ـ قم: إيران.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يساعد فى ذلك أن هذه الدار أنشئت إلى جوار الأزهر، المؤسسة الأساسية الإسلامية فى العالم.

لقد كنا منذ خمسين سنة تقريبـ، وحتى قبل أن تصدر الفتوى التأريخية للشيخ محمود شلتوت فى جواز التعبد بالمذهب الجعفرى، ثابتين على نهجنا هذا وفى الدفاع المنطقى المتين عن التقريب بين المذاهب الإسلامية، ولا زلنا نتمسك بهذه الدعوة، تشهد على ذلك أعمالنا فى مختلف المطبوعات والنشرات الدينية التى أصدرناها أو ساهمنا بها وقتئذ فى الحوزة العلمية الدينية بقم ـ إيران[1].

بديهى أن التقريب بنظرنا يعنى المعرفة الصحيحة لأصول التشيع، وللعقائد الواقعية لأهل السنة، ولا يعنى الميل إلى مذهب آخر بعبارة أوضح: لا يعنى التقريب والحرص على الوحدة والأخوة الإسلامية، التخلى عن عقائدنا، كلا وأبدا، فمثل هذا الفهم هو ضرب من السفسطة والمغالطة، وإنما يعنى التقريب الثبات على عقائدنا والحفاظ عليها، والسعى من أجل بيانها والدعوة إليها وبأسلوب صحيح، بعيدا عن تحريك العواطف وإثارة ردود الفعل السلبية، وخاصة أننا جميعا متفقون فى أصول العقائد.

فإذا كان الباحث سليما معافا من الضعف والعجز العلمى، ملتزما بما وجهه البحث نحو المعرفة المنطقية، لا يختار أبدا ولا يسعى وراء «الشذوذات» ويتشبث بالإسرائيليات التى تطفح بها كتب المذهب الذى يختلف معه، وخصوصا أن مثل هذه الإسرائيليات يمكن العثور عليها فى كل مذهب من المذاهب الإسلامية، وإنما يختار أن يعود إلى كتب الفريق الذى يختلف معه، ويتوفر على دراسة المسائل المعتنى بها، برؤية علمية تحليلية كاملة، تسوقه إلى الحكم الصحيح.

هذا هو المفهوم الواقعى للتقريب. بيد أن الذى يؤسف له حقا، هو أن البعض يستند إلى روحية إثارة العوام من الناس وتحريضهم، كما حصل فى زمان المرحوم آية الله البروجردى (المرجع الدينى الأعلى فى إيران)، حيث راح هذا البعض يصف مراسلات المرحوم البروجردى مع الشيخ محمود شلتوت، على أنها ضرب من التراجع!! دون أن ينتبه أن هذه المراسلات والتعارف، هى التى أثمرت فى نهاية المطاف الفتوى التاريخية لشيخ الأزهر حول الشيعة.

---

(١) من قبيل نشرات: ندای حق، نور دانش، مكتب إسلام، مكتب تشيع، وظيفة، آستا نقدس ومعارف جعفری (بالفارسية).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد حـاول المتلبسون بروح التـحريض من السطحيين الذين يفـتقرون للاستـقلال الفكرى، أن يصوروا المـدافعين عن التقـريب بالنهج المنطقى، إنهم يعكسـون ضربا من التسنن! فى مركز التشـيع! إلا أن وجود رجال كبار من الشخصيات الشيـعية فى طليعة الركب، حال دون نجاح هذا المسعى، وأسقط بيد أهله.

فمن بين الشـخصيـات الشيـعية الكبـيرة التى اشتـهرت بمسعـى الدفاع عن فكرة التقريب، تبرز أسماء من قبيل: آية الله البروجردى وآية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والعلامـة محمد رضا المـظفر، والعلامة السـيد شرف الدين، والعلامـة السيد محسن الأمين العاملى والشيخ محمد جواد مغنية وغيرهم.

ويمكن أن نسجل فى هذا المضـمار، أن قضيـة التقريب بين المذاهب الإسـلامية، تألقت فى الأفق الإسلامى عامة، بعد النهضة الإصلاحية التوحيدية التى تضافرت عليها جهود المجاهد العالم المثابر السيد جمـال الدين الحسينى الأسد آبادى (المشهور بالأفغانى) والعالم الأزهرى المتنور الشيخ محمد عبده، حيث استطاعت أن تحقق بدعم كبار مراجع الشيعة والشخـصيات السنية المتفتحة انعطافة حـاسمة فى تأريخ العلاقات بين المسلمين، وأن تصيب مـوجات التعصب الجـاهلى بضربات فى الصمـيم، وتحقق مكاسب فى هذا السبيل.

يكتب العلامـة السيد محـمد حسين الطبـاطبائى (أستـاذنا فى التفسيـر وصاحب التأليف القيّم: الميزان فى تفسير القرآن) فى هذا المضمار:

«ليس ثمة شك فى رجحان الاتحاد أو التقـريب الإسلامى، من وجهة نظر العقل والمنطق. طبـيعى أن عـوامل التفـرقة عـملت ما اسـتطاعت فى فصل هاتين الطائفـتين الإسلاميتين الكبيرتين عن بعضهما البعض، ولكن علينا أن نتذكر دائما أن اختلافهما هو فى الفروع، وليس ثمة اختلاف بينهمـا فى الأصول، بل هما فى فروع الدين الضرورية من قبيل الصلاة والصوم والحج والجهاد وغيـر ذلك، والجميع يجتمعون على إله واحد، ونبى واحد، وقرآن واحد، وقبلة واحدة.

تأسـيسـا على هذا الأصل، نجد أن شـيـعة الصـدر الأول لم يعتـزلوا أبدا صف الأكثرية، ولم يبخلوا بمساهمتهم مع عامة المسلمين فى تقويم المسار الإسلامى العام، بل بذلوا الجهد والنصيحة فى هذا السبيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والآن على المسلمين أيضا، أن يعودوا إلى أنفسهم، آخـذين بنظر الاعتبار اتفاقهم على أصول الإسلام، وما تجرعوه من ضغوط فى هذه الفترة من قبل العناصر الخارجية. عليهم أن يكونوا فى صف واحد، وأن يتـخلوا عن التفرقة العمليـة. وينبغى للمسلمين فى الوقت نفسه، أن يثبتوا هذه الحقيقة فى العمل، قبل أن يكتشفها الآخرون ويسجلوها فى كتبهم بعنوان كونها حقيقة تأريخية.

من حسن الحظ، أن العالم الإسلامى بدأ ينتبه إلى هذه الحقيقة رويدا رويدا. ولم يأت تأييد مـراجع الشيعـة لفكرة التقريب بين المذاهب الإسـلامية إلا ناظرا لهذه الجـهة بالذات، كما حصل الأمر نفسه لشيخ الأزهر، الشيخ الجليل محمود شلتوت، الذى عبر عن هذه الحقيقة بمنتهى الصراحة، وأعلن للعالم أجمع الاتفاق الدينى الكامل بين الشيعة والسنة. وليس للشيعة إلا أن يلتزموا جانب الـتقدير والثناء لهذا الرجل الكبير، ويقدروا له مبادرته النزيهة.

نسأل الله ـ سبـحانه ـ أن يهدى المغرضين ويصلح المفـسدين، وأن يوفق المسلمين للاتحاد العلمى، كى يعود عليهم مجدهم السالف وعظمتهم الآفلة»[1].

ونحن لا نملك إلا أن نؤمن على دعاء أستـاذنا المرحوم، السيد طباطبـائى متمنين من صميم قلوبنا، أن ينفتح قصّار النظر وذوو المصالح، على الساحة من حولهم لينتبهوا إلى المؤامرات الواسعة التى يحيكها أعداء الإسـلام، ويتلمسوا، بإحساس عميق المخاطر الكبيرة، فيبذلوا جهودهم فى طريق الوحدة وسبيل التقريب.

لقد ساند العـلامة المرحوم الشيخ عبـد الحسين الأمينى أيضا، الوحدة الإسـلامية كأصل، وأعلن فى كتابه القيـم صراحة، أن البحث العلمى والكلامى لا يمكن أن يكون ـ ولا يجب أن يكون ـ عائقا يبعث على الخلل فى مسار الوحدة.

لذلك تراه يكتب فى مقدمة كتابه القيم: «الغدير» ما نصه:

«وإن الآراء والمعتقدات فى المبادئ والمذاهب حـرة، لا تفصم عرى الإخوة القويمة التى جاء بها الكتاب ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... (١٠)﴾ [الحجرات]، ولو بلغ الحوار فيها بين أولئك الإخـوان أشده، وقام الحـجاج والجـدال على ساقيـهمـا، جريا على سـيرة السلف، وفى مقدمتهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

(١) كتاب الشيعة والتشيع، للعلامة الطباطبائى، طبعة «قم» ـ إيران.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نحن المؤلفون فـى أقطار الدنيا وأرجاء العـالم الإسلامى على اخـتلاف آرائنا فى المبادئ وتـشتتنا فـى الفروع، يجمـعنا أصل قويم، وإيمـان بالله ورسوله. تجمـعنا روح واحدة، ونزعة دينية منزهة عن الأهواء الباطلة، تجمعنا كلمة الإخلاص والتوحيد. نحن المؤلفون نعيش تحت راية الحق، وتحت لواء الإسلام، وتحت قـيادة الكتاب ورسالة النبى العربى الأقدس. نداؤنا ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران]، وشعارنا «لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ألا نحن حزب الله وحماة دينه»[1].

خطوة على الطريق

بعد المقدمـات المشار إليها آنفا، نصل إلى الكتاب الذى بين أيدينا، إذ نـعتقد أنه جهد صـادق فى هذا السبيل. والذى نراه أن نشره لا يساهم فى بيـان تاريخ التشيع إلى العالم السنى وحسب، وإنما يغذى أيضا تطلعات الإنسان المعاصر ولهفته إلى هذا الدرب إلى المعـرفة. وهو بذلك يتـيح الفرصـة لذوى الإنصاف لأن يميـزوا بيننا وبين من يثـير الضجيج، ويحكموا على بينة وبوضوح.

وبذلك يعد هذا الكتاب: «تاريخ الفرق الإسـلامية» للدكتور مـحمد إبراهيم الفيومى وهو من العلماء الأفاضل ومن أساتذة الأزهر الشريف، خطوة كبيرة فى تعريف التشيع والتعرف على تاريخ الشيعة، يستند إلى المصادر الأصيلة التى لا مجال لإنكارها، وخصوصا أن أغلبها هو من كتب الإخوة أهل السنة أنفسهم.

إذا شئنا أن نمد جسور التفـاهم ونقتلع الأهواء والظنون التى لا داعى لها، ونطفئ أمواج الدعاية المضادة المتلفـعة بالمقاصد الفاسدة، علينا أن نفتح، باب البـحث والتحقيق العلمى. فبذل الجهـود فى هذا المجال يفسد على الآخرين المتربصـين، فرصتهم فى بث الأباطيل، والنيل من الوحـدة الإسلامية، ولا يسـمح فى الوقت نفسـه للبعض، بوضع الأحاديث، ليرمى الشيـعة فى قرن العلم والتكنولوجيا بالانتساب إلى ابن سـبأ اليهودى الموهوم، أو أن يزعم أن التشيع صنيعة الصـفوية! أو آل بويه، أو يرمى الشيعة بالشرك؟ لسجـودهم على التراب النظيف، وينعـتهم بالغلو المساوى للـكـفر، لحبـهم أهل البيت عليهم السلام.

إن التشـيع الصادق للإمام عـلى ـ عليه السلام ـ يدعـونا إلى أن نلج هذا الطريق الذى يتسم بالجذرية، ويعد أكثر الطرق نجاعة ومنطقية. بل الواجب أن نحوله إلى مسار

(١) انظر: الغدير، مقدمة المجلد الخامس، طبعة بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلى ومنهج عام، نخطط فى ضوئه نشـاطنا المستقبلى، ونسعى بصـدق لبذل الجهود فى سبيله من دون أن نهاب تهم العدو وافتراءاته أو نخشى الأصدقاء الجهلة.

وهنا، من الضرورى أن نشير إلى أن الساحة الثقـافية فى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامى، فى حاجة ماسة إلى مثل هذه الدراسات المعتدلة والموضوعية التى تلقى الضوء على تاريخ الشيـعة والتشيع، وإن كنا قد نتـفق وقد نختلف مع المؤلف فى بعض القضـايا المتعلقـة بنشأة الشيـعة والتشـيع إلا أن الخلاف فى بعض الآراء لا يفـسد للود قضية. ولا يعنى التقليل من شأن الكتاب وأهميـته كما لا يعنى التقليل من شأن الأستاذ الدكتور الفيومى وقيـمته العلمية الكبيرة التى أهلته للخوض فى مـثل هذه القضية الهامة التى تسـهم فى التعرف على تاريخ الشيعة والتـشيع وتسهم بالتالى فى التقريب بين السنة والشيعـة، فإن التقريب فى أساسـه، إنما يعتمد على المعرفـة التى تنفى الجهل والشك، الذى هو أساس الفرقة بين المسلمين.

فى الواقع إن هذا الكتاب الذى بين أيدينا، إنما يمثل دعوة إلى إعادة قراءة التاريخ عامـة وتاريخ الشيعة خـاصة، وإنى على ثقة أن هذا الجهـد العلمى المشكور الذى بذله المؤلف الأستاذ العالم، هو فاتحة خير للإسلام والمسلمين.. فجزاه الله خير الجزاء...

القاهرة - ربيع الثانى ١٤٢٢هـ — سيد هادى خسرو شاهى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

يقول أبو الفرج ترجمته الأصفهانى فى مقدمة كتابه: «مقاتل الطالبيين» ونحن ذاكرون فى كتابنا. . .جملا من أخبار من قتل من ولد أبى طالب منذ عهد رسول الله ﷺ ومن احتيل فى قتله منهم بسُم سُقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه، ومن ظُفِرَ به فَحُبِسَ حتى هلك فى محبسه، على السياق لتواريخ مقاتل من قتل منهم، ووفاة من توفى بهذه الأحوال لاعلى قدر مراتبهم فى الفضل والتقدم:

ذلك هو تاريخ «الشيعة والتشيع» تاريخ مآسٍ وغدر وتآمر وتجسيد آلام. وهو تاريخ عقدى سياسى ولا يقوم تحت مظلة فكرية واحدة ولا يجمع بينها سوى الثأر للإمام على وبنيه، وهى دعوى باطلة تلبس مسوح الرهبان وتحمل فى أحشائها طعنا فى الإسلام. ولقد اندرج تحت مصطلح الشيعة والتشيع ألوان من طوائف لا ينسحب عليها مفهوم الشيعة والتشيع الذى قرره أهل السنة والشيعة الاثنى عشرية المعتدلة. فمنهم من ألَّهَ عليا، ومنهم من جعل فيه جزءا إلهيا. . .إلى آخر أباطيل كثيرة حتى بات مصطلح الشيعة متهما ومن يحمله متهما وتاريخه متهما فى حد ذاته من حيث هو تاريخ.

لذلك رأينا تحريره وإنصاف الفرق العادلة وتمييزها عن الظالمة. فهناك العربية الزيدية وهناك الغالية الشعوبية والرافضة وهناك الإمامية الاثنى عشرية المعتدلة. وتلك قصة هذه الدراسة.

فكان من الإنصاف حتى يتحرر مفهوم الشيعة من ركام المقالات الظالمة التى أظلمت تاريخ الشيعة بإلحادها وزندقتها أن لا تحمل الفرق الغالية، وهى ليست من الإسلام فى شىء، وصف شيعة. إنما حسبها أن توصف بالطوائف الغالية أو فرق رافضة. . .أما المعتدلة منها فيقال عنها شيعة الزيدية وشيعة الإمامية الاثنى عشرية تنزيها لها عن الأفكار الضالة المتنارعة.

ولا ريب فى أن هذا التخاصم بين أفكارها الغالية لا يمثل مشكلة نظرية خطيرة فحسب، بل هو أيضا خطر كبير على حياة المجتمعات الأخلاقية والحضارية على مدى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اتساعها. وإذا لم ننجح فى الاهتداء إلى بصيص نور يخرجنا من شعاب التيه لم يكن لدينا بصر حقيقى نافذ يمكننا من أن نتعرف على الصيغة العامة فى التاريخ الإنسانى. وسنبقى تائهين بين أكوام متفرقة مشعثة من المعلومات التى تفتقر فيما يبدو إلى وحدة فكرية.

وإذا كان التاريخ قد وجد مبررا لوجود صراع عقدى بين الغالية الشعوبية إبان حكم الأمويين ثم بينها وبين العباسيين الذين نكلوا بالبيت العلوى صاحب الشرعية الذى كافح الأموية مع الشعوبية، ثم غدر بهما معا البيت العباسى. فإنها رأت فى التفكير العقدى أيا كان نوعه ومشربه، تحديا مباشرا وواضحا للحكم السياسى. وكانوا يرون أن مهمة التفكير العقدى الدينى أيا كان مصدره ـ هندى فارسى، إسلامى ـ هو إعادة بناء المجتمع كلية طبقا لأهداف العقيدة الذين كانوا ينادون بها. ولا ريب فى أن هذه المشكلة ـ التناقض بين السياسة القائمة ومبادئ عقائد الفرق هى: فى نظرهم ـ نواة العدل السياسى وأساس الحرية ومناهضة قضية القضاء والقدر والقدرة الإنسانية وتقدمت عليها نظرية الحق الإلهى.

ومن وراء ستار حملت عقائدهم نقدا للمجتمع القائم. وقدمت تكهنها على أساس وجود «مفتاح واحد للتاريخ» دلائل عن قيام المهدى المنتظر فى مرحلة مستعطشة لمبادئ العدل السياسى وقيم الحق.

وتعدى صراع الفرق الغالية، العدو السياسى، بسبب سياساته إلى صراعات أهلية. وكانت النتيجة أن تسويات الصلح لم تكن تسويات سلمية، وإنما كانت أدوات للثأر القومى بدلا من كونها أدوات للترضية السياسية وكانت سياسة الثأر التى أوقعت تلك الفرق الغالية بشعوبها ليست سياسية وإنما هى نوع من الانتحار القومى، فالثأر تجاهل للغد فى محاولة فاشلة لحمل الحاضر على أن يعيش شقاء بات فى عداد الماضى.

ثم يحدثنا التاريخ كيف أن خلفاء بنى أمية ـ بعد أن حطموا الشيعة والخوارج ـ بدأوا يهاجمون القدرية التى أسسها جَهْم بن صفوان ثم وصل بعد ذلك إلى المعتزلة الفتية. فيحدثنا التاريخ أنها نشأت فى أواخر حكم بنى أمية وأن مؤسسها هو واصل بن عطاء وأنها كانت فى أول أمرها مذهبية محضة قبل أن تختلط بالسياسة وتظفر بالأهمية العظمى وتتأرجح بين عواصف أهواء الخلفاء فى العصر العباسى، ولم تكن المعتزلة وحدها التى قاومت أهوال الخضوع للخلفاء بل إن الشيعة أيضا قد كان لها معهم مواقف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنيفة لم يكد الخلفاء الأولون من العباسيين ينتهون من القضاء على الأمويين حتى تفرغوا للعلويين فصبوا جام غضبهم واضطهادهم على الشيعة بعامة والزيدية بخاصة. وليس هذا فحسب، بل إن الفروع الشيعية التى نشأت بعد جعفر الصادق كالناوسية والموسوية والخَطَّابيَّة وغيرها من المذاهب والفرق التى نشأت فى ذلك العهد والتى كان تعددها وتعارضها سببا فى تكون المذهب السنى وتسميته بهذا الاسم أم لا فى العثور على الصراط المستقيم الذى يقتاد أتباعه إلى أهداف الرسالة التى لم تشوهها البدع ولم تنل منها الأغراض، وكان من بين المؤسسين الأولين لهذه الجماعة تحت اسم «السنة» عدد من تلاميذ الحسن البصرى، وابن سيرين، وأبى قلابة، وأبى حنيفة، ومالك بن أنس.

ولما ولى المأمون الخلافة أراد محو الشقاق بين العباسيين والعلويين بحجة أنهم جميعا هاشميون فدعاه ذلك إلى رعاية الشيعيين وحمايتهم؛ لأنهم أنصار أهل البيت الهاشميين وقد سند الاعتزال، وأيد المعتزلة بكل ما لديه من قوة بل صار هو نفسه معتزليا مقتنعا برأيه، قوى الشكيمة على من خالفهم، ولكن هذه المناصرة للمعتزلة جعلتها تطغى وتضطهد زعماء أهل السنة وعلى الأخص الإمام أحمد بن حنبل الذى يحدثنا ابن الجورى أن الخليفة المعتصم قد أمر بجلده وسجنه فجلد وسجن ولم يظفر بحريته إلا بعد ثمانية وعشرين شهرا. وتلك بادرة تحتاج إلى دراسة.

وليست هذه فحسب، بل إن شأن هذه الجماعة جعل ينمو ويعظم وفى ذلك العهد ظهر فيها عدد من زعمائها وأنصارها بيد أن هذا لم يدم طويلا، إذ لم يكد الخليفة المتوكل يلى الحكم حتى جعل رد الفعل يظهر ويتجلى فى حياة أهل السنة فيستعيدون قوتهم ويكافحون الشيعة والمعتزلة.

وفى ذلك العهد ظهر فيها عدد من العلماء حملوا لواءها بهيئة مشرفة ترفع الرءوس، وتسجل مواقف العقلية الإسلامية بأحرف الخلود كالترمذى، وأبى بكر السِجِستانى، وعلى الأخص توجت أعمالهم فى هذه الحقبة بمنتجات أبى الحسن الأشعرى الذى كان مذهبه على قمة الاعتزال بين الحنابلة والمعتزلة والذى رفع نجاحه رأس أهل السنة خاصة، وعلماء الكلام بعامة.

وقد ظلت الحال على هذا المنوال من التقدم وفى منتصف القرن الرابع الهجرى استولى الفاطميون على مصر ونشروا فيها مذهبهم. وبهذا أحيط مذهب أهل السنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعوامل المحاربة والإضعاف من كل جهة، فالفاطميون فى مصر والبويهيون فى بغداد قد ضيقوا عليهم الخناق ولم يبق لهم ولى ولا نصير سوى السلطان محمود الغزنوى. وفى أثناء هذا الإحداق الخانق من كل الجوانب هبَّ السلاجقة السنيون واستولوا على بغداد فى سنة ٤٤٥ للهجرة فتنفس أهل السنة الصعداء وجعلت مدارسهم تنتعش. ولهذا كان القرنان الرابع والخامس ساطعين فى المعارف الدينية بأنواعها. فمن أهل السنة ظهر أبو بكر الآجُرِّى، وأبو الحسين الملطى، وابن بطة العُكْبُرِى، وأبو بكر الباقلانى، والحاكم النيسابورى، وأبومنصور البغدادى، وإمام الحرمين الجوينى والإمام الغزالى. ومن المحيط الشيعى المعتزلى برز الشيخ المفيد، والشريف المرتضى، وأبو جعفر الطُّوسِىّ فى المشرق، وابن حزم فى المغرب، وكان فى عصره أقوى المدافعين عن المذهب الظاهرى. وقد اعتمدنا على أمهات كتب هذه المذاهب وأساسياتها الرئيسية، وكتب التاريخ الموثوق بها مثل: كتاب السنة لـ«أحمد بن حنبل » و«منهاج السنة النبوية» لابن تيمية و «تلبيس إبليس» لابن الجوزى، و«أصول الدين» لعبد القاهر البغدادى و«الفرق بين الفرق» لنفس المؤلف، و«مقالات الإسلاميين» للأشعرى، وكتاب «الفصل لابن حزم» و«الطبقات الكبرى لابن سعد» و«الملل والنحل للشهرستانى»، وكتاب «الخطط» للمقريزى و«الخطط» لابن الأثير و«تاريخ الأمم والملوك» للطبرى، وكتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد، «ومنهاج الكرامة فى معرفة الإمامة» لجمال الدين الحلى، و«فرق الشيعة» لحسن بن موسى النوبختى، و«فهرست كتب الشيعة» لأبى جعفر الطوسى وكتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى. وكثير غير هذا من المصادر الإسلامية، و«الاحتجاج للطبرسى» و«الشيعة فى الميزان» محمد جواد مغنية. و«تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة» د/ محمد على فياض. و«عقائد الإمامية» محمد رضا المظفر. ومرتضى العسكرى. و«إمامية الزيدية».

ومن الأوربية التى يعتبر مؤلفوها من أعيان الباحثين كـ «ماسينيون» و «هنرى كوربان» و «نادير» وما إلى ذلك مما يؤلف مجموعة محترمة من المستندات المذهبية والتاريخية المعتمدة و«فيلهوزن» و«فان فلوتن»، و«أبليايف» و«دونالدس» و«جولدتسيهر». ومهما يكن من الأمر فإن الدور الذى مثله أهل الاعتزال، إذ يعنى بقيمة زعمائها العقلية والعملية وبنضالهم القوى ضد غلاة الشيعة وضد جميع الفرق التى أحدثت تشققات فى الصفوف الإسلامية أو فتحت ثغرات فى الأمة.

وكانت محاولات ابن هُبَيْرَة الذى كان وزير المكتفى والمستنجد على التعاقب والذى كان من أشهر مشاهير المناضلين عن السنة وكان يحدوه الأمل القوى فى إعادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بناء ذلك التماسك، وقد آمن بأن الوسيلة المثلى لهذا هى ربط الشيعة المعتدلة بالسنية. ومن نصوصه فى ذلك قوله: «نحن لا نريد ترك على بين أيدى الروافض فنحن أحق منهم بأن نعده منا إذ إننا ننتمى إليه وهو ينتمى إلينا».

وقد نقل لنا فى مؤلفنا هذا النص لابن هبيرة من كتاب «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب؛ ولأن محاولاته جديرة بالدراسة.

ومما يدعو المؤلف إلى احترام الوزير أنه كان فى كتابه، «الإفصاح» معتدلا إلى أبعد حدود الاعتدال فذكر جميع أصحاب المذاهب التشريعية على مستوى واحد دون انحياز إلى أحدهم ضد الآخرين.

ومن تلك الجهود المشكورة أيضا «نادر شاه» الذى أراد - فى القرن الثامن عشر - أن ينقب عن حل سلمى للمشاكل التى استعصت منذ زمن بعيد بين أهل السنة والشيعة المعتدلة والتى طالما تسببت فى معارك دموية اشتعل أوارها بين هاتين الطائفتين من المسلمين. وأخيرا اهتدى إلى ذلك الحل الحاسم فى رأيه، وهو قد عرضه على الباب العالى واقترح إصدار أمر رسمى بضم مذهب الجعفرية الشيعى إلى المذاهب الأربعة. ولا سيما وأن هذا المذهب كان سائدا وحيويا لدى شيعة العراق المعتدلين، ولكن الباب العالى - بعد أن تردد كثيرا - رفض هذا العرض؛ لأنه كان يخشى من أن تنفيذه يرفع شأن «نادر شاه» وأن يخلد اسمه كواضع السلام والاستقرار فى الإسلام. وهذه تحتاج إلى دراسة. وكان الشهرستانى وهو من أهل السنة وكان يتذوق الشيعة الاثنى عشرية كما يظهر من تفسيره «مصابيح الأنوار ومفاتيح الأسرار» أنه يعادى الغالية وينفيها عن الجعفرية، مؤسسى الشيعة المعتدلة، وسارت على خطاه الاثنى عشرية فيروى نصا: أن سدير الصيرفى سأل جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - فقال: جعلت فداك إن شيعتكم اختلفت فيكم فأكثرت حتى قال بعضهم: إن الإمام ينكت فى أذنه، وقال آخرون يقذف فى قلبه، وقال آخرون: يرى فى منامه، وقال آخرون: إنما يفتى بكتب آبائه فبأى جوابهم آخذ جعلنى الله فداك ؟ قال: لا تأخذ بشىء مما يقولون يا سدير، نحن حجة الله وأمناؤه على خلقه، حلالنا من كتاب الله، وحرامنا منه».

«روى أن الفيض بن المختار دخل على جعفر بن محمد - عليه السلام - فقال: جعلت فداك؛ ما هذا الاختلاف الذى بين شيعتك، فإنى ربما أجلس فى حلقتهم بالكوفة فأكاد أشك، فأرجع إلى المفضل فأجد عنده ما أسكن إليه فقال أبو عبد الله: أجل إن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناس أغروا بالكذب علينا حتى كأن الله عز وجل فرضه عليهم، لا يريد منهم غيره وإنى لأحدث أحدِهم الحديث فلا يخرج من عندى حتى يتأوله على غير تأويله».

«كتب إليه (إلى الإمام الصادق) إن قوما من شيعته قالوا: إن الصلاة رجل والصوم رجل، والزكاة رجل، والحج رجل، فمن عرف ذلك الرجل فقد صلى وصام وزكى وحج. وكذلك تأوّلوا المحارم على أشخاص، فقال:

ومن كان يدين لله بهذه الصفة التى سألت عنها فهو عندى مشرك بيّنٌ الشرك. واعلم أن هؤلاء القوم سمعوا مالم يقفوا على حقيقته، ولم يعرفوا حدوده فوضعوا حدود تلك الأشياء مقاسة برأيهم، ومنتهى عقولهم، ولم يضعوها على حدود ما أمروا به تكذيبا وافتراء على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ، وجرأة على المعاصى، والله تعالى لم يبعث نبيا يدعو إلى معرفة ليس فيها طاعة، وإنما يقبل الله عز وجل العمل من العباد بالفرائض التى فرضها عليهم بعد معرفة من جاء بها من عنده. فأوّل ذلك معرفة من دعا إليه، وهو الله الذى لا إله إلا هو، وتوحيده، والإقرار بربوبيته، ومعرفة الرسول ﷺ الذى بلغ عنه، وقبول ما جاء به، ثم معرفة الأئمة بعد الرسل الذين افترض طاعتهم فى كل عصر وزمان على أهله، ثم العمل بما افترض الله عز وجل على العباد من الطاعات ظاهرا وباطنا واجتناب ما حرم الله عز وجل تحريما ظاهرا وباطنا، وإنما حرم الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر جميعا. والأصل والفرع كذلك.

بعد تولى السلطان محمود ملك شاه بعد موت أخيه كبيارق سنة ٤٨٩ هـ السلطة أخذ يحارب الإسماعيلية وهدم قلعة «شاه دز» قلعة «ضان لنجان»من قلاع الإسماعيلية. ومن هذا العصر اتهم وزيره سعد الملك، سعد بن محمد الرازى بأنه مال إلى الباطنية فقتل، وأرسل السلطان محمد جيشا لمحاصرة قلعة «آلموت».

ويبدو أن الشدة التى واجهت الباطنية شجعت الخصوم والأصدقاء أن يزيف بعضهم لبعض التهم طمعا فى صفاء الجو لهم. من هنا كان هاجس الميل إلى الباطنية منتشرا فى هذا العصر، ومن المؤكد أن عددا من الأبرياء وبخاصة من الشيعة الإمامية ذهبوا ضحية هذا الهاجس. وبشأن سعد الملك الرازى يذكر صاحب النقض: إنه كان شيعيا إماميا أصوليا، لكن حاشية السلطان محمد حسدوا هذا الوزير فوشوا به، وأوغروا عليه صدر السلطان فقتله، ثم ندم السلطان، وبكى عليه، وأغدق العطاء على من رثاه، وأمر بدفنه بإجلال واحترام. النقض / ٨٦ ـ ٨٧ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى الشيعة الإماميـة لم يسلموا من غدر الباطنية، ذلك يعطى رأينا قوة ويوجب على الشيعة المعتدلة أن يجتمعوا ويعلنوا براءتهم من تلك الطوائف الغالية.

وإننا لمع أئمة التقريب بين المذاهب بأن فكرة التـقريب بين المذاهب أصبحت اليوم حاجة ملحـة وهدفا رفيعا لكل مـسلم غيور على الإسلام، مـهما كانت نزعتـه المذهبية ورأيه فى المخالفات المذهبية، ويقول الشيخ محمد رضا المظفر:

«وليس شىء أفضل فى التقريب بين المذاهب الإسلامـية من أهل كل عقيدة كشف دقائقهـا وحقائقها» فـهذه الطريقة ـ فيمـا أعتقد ـ أسلم فى إعطاء الفكرة الصحـيحة عن المذاهب، وأقرب إلى فهم الصواب من الرأى الذى يعتنقه جماعته.

وتلك رسالة الكتاب.

د / محمد إبراهيم الفيومى

القاهرة - مدينة نصر - منطقة ٦

٣٣ أ ش محمود غنيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

المشكلة السياسية العظمى

مَـن الخليفةُ ؟

مشكلة فى تاريخ وتاريخ فى مشكلة

الفصل الأول

الخلافة والقوى المضادة

الفصل الثانى

قوى المدينة: الخروج على الشرعية

الفصل الثالث

قوى الشام المضادة: معاوية وعمرو بن العاص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

الخلافة والقوى المضادة

لما قضى النبى ﷺ دون أن يوصى بمن يخلفه ودون أن يرد فى القرآن الكريم نص على من يخلفه، أو قاعدة عرفية سبقت لاختيار خلفه أو خليفته الذى سيرأس الجماعة الإسلامية حار المسلمون فى الأمر كيف تفصل فى مسألة عظمى؟ مسألة الزعامة الزمنية ولمن تكون، تلك المسائل هى التى شقت المسلمين إلى شقين متقابلين أخيرا، يحكم بينهما السيف وهيأ الأساس التاريخى لتطور عقيدة الإمامة. فظلت محلا للخلاف بين المسلمين. وليس من شك فى أن الرسول ﷺ كانت له فى حياته، بوصفه الرسول ﷺ، سلطة لا تحتمل الجدل. ولكنه تُوفى من غير أن يعين خليفة له. ولعل المؤمنين كانوا يتوقعون، فى أثناء حياة النبى ﷺ، أن يظل هو على رأس الجماعة الإسلامية إلى يوم الحساب بالذات، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى نشأت فى المدينة منازعات حربية كادت تهدد كيان العرب السياسى الجديد بالانحلال التام ولم تكن ثمة حقوق وراثية، بل لم تكن ثمة طريقة معروفة للانتخاب. والقرآن الكريم نفسه - دستور يسير النبى ﷺ على ضوئه فى الحكم - لم يشتمل على أيما توجيه يستعين به المسلمون على حلّ مشكلتهم، ويهديهم سواء السبيل إلى معرفة الرجل الذى يجب أن يدعى لخلافة الرسول ﷺ. وما كان لشىء أن ينقذ سفينة الدولة من الغرق، فى غمرة هذا النزاع، غير قرار جرىء.

فالنبى ﷺ لم يعقب ولدا. لكن الأمر لم يتم على هذا النحو. بل تم انتخاب أبى بكر، وقد تم هذا الانتخاب بمهارة. لكن على الرغم مما أحدثه هذا الاختيار من غم فى قلوب أنصار على بن أبى طالب، بيد أن الجميع امتثلوا لهذا الاختيار نظرا لما تحلى به أبو بكر من فضائل ومزايا. وباستفتاء مماثل تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبى بكر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والواقع أن مهمة عمر كانت صعبة فى وسط هذه البيئة التى طالما أثارتها الدسائس والحزازات الصغيرة، وبخاصة لأن أصحاب النبى ﷺ السابقين إلى الإسلام كانوا يحصون عليه أعماله، وكأنهم مجلس شيوخ وفى سنة ٦٤٤م، قُتِل عُمر لدُنْ عودته من الحج الذى اعتاد أداءه كل عام، وهو فى غمرة نضاله الجليل بسبيل نشر راية الإسلام، وعزمُ الشباب لمّا يزل - أو يكاد - ملء بُرْدَيه. ذلك بأنّ غلاما فارسيا، هو أبو لؤلؤة فيروز - وكان يعمل فى المدينة فى خدمة حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة - جاء الخليفة يشتكى إليه شدة الخراج الذى كان يتعين عليه أن يجمعه لسيده، فلم يسمع منه، فلما كان صباح اليوم التالى وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤم الناس فى صلاة الصبح طعنه الفارسى بخنجره طعنتين، كانت إحداهما قاتلة، وإذ قد جاءه الموتُ فجأة، فلم يكن فى ميسور عمر أن يتخذ أى إجراء فى ما يتصل بالخلافة. وكان أبو عبيدة - وهو أقرب الناس إليه بعد أبى بكر - قد توفى قبله. وليس بالإمكان أن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذى عين - على فراش الموت - أهل الشورى الذين فصلوا فى المسألة بعد وفاته. وكانت وفاته فى ٢٣ تشرين الثانى سنة٦٤٤م.

وكذلك تولى عثمان من بعد مقتل عمر. وعثمان بن عفان من بنى أمية، وهى أسرة مكية، من التجار ذوى النفوذ الكبير فى مكة، وبزعامة أبى سفيان حاربت الرسول ﷺ وقاومت الدعوة الجديدة بعنف، ولم تعتنق الإسلام إلا بقوة السلاح لما استولى المسلمون على مكة، ولكن عثمان بن عفان آمن بالإسلام إيمانا صادقا مخلصا لا تشوبه مثل تلك العواطف. وكان مثالا للتقى والورع، وحكم الجماعة بنزاهة مطلقة، والأمر الوحيد الذى يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه عين أقاربه فى الوظائف الكبرى، وخصوصا أنه أعطى معاوية بن أبى سفيان حكم دمشق والشام.

والواقع أن الأمويين هم أنسباء بنى هاشم، عشيرة النبى ﷺ، ولكنهم كانوا فى العصر الجاهلى أرفع منهم مكانا وأشد قوة وبأسا. وكان سيدهم البارع، أبو سفيان، قلب المعارضة القرشية للنبى ﷺ طوال سنوات عديدة. حتى إذا تم للمسلمين فتح مكة استقر معظم الأمويين فى المدينة، حيث عمل النبى ﷺ على إرضائهم وتأليف قلوبهم، بشتى الطرق والأساليب. وفى عهد أبى بكر وعمر وفق يزيد بن أبى سفيان، ووفق أخوه معاوية من بعده، إلى أن يبلغا مرتبة بارزة فى الدولة.

وقام أنصار على (باستثناء على نفسه) بمعارضة هؤلاء الخلفاء الثلاثة خفية ولكن لم يحدث انشقاق مفتوح بين هذا الفريق المناصر لعلى، وهم الصحابة المتمسكون بسنّة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسول ﷺ، وبين الفريق الآخر الذى كان يشمل مسلمين فاترى الإيمان. وهذا الفريق الأخير كان على رأسه بنو أميّة وخصوصا فى عهد خلافة عثمان، ومعاوية والى الشام.

فلما قتل عثمان فى سنة ٣٦هـ (٦٥٦م) فى بيته بالمدينة على يد الذين تسوروا بيته ودخلوا عليه وهو يتلو القرآن[١]، أراد الحزب الأموى بزعامة معاوية الانتقام لقتل عثمان، مدعيا أن لعلى يدا فى هذا القتل، وهو ادعاء كاذب.

فانضم أهل المدينة جميعا، وقسم كبير من أهل مكة، إلى على الذى كان هؤلاء المسلمون المتحمسون يعدونه الأحق بالخلافة بنوع من الحق الإلهى.

وبعد معركة صِفِّين، الواقعة على شاطئ الفرات (فى سنة ٣٧هـ/٦٥٨م) بين على ومعاوية، انتصرت حيلة الأموى على أمانة على. لقد وافق علي على التحكيم الذى انتهى بعزله، وذلك فى اللحظة التى أوشك فيها أن ينتصر على خصمه معاوية نصرا حاسما.

واندلعت النار فى الكوفة. ففى حُزَيْران سنة ٦٥٥ اعترضت قوة تتألف من ألف شخص على رأسهم مالك الأشتر اليمنى الذى كان مواليا لعلىّ شخصيا، سبيل عامل الكوفة، سعيد. عند عودته من الحج ومنعته من دخول البلدة. وحسب عثمان أن فى ميسوره أن يدفع الكارثة كرّة أخرى، فاستبدل بسعيد رجلا آخر يرضى عنه الكوفيون.

وفى مصر لم يغمض عثمان عينه عن خلع عمرو بن العاص، فاتح البلاد، وتعيين نسيبه [عبد الله بن سعد] ابن أبى سرْح، حاكما مكانه وكان النبى ﷺ أهدَر مرة

---

(١) يراجع: الفرق الإسلامية - الفريد بيل - ترجمة د. عبد الرحمن بدوى.
: الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى د. محمد إبراهيم الفيومى، دار الشروق.
: تاريخ الشعوب الإسلامية - بروكلمان - تعريب: نبيه أمين فارس - منير بعلبكى.
: الإسلام والعرب - روم لاندوا - ترجمة منير بعلبكى.
: العرب والإسلام والخلافة العربية تأليف إيليا بيف نقله إلى العربية د. أنيس فريحه.
: تاريخ العرب العام لـ.أ. سيديو ترجمة عادل زعيتر.
: تاريخ العرب - فيليب حتى.

الروايات فيمن قتل عثمان بن عفان متضاربة: قيل: إن الذى تولى قتله كنانة بن بشر التجيبى، وطعنه عمر بن الحمق عدة طعنات. وجاء عمير بن ضابئ البرمجى - وكان أبوه قد مات فى سجن عثمان - فوثب عليه حتى كسر ضلعا من أضلاعه، وفى رواية أخرى أن الغافقى بن حرب ضربه بحديدة فى فيه، ثم تقدم سودان بن حُمْران بالسيف وضرب عثمان فقتله. ولسنا نعلم أن أحد هؤلاء فارسى نصرانى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دمَ هذا الأخير ثم عفا عنه واشتدت النقمة على عثمان فى مصر، وانضم إلى عمرو فى إذكائها محمد بن أبى حذيفة وهو ابن أبى بكر الصديق بالتبنى ومن أشياع علىّ المتحمسين. وفيما كانت إحدى المعارك البحرية الكبرى تدور على الشاطئ الليقيائى بين الأسطول المصرى وبين البيزنطيين فى عهد الإمبراطور قسطنطين الثانى، انسحب الناقمون من المعركة على ظهر إحدى السفن زاعمين أن الجهاد الحق قد انتهى إلى أن يهمل ويطرح. فلما كانت السنة التالية سار جمع من العرب يبلغ عددهم خمسمائة رجل من مصر إلى المدينة ليشنوا هناك الحرب التى يريدها الله ضد العدو الداخلى، وفى نيسان سنة ٦٥٦ بلغ هؤلاء أبواب المدينة، فإذا معظم أهلها يقفون إلى جانبهم. وكان عثمان، وهو فى ذلك الحين سيد أقوى إمبراطورية على وجه الأرض، لا يملك فى مقره سلاحا مهما، يدفع به الناقمين. ومن هنا تعين عليه أن يباشر المفاوضات مع خمسمائة ثائر، فوفق إلى إقناعهم بالانسحاب واعدا إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق مطالبهم. ولكن الأمويين لم يلبثوا أن أطلعوا رؤوسهم ثانية، وحملوا الخليفة على أن يؤكد فى خطبة الجمعة التالية، أن المصريين إنما رجعوا إلى بلادهم؛ لأنهم وجدوا أنفسهم على ضلال. فاستاء أهل المدينة لذلك أشد الاستياء حتى لقد عيروا عثمان ورجموه بالحجارة. فسقط مغشيا عليه وحمله القوم إلى خارج المسجد، الذى لم تطؤه قدماه بعد ذلك قط[1].

وتجمهر المدنيون حول منزل عثمان ورفضوا أن يتزحزحوا من أماكنهم. ورجع المصريون أيضا، مدعين أنه قد وقعت فى أيديهم رسالة من عثمان إلى عامله ابن أبى سرح يأمره فيها بالفتك بالزعماء عقب عودتهم، على الرغم من أن الخليفة أنكر أن تكون له معرفة بالرسالة التى وضعت نصب عينيه. عندئذ طلب إليه الثائرون أن يستقيل ما دام من الممكن أن يجرى شىء كهذا من غير علمه، ولكن عثمان رفض أن يحقق هذا الاقتراح الجرىء الذى تقدم به الثائرون، فحاصروه فى منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من أنسبائه وبعض العبيد والموالى. أما المحرضون الفعليون على الثورة، على وطلحة والزبير، فآثروا أن يتباعدوا إنقاذا للمظاهر. وأما السيدة عائشة، فتركت المدينة تحت ستار الحج إلى مكة، لكى لا تشهد الوقائع فيما بعد.

وانتهى النضال إلى ذروته عندما رشق أحد المدافعين عن عثمان رجلا من المصريين بحجر فقتله. وطالب الثائرون بتسليم القاتل فلم يجابوا إلى طلبهم، فانقضوا

(١) هى معركة ذات الصوارى. تاريخ الدولة العربية ـ فلهاوزن ـ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على المنزل من الأراضي المجاورة، وقتلوا الخليفة الذى كان يتلو القرآن فى هدوء، من غير أن يشترك فى المعركة، وانتهبوا ما فى بيته. وكان ذلك يوم الجمعة ١٧ حزيران ٦٥٦ فسال دم الخليفة على نسخة القرآن التى كان يقرأ فيها، وإنما خُبِّئتْ هذه النسخة، كأثر مقدس، ولكن عددا من خزائن الكتب لم تلبث أن تنازعت فى ما بعد شرف امتلاكها فزعمت أن نسختها هى الأصلية. ودفنت امرأة عثمان ـ نائلة الكلبية، التى أصيبت أيضا بجراح ـ جثة الخليفة الصريع فى سكينة الليل[1]، يساعدها بعض الأصدقاء، وأرسلت بعض أصابع نائلة المقطوعة إلى ابن عم عثمان، معاوية أمير سورية، فكان يلوح بها من على المنبر ليستثير حماسة الناس للأخذ بثأر الخليفة. وكان معاوية قد وجه إلى المدينة قوات لنصرة عثمان، فلم تكد تعلم بمصرعه حتى رجعت وهى فى منتصف الطريق[2].

قوى العصبية القبلية المضادة «المرتدون»:

أ- المرتدون:

لم يكن فى وسع العرب أن يشقوا لهم طريقا إلى الخارج طالما كانوا محاطين بدول قوية سياسيا وحربيا: روما وبيزنطة وفارس.

لكن فى مستهل القرن السابع ظهر الإسلام فى جزيرة العرب وأظل الجميع بقيادة سياسية واحدة وقاعدة مشتركة. لقد جمع تحت سلطان واحد قوى هو سلطان النبى محمد ﷺ أولا، ثم سلطان الخلفاء من بعده، غير أن جنود الفتوح الإسلامية، أولئك العرب القادمون من قبائل بدوية رحل فى الجزيرة العربية، كان أكثرهم شديدى الغيرة الدينية والتقوى الإسلامية، وبعضهم الآخر قد أنحى القرآن عليهم باللائمة على ذلك: ﴿ الأَعرَابُ أَشَدُّ كُفراً وَنِفَاقًا.... ﴾ [التوبة: ٩٧]؛ وفى آية أخرى تتعلق بالكفار من العرب: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٠].

وهذا الفتور الدينى الذى عند بعض بدو بلاد العرب سنجده فيما بعد قد أثر على سير الأحداث فى صفين وعلى ما لاقاه الحسين من الغدر به.

بدأ فتور الإيمان الدينى يظهر مسلحا فى عصر الخليفة الأول.

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١١٣ بروكلمان.

(٢) العرب الإسلام والخلافة العربية: س. إيليا بيف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حينئذ بدأت موجة من الارتداد ما لبثت أن طغت على الحياة فى بلاد العرب والواقع أن الدوافع الدينية لم تكن مسئولة عن هذه الموجة إلا نادرا، كل ما فى الأمر أن بعض العرب رغبوا فى أن يتخلصوا من سلطة المسلمين.

أعلن بعض المرتدين أنهم لا يزالون راغبين فى أن يعبدوا الله، ولكنهم يرفضون أن يدفعوا الزكاة. وإنما استاؤوا بخاصة من الرسل الذين كان الرسول ﷺ يبعث بهم فى السنوات السالفة إلى كثير من القبائل ليعلموها الدين الجديد ويجمعوا من أفرادها الزكاة. فقد كان هؤلاء الرسل مصدر إزعاج وإعنات فى نظر القبائل البدوية التى كانت تتمتع من قبل بكامل حريتها واستقلالها فى مراعيها الخاصة[1].

وكان النبى ﷺ قد شغل نفسه فى أيامه الأخيرة، بإعداد الجيوش للقصاص من البيزنطيين الذين هزموا المسلمين فى مؤتة، فوجد أبو بكر نفسه مسئولا عن إنفاذ خطة النبى ﷺ الأخيرة هذه، على الرغم من أن الأنباء المخوفة عن شيوع الاضطراب فى أنحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة من كل حدب وصوب، وهكذا وجه أبو بكر نخبة جيوش الإسلام إلى الشمال تحت قيادة أسامة، ولكننا لا نعرف شيئا عما استطاعت هذه الحملة أن تحققه من الأعمال، بل لسنا نعرف ما إذا كانت قد اجتازت الحدود البيزنطية أم لا. ومهما يكن، فقد قضى أسامة وجنوده شهرين خارج المدينة، وبذلك أصبحت عاصمة المسلمين فى مركز لا يساعدها كثيرا على الدفاع عن نفسها، والواقع أن أسدا وغطفان، النازلين غير بعيد عن المدينة، كانوا أول من أفاد من هذا الوضع، فهاجموا المسلمين. ولكن أبا بكر استطاع أن يثبت لهم ويصدهم عن أهدافهم ريثما عادت حملة أسامة إلى المدينة، فعهد عندئذ بالقيادة إلى «سيف الله» المجرب، خالد بن الوليد، الذى هزم كلتا القبيلتين عند بئر «بزاخة» هزيمة حاسمة اضطرتهما إلى الاستسلام فى الحال.

أما هؤلاء الذين ارتدوا عن الإسلام عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنهم لم يرتدوا عنه لبغضهم إياه وكراهيتهم له، وإنما ظنوا أن الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول ﷺ. أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد عماد هذا الدين، بل

(١) يراجع: تاريخ الدولة العربية ج ٣٥٠، فلهاوزن.
السيادة العربية ص ٥٠ فان فلوتن ترجمة.
تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٠٠ كارل بروكلمان
تاريخ العرب العام ص ١١٠ لـ. أ. سيديو. عادل زعيتر
العرب والإسلام والخلافة العربية ص ١٧٣ ش. إيليا بيف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زعموا أن الزكـاة إنما هى إتاوة يدفعونها للرسـول ﷺ. ومن ثم لم يجدوا مبررا لدفـعها بعد وفاته[1].

على أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين حقا، فقد كان السواد الأعظم منهم من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق. وقد نعى الله ـ سبـحانه وتعالى ـ عليهم هذا فى غير آية من القرآن من ذلك قـوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعرَابُ آمَنَّا قُل لَّم تُؤمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسلَمنَا وَلَمَّا يَدخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتكُم (ينقصكم) مِّن أَعمَالِكُم شَيئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَم يَرتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَموَالِهِم وَأَنفُسِهِم فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُل أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُم وَاللَّهُ يَعلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤ـ ١٦]. ومما يدل على أن هؤلاء لم يسلموا حقا وإنما تورطوا فى الدخول فى الإسلام منُّهم بإسلامهم على الرسول ﷺ. وقد ندد عليهم القرآن الكريم فى ذلك بقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَن أَسلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُم أَن هَدَاكُم لِلإِيمَانِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] المترجمان.

وهنا كما يرى «فان فلوتن» أن أولئك الوصوليين الذين لم يدخلوا الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه، وإنما دخلوه لأنه دين الفاتحين ولما عساه أن يدره عليهم من النفع أو يدرأ عنهم من الشر وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، إذ لا تخلو أمة من الأمم من ذلك الفريق من ضعاف النفوس ومرضى القلوب، ولاسيما فى تلك الأوقات العصيبة والانقلابات السياسية والاجتماعية العنيفة حيث يقوم دين جديد على أنقاض دين قديم وتقوم دولة فتية على أطلال دولة متداعية. ولقد مُنِىَ الإسلام وابتليت الأمة العربية بتلك الطائفة التى اتخذت الإسلام جنة لتدبير المؤامرات ضد المسلمين ولم يكن قتل عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة إلا نتيجة لتلك المؤامرة التى دبرها له الهرمزان لما كان يكنه من الحقد للعرب بعد أن ثلوا عرش الفرس ومزقوا دولتهم. كذلك اتخذ بعض اليهود والنصارى الإسلام ستارا يكيدون من ورائه لهذا الدين الحنيف، فأدخلوا فيه الكثير من الخرافات والأساطير التى لا تمت إلى هذا الدين الحنيف بصلة. ولولا ما قام به علماء المسلمين ولاسيما علماء التفسير ومصطلح الحديث لمقاومة

(١) السيادة العربية ص ٢٠٠ فان فلوتن - ترجمة إبراهيم حسن، وزكى إبراهيم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك الخطر الداهم لضاع الإسلام ولعصفت به أعاصير تلك الضلالات والبدع التى أثارها عليه هؤلاء الأدعياء على الإسلام منذ القرن الأول الهجرى[1].

كان أبو بكر شديد الحيطة فى أمر المرتدين: فكان لا يأخذ فى ذلك بالشبه ولا يحكم فيه بالظنّة، إذ كان يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليه من أمر الدين، وما عرض له من الشُبَه فى صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة.

وإلى القارئ طائفة من أقوال الأئمة فى هذا الموضوع: قال أبو حنيفة: إذا ارتد المسلم عرض عليه الإسلام وأجل ثلاثة أيام؛ لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها، فعلينا إزالة تلك الشبهة، أو هو يحتاج إلى التفكر لنبين له الحق فلا يكون ذلك إلا بمهلة، فإن استمهل كان على الإمام أن يمهله، ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام فى الشرع كما فى الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية فى البيوع). فلهذا يمهله ثلاثة[2].

ب- المتنبئون:

١ - مسيلمة: من بنى حنيفة وتميم:

أما فتنة بنى حنيفة فى اليمامة فقد كانت أمرَّ عودا وأشد خطرا. ففيما كان محمد ﷺ لا يزال على قيد الحياة ظهر فى تلك البلاد رجل اسمه مَسْلَمَة - وقد دعاه المؤرخون مسيلمة من باب التصغير الذى يقصد به التحقير - وادعى النبوّة، مطالبا حكومة المدينة بأن تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوقها. والذى يبدو أن مسيلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديدا خاصا، فأوصى بالصيام وحرم الخمر، وحض أتباعه على الطهارة والعفة سامحا لكل منهم بالاتصال الجنسى إلى أن يرزق ابنا ذكرا، فحسب. وفى الواقع أننا نقع فى خطبه على أصداء من الأفكار المسيحية. أفرغت فى لغة رجل بدوى يحرث الأرض، فهو يتكلم عن «الشاء السود، وعن اللبن الأبيض، وعن الطاحنات والخابزات، وعن الضفدعة التى تعيش فى الماء والطين، ولكنه يتكلم أيضاً عن مملكة السماء، وعن ذاك الذى سيأتى من السماء»[3]. ولقد كان لهذا الرجل، على الرغم من

---

(١) السيادة العربية ص ٢٠١.

(٢) كتاب المبسوط لشمس الدين السَّرَخسىّ (القاهرة سنة ١٣٢٤هـ) ج ١٠ ص ٩٨ - ١٠٠.

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى - تحقيق السيد صقر، ذكر نماذج من ترهاتهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سذاجتـه، أثر كبير فى نفـوس أتباعه من قبيلـته حتى أن كثيـرا منهم ظل يؤمن به بعد سنوات من سقوطه.

٢ - سَجَاح: من بنى تميم وبنى تغلب وبنى حنظلة:

وفى شمـالى الجزيرة أضرمت امـرأة تدعى «سجـاح» نيران حركـة تشبه حـركة مسـيلمة، بين أفراد قبـيلة تميم، النازلة على مقـربة من الحدود الفارسيـة. وإنما ظهرت سجاح، أول ما ظهـرت، بين أخوالها بنى تغلب فى العراق، وكانت النصـرانية واسعة الانتشار فـيهم حتى إذا جاءها نبأ وفاة النـبى ﷺ سارت مع عدد كبير من أتبـاعها إلى أنسبائها من قـبيلة تميم الذين كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مـستوى ثقافى أدنى من مسـتوى غيـرهم من العرب، فهم يؤلهـون الشمس، على الخـصوص. ولم يؤيدها أول الأمر غير أقربائها الأدنين، بنى حنظلة، ولكنها ما لبثت أن بسطت سلطانها على القبيلة برمتهـا. وتذهب الروايات إلى أنها اتجهت بعـد إلى الجنوب وعقدت حلفا مع مـسيلمة، ولكنهمـا لم يوفقا إلى توحيـد قوى أتباعهمـا فى نضال مشتـرك ضد المدينة. وهكذا لم يلبث الحليفان أن افترقا، فرجعت سجاح إلى العراق، حيث اختتمت نشاطها العام. وفى الأخبار أنها ماتت على الإسلام، والواقع أنه عندما ظهر خالد بن الوليد فى أراضى تميم تقـدم إليه القـوم بالطاعة فى كل مكان تقـريبا، ولم يشـذ عن هذا الإجمـاع ويخلص لإيمانه بسجـاح، حتى النهاية، إلا مالك بن نُوَيرَةَ سـيد بنى يربوع، من حنظلة، الذى ارتد عن الإسلام، عقب وفـاة النبى ﷺ مباشرة. ولكن خالـدا ما لبث أن طوقه وجنده فاضطر إلى الاستسـلام أيضا. ومع ذلك فقد أمر خالد بقتله، وبقتل جـميع أتباعه شطرا لعناده.

وبعد إخضـاع تميم انقلب خالد إلى اليمـامة لقتال أصـحاب مسيلمـة وكانوا قد هزموا قوة إسلامية يقودها عكرمة. وسار مسيلمة بعد هذا النجاح الأول حتى بلغ حدود اليمامـة الشمالية حيث وقـعت معركة حاسـمة فى عقربة، لم تعـرف بلاد العرب كلها أعنف منها من قـبل. ولكى يلهب خالد طمـوح رجاله، فقـد جعل كلا من المهـاجرين والأنصار والبدو يحـارب مستقلا عن الآخـر. وكانت قوة مسيلمـة التى تتألف من بنى حنيفة تفـوق قوة خالد عددا، فقـاتلت قتالا شديدا، فانكشف المسلمـون وأشرفوا على الهزيمـة. ولكن سخرية بنى حنيفـة بهم دعتهم إلى أن يبـذلوا أقصى ما يستطيـعون من جهد، فوقفوا أولا إلى أن يضعوا حدا لتقدم العـدو، وما لبثوا أن ردوه على عقبيه شيئا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد شيء. فلما رأى بنو حنيفة أن الهزيمة لا بد واقعة بهم تراجعوا إلى حديقة واسعة، ابتغاء أن يجدوا فى حيطانها المنيعة ما يقوى مركزهم ويقيهم عادية هجوم المسلمين. غير أن هذا العمل بالذات هو الذى انتهى بهم إلى الهزيمة، فقد هجم المسلمون على حديقة الموت، كما تدعوها الروايات، وفتكوا بأعدائهم فتكا ذريعا لم ينج منه أحد، حتى مسيلمة نفسه. ولم تكن خسائر المسلمين يسيرة، فقد استشهد من المهاجرين والأنصار وحدهم سبعمائة رجل، بينهم كثير من أصحاب الرسول ﷺ السابقين إلى الإسلام، وكبار حفظة القرآن.

والحق أن هذه الغلبة التى اشتراها المسلمون بثمن غال، لم تقرر مصائر بنى حنيفة فحسب، بل مصائر العرب على الجملة، فقد احتمت فلول قوات مسيلمة المشتتة، فى حصونها ثم استسلمت حذر الموت، وبذلك قضى هناك على الثورة قضاء مبرما.

٣ - نبوة عبهلة ذو الحمار: حضرموت:

أصاب الانحطاط السريع الإمبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى الثانى (أبرويز) الساسانى، سنة ٦٢٨م، فقد تركت الولايات العربية، وبخاصة اليمن النائية، لتدير شئونها بنفسها. وفى غمرة من هذه الفوضى العامة التى اجتاحت البلاد، أعلنت قبائل كثيرة إسلامها، من طريق الوفود التى بعثت بها إلى المدينة، عقب فتح مكة، ولقد وفق النبى ﷺ قبل وفاته إلى إقرار النظام فى البلاد، وإلى تعيين ما يجب أن تؤديه من الضرائب تعيينا صار فى ما بعد مثلا يحتذى. ومع ذلك فلم يقض عماله على صغار الحكام المحليين المتعددين، بل عاضدوهم كما يعاضد ممثلو الدول الاستعمارية اليوم الأمراء الوطنيين، ولقد أنشأوا نظاما للمراقبة عاما، ونظموا شئون التشريع والعبادة، وجبوا الضرائب، قبل كل شيء. وإذ كان هذا المظهر غير الشعبى من مظاهر سلطة العمال الرسمية، كثيرا ما يحملهم على اصطناع تدابير قاسية فقد ثار عليهم الناس فى حضرموت، والنبى ﷺ لا يزال على قيد الحياة، ثورة لم تلبث أن قمعت بأقصى الشدة. وحتى قبل هذه الثورة، ظهر فى قبيلة الأوس رجل ادعى النبوة اسمه عبهلة ذو الحمار «أى راكب الحمار» (منذ القدم والحمار يعتبر فى الشرق، عموما، الدابة التى يمتطيها المخلص المنتظر)[زكريا ٩: ٩]. وهذا هو السبب الذى من أجله دخل يسوع القدس وهو راكب على أتان، والذى من أجله سمى مؤسس إحدى الفرق المتعصبة الناشئة فى شمالى أفريقية فى القرن العاشر«ذا الحمار». بل إن أحد الذين ثاروا فى مطلع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا القرن على سلطان مراكش اشتهر بلقب «بو حمارة». وكانت الوحدانية منتشرة انتشارا واسعا على أيدى اليهود والمسيحيين فى جنوبى بلاد العرب، ومن هنا لم يدع، ذو الحمار، الناس إلى عبادة صنم ما، أو وثن ما، ولكنه دعاهم إلى أن يعبدوا الله الرحيم. وجاءته الأنباء بمرض النبى محمد ﷺ بُعَيْدَ عودته من حجة الوداع، فشجعه ذلك على إعلان دعوته، فهاجم من نجران العامل الفارسى الذى كان لا يزال مقيما فى صنعاء. حتى إذا هزمه أمست اليمن كلها منطرحة على قدميه، ولكن الرسول ﷺ استطاع، برغم مرضه، أن يفيد من نفوذه هناك، من طريق رسله ورسائله، حتى لقد اجتمع المخلصون له على حرب النبى الكاذب. ثم إن [الأبناء، وهم] أرستقراطيو صنعاء الفرس، اتفقوا فى ما بينهم، بتحريض من أحد الرسل المسلمين، على قتل عبهلة، فتم ذلك على ما تقول الروايات قبل وفاة الرسول ﷺ بيوم واحد، ولكن ردة أخرى ما لبثت أن عقبت هذا النصر الإسلامى المؤقت. ذلك بأن رجلا اسمه قيس [بن عبد يغوث]، وكان من أحد أصحاب عبهلة وأعلاهم مقاما، أعلن الثورة على الفرس بمعاونة الغرب وتأييدهم. فما كان من أبى بكر إلا أن وجه إليه جيشا يقوده عامل كان محمد ﷺ نفسه قد عينه على جزء من حضرموت، فقضى على الفتنة وأقر الأمن فى البلاد.

جـ - قبائل الردة.. قبائل الخوارج ومن غدروا بالحسين:

راودنى فرض يرى أن قبائل الصحراء الذين شقوا عصا الطاعة على الجماعة الإسلامية وقام فيهم المتنبئون، كانت قبائل بنى تميم وتغلب وحنظلة وعرب حضرموت على حظ من النصرانية وكان بعضهم يؤلهون الشمس وإن ما بقى من خطبة مسيلمة - وهى قليلة - تعلن عن أصداء الأفكار المسيحية التى طبعتها بطابعها وبخاصة حين يتكلم عن مملكة السماء.

ونفس تلك القبائل هى التى كانت تجرى وراء كل ناعق، طيشا واستخفافا، دون أن تدرك عاقبة ما تسعى إليه، ولم تستطع أن تتخلص من طيشها ولم تواتها حكمة التريث إلا قليلا فصباحا مع هاتف الصباح ومساء مع هاتف المساء.

وكنا نرى أن قبائل تميم - وتغلب - وحنظلة وأسد وغطفان وبنو ضبة - الذين كانوا وراء حرب الردة والمتنبئين، هم الناكثون لبيعة الإمام على والخارجون على عثمان ووحدة الجماعة الإسلامية.. و هم أنفسهم الذين انخرطوا مع حركة عائشة وطلحة والزبير. وكان المؤرخون رصدوا تلك القبائل أيضا التى انشقت على الخلافة الشرعية ولم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يثبتوا عـلى رأى بل هم أنفسهم الذين وضعوا النواة الأولى للخروج والخـارجية منذ أن شقوا عصا الطاعة على الشرعية ثم شرعية الإمام على. .وتلك القبائل التى انضمت إلى جيش عائشة وطلحة والزبير. ثم أخيرا كسرت الحسين، وهى القبائل التى لحقت بالحسين وهو فى طريقه إلى الكوفـة ظنا منها أن الخلافة دانت له ولما رأوا جيش ابن زياد مـقبلا أدبروا فى أفناء الصحراء قبائل شتى.

قبـائل البصـرة التى انضمت إلى عائشـة وطلحة والزبيـر هى: تميم، حنظلة، بنو عمـرو بن تميم الرباب وهم: تَيْم، وعَـدِىّ، وثور، وعُكَل، وبنو عبـد المناف بن أد بن طابخة بن إلياس بن مُضَر، وضبة بن أد بن طابخة، وزيد مناة، ومعظم آل خندف، وكان على رأس هؤلاء هلال بن ويع بن دارم وأبو الجربـاء وهو من بنى عثمان بن عـمرو بن تميم، والمنجاب بن راشد[1].

كما انضمت إلى عائشة وطلحة والزبير قـبيلة الأزد وكان عليها مسعود وزياد ابنا عـمرو، وصـبـرة بن شيـمان الحـدانى وقـيل عـبد الرحـمن بن جـشم بن أبى حنين الحمامى[2].

وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير أفناء قيس بن سليم وعامر وباهلة[3].

وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير قسم بن ربيعـة وكان عليها عبد الله بن مالك، وكان على بكر بن وائل مالك بن مسمع[4].

وانضم إلى عـائشة وطلحـة والزبير: خـزاعة وكـان عليهـا عبـد الله بن خلف الخزاعى، وقضاعة وعليها عبـد الرحمن بن جابر الراسبى وقيل الرعبى الجمى، ومذحج الربيع وعليـها ابن زياد الحارثى، والشـواذب وعليها رجـلان، وعلى مضـر الخربت بن راشد، وعلى سائر اليمن ذو الأجرة الحميرى. كما انضم إلى معسكر عائشة هوازن وبنو سليم، والأعجـاز وعليها مُـجَاشِعُ بن مسعـود السلمى، وعلى عامر زفـر بن الحارث، وعلى غطفان أعصر بن النعمان الباهلى. وانضم إليها أيضا قواد من بنى ناجية[5].

(١) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٢٩ (قالوا)؛ الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٥٠٣، ٥٠٤.

(٢) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٢٩ (قالوا)؛ الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٥٠٤، ٥٠٥.

(٣) انظر حول ذلك البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٣٨. ابن أعثم، الفتوح. جـ ٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ ٤ ص ٥٠٥، جـ٤ ص٥١٦، ٥١٧ (أبو مخنف) الدينورى، الأخبار ص ١٤٧. الإمامة، جـ١ ص ٨٢. قبائل البصرة: ماسينيون، خطط البصرة وبغداد ص ١٦، ٢٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انضمت إلى عائشة وطلحة والزبير قوات من كنانة وبنى أسد.

ويبدو من أسماء قادة الخوارج أن معظمهم ينتمى إلى القبائل العربية الشمالية التى أسلمت متأخرة ولم يكن لها تراث حضارى فى الماضى. وظل أفرادها يمثلون النزعة البدوية التى يمكن استثارة الروح القبلية فيها ضد السلطة المركزية لقريش بالمدينة. أى من القبائل التى لا تقبل الخضوع بسهولة والتى لم تتأصل العقيدة فى نفوسهم وتتعمق مثل غيرهم بعد. فتميم من أكبر القبائل المضرية شأنا وعددا كأنها دخلت الإسلام متأخرة وأتت الرسول ﷺ فى آخر الوفود. كما أنها ارتدت بعد وفاته وادعى أشخاص منها النبوة مثل سجاح، وقيل: إن شبث بن ربعى التميمى[1]، أحد زعماء الخوارج كان مؤذنا لسجاح حين ادعت النبوة.

وقد خذل بنو تميم على بن أبى طالب فى معركة الجمل وحاربوا معه فى صفين ولكنهم ما لبثوا أن صاروا من الخوارج[2] ويبدو أن قبيلة تميم كانت من القبائل التى استهدفتها السبئية واستغلتها فى مخططاتها ضد الدولة الإسلامية.

لقد وجدت السبئية فى تميم بذلك أرضا خصبة لزرع ما تريد من أفكار ومبادئ حسب مخططهم. ومن الجدير بالذكر أن السبئية لم تكن لها مبدأ ثابت سوى القضاء على سيادة الإسلام. فقد كانت تجعل لكل مرحلة ما يناسبها من أقوال وفلسفات.

وبانقضاء حرب الردة، رجعت القبائل العربية التى أعلنت العصيان بعد وفاة النبى ﷺ والتى لم تخضع إلا بعد جهد ومشقة، إلى حظيرة الإسلام، وجنت من ذلك فوائد كثيرة عوضتها عن ضياع استقلالها المطلق. ومن ذلك الحين لم يعد يسمح لدين غير الإسلام بالحياة ضمن شبه جزيرة العرب نفسها. وهكذا نقل عمر اليهود، الذين سمح محمد ﷺ لهم بالبقاء فى خيبر، إلى سورية وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربيا بنعمة الإسلام، فهو يلتحق بإحدى القبائل كمولى من مواليها، ولكن أحدا، أول الأمر، لم يكن يتوقع أن يعتنق غير العرب الإسلام. وعلى هذا الأساس كان الغرض من الحرب المقدسة (الجهاد) نشر الإسلام.

ومن هنا انتظمت الإمبراطورية - التى نشأت بعد وفاة النبى ﷺ عن الدولة القومية التى رفع هو قواعدها - طبقتين متميزتين دينيا، وبالتالى سياسيا. فقد كان

---

(١) ابن قتيبة: دار المعارف ص ٤١٥.

(٢) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ٥١٣. تاريخ اليعقوبى: مجلد ٢ص ١٩٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمون، بوصفهم الحكام، يؤلفون أيضا طبقة المحاربين. والواقع أن النظام العربى احتل مكان الصدارة فيه الأساس القبلى أو العشيرة مما كان له أثره السيئ على العرب أنفسهم إذ كانوا يدخلون المعارك تحت ألوية القبائل.

وهكذا، وبعد أن خضعت بلاد العرب كلها فى هذه الفترة القصيرة من الوقت، نسبيا، لسلطة الإسلام، صار فى مقدور أبى بكر أن ينفذ خطة النبى الأخيرة، تلك التى تقضى بنشر الإيمان فى ما وراء حدود الوطن الأم؛ ذلك بأنه كان عليه أن يوجد فرصة من النشاط الخارجى لهذه القوى التى كانت فى الماضى على استعداد دائم لأن تتفانى فى منازعات لا نهاية لها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

قوى المدينة
الخروج على الشرعية

١ - روح الاستياء العام:

مع خلافة عثمان انتهى الأمويون إلى القمة؛ لأن عهده كان فى الواقع عهد أسرته وعشيرته. فلقد ترك تصريف الشئون لنسيبه مروان فى المدينة، وعين أقرباءه حكاما على جميع الإمارات الرئيسية. ومن هنا رأى أصحاب النبى ﷺ القدماء - الذين أثروا ثراء ضخما فى أثناء الفتوح والذين اقتنوا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية فى مكة أملاكا مثلها فى الطائف وأراضى واسعة أيضا - أن مكانتهم القديمة توشك أن تضيع على يد هذه الأسرة التى تسعى إلى أن تسيطر على كل شىء. ولقد حاولوا بادئ الأمر أن يحرروا الخليفة من سلطان أسرته فباءت محاولاتهم بالإخفاق. وعندئذ أعلنوا الخصومة شخصيا. وما هى إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه فى المدينة وليس حوله إلا نفر من الأصدقاء، وبخاصة بعد أن وقفت عائشة «أم المؤمنين» فى جانب خصومه. كذلك استطاع أعداء الخليفة أن يستثيروا العرب فى الولايات، فانقلبوا على عثمان[1].

واستطاع خصوم الخليفة فى المدينة، وعلى رأسهم على وطلحة والزبير، أن يفيدوا من الاستياء العام، ومع أنهم كانوا يعتبرون من واجبهم الدفاع عن إدارة عثمان فلم يجرؤوا على النضال ضده، بل تركوا هذه المهمة البغيضة لأهل الأمصار.

والحق أن روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الفينة والفينة من طريق الهجوم

---

(١) العرب والخلافة العربية س . إيليا بيف ترجمة د. أنيس فريحة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على صندوق المال الإقليمى وسلبه، ومن طريق الاحتجاج على إرسال الأموال الفائضة إلى العاصمة، بوجه خاص.

صحيح أن عمر كان قد أحدث هذا النظام من قبل أن يجرؤ أحد على رفضه وعصيانه. ولكن عثمان كانت تعوزه شخصية سلفه القوية، وفى نفس اليوم الذى صرع فيه عثمان، بايع الناس عليا بالخلافة فى مسجد (المدينة) ولكن طلحة والزبير اللذين كانا حتى تلك اللحظة يعملان فى ما يظهر لمصلحة على، تخلفا عن مبايعته، وحمّلاه تبعة مقتل عثمان، ثم إنهما لحقا بعائشة، إلى مكة. وكانت أم المؤمنين لا تزال تضمر لعلى عداءها القديم، فما كادت تعلم أنه قبل البيعة حتى دعت المؤمنين إلى الثأر للرجل القتيل. فاستجاب لدعوتها الأمويون وأناس آخرون شاركوها فى كره على ليس غير. وعزموا على التقدم إلى البصرة حيث كانت له منذ زمن طويل، وما تزال، صلات واسعة جدا. حتى إذا انقضت أربعة أشهر على مقتل عثمان خرج المتآمرون، بعد أن تجمعوا فى معسكر على الطريق العامة المؤدية إلى العراق.

ولم يكادوا يبلغون البصرة حتى فتكوا غدرا بأميرها الذى آثر أن ينتظر الأمر من علي على أن ينضم إليهم. حتى إذا وفقوا إلى الاستيلاء على المدينة (البصرة) نشب الخلاف بين طلحة والزبير على إمامة الناس فى الصلاة، ولكن عائشة حسمت هذا الخلاف مؤقتا بأن سمت لهذه المهمة ابن اختها عبد الله بن الزبير.

٢- السيدة عائشة والدعوة الظالمة: الثأر لعثمان:

وكانت عائشة قد علمت بمقتل عثمان وهى عائدة إلى المدينة بعد أداء مناسك الحج، فرجعت إلى مكة[١]، واستأذن طلحة والزبير عليا، بعد مقتل عثمان بأربعة أشهر، للذهاب إلى مكة لأداء العمرة، فأذن لهما[٢]، وانضما هناك إلى عائشة، وشكلوا جميعا حركة هدفت إلى رفع الظلم الذى حاق بالخليفة عثمان.

وقد تناولت المصادر أهداف هذه الحركة بما يعكس نظرة ومفهوم كل منها لأحداث الفتنة وتطوراتها، فقد أورد الطبرى قول عائشة: «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونُزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ﷺ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر،

(١) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى: القرن الأول ــ القرن الرابع الهجرى د. عدنان محمد فلحم.
(٢) البلاذرى. أنساب . جـ٢ ص ٢١٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين، غير نافعين ولا متقين؛ لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى صلاح هذا»[1]. وما إن وصلت إلى مكة حتى قصدت الحجر الأسود فسترت به، ودعت الناس إلى إنقاذ أهل المدينة، والنكال بالغوغاء[2]، وقالت: «إن عثمان قتل مظلوما، وإن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فطالبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام»، و«لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم». ودعت الناس صغيرهم وكبيرهم إلى «معروف نأمركم به، ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه، ونحثكم على تغييره». ودعت طلحة والزبير قائلة: «فأتمروا أمرا؛ ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء. وقد حرض كلاهما الناس للنهوض «فيدرك بهذا الدم لئلا يبطل، فإن إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبدا؛ إذا لم يفطم الناس عن أمثالها لم يبق إمامٌ إلا قتله هذا الضرب». وأشار الطبرى إلى دعوة عائشة وطلحة والزبير المسلمين إلى إعزاز الإسلام، وقتال المحلين[3]، وإصلاح أمر الله - عز وجل - وأمر رسول الله ﷺ، والدعوة إلى المعروف ونبذ المنكر[4]، وإشاعة الإصلاح، وإعادة الوحدة بين المسلمين، وترسيخ الاتفاق بينهم[5]. والثأر لعثمان، وإقامة الحد ضد القتلة من غوغاء أهل الأمصار، وعبيد أهل المدينة، ونزاع القبائل[6]. وأوضح الطبرى أن فكرة معاقبة قتلة عثمان هى مطلب عام قدمه أهل المدينة بعد توليه الخلافة مباشرة، إذ قالوا له: «يا على، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم[7]. ويلاحظ أن فكرة تنفيذ إقامة الحدود على كل من اشترك فى يوم عثمان قد أخذت تطبيقها الفورى بعد استيلاء طلحة والزبير وعائشة على البصرة[8].

---

(١) الطبرى . تاريخ . جـ٤ ص ٤٦٢.
(٢) المصدر السابق ص ٤٤٨.
(٣) المصدر السابق ص ٤٥١ .
(٤) ن.م.جـ٤ ص ٤٦٢ (سيف)، جـ٤ ص ٤٧٢ (سيف)، جـ٤ ص ٤٧٣ (سيف).
(٥) اليعقوبى، تاريخ، جـ ٢ ص ١٨٠.
(٦) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٢١.
(٧) الطبرى . تاريخ، جـ٤ ص ٤٣٧ (سيف).
(٨) ن . م جـ ٤ ص ٤٧٢ (سيف).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان الهدف الرئيسى وراء خروج عائشة وطلحة والزبير هو معاقبة قتلة عثمان، والانتصار لأهل المدينة، وتطبيق مبادئ الإسلام وحدوده. أما ما يقال عن الأهداف الخاصة لخروجهم هو محض افتراء وتأويل لا يمكن القبول به. والروايات التى أشار البلاذرى والطبرى إلى أن الطمع المادى هو من الأسباب التى دفعت طلحة والزبير للخروج على علي، إذ سألهما رجل فى البصرة عن أسباب خروجهما؟ فقالا: «بلغنا أن عندكم دراهم فجئنا نشارككم فيها»[1] وأكدت روايات أبى مخنف والمدائنى على أن جُل اهتمام طلحة والزبير حال وصولهما البصرة كان الحصول على الأموال من بيت مال المسلمين بأى وسيلة[2]. ويبدو واضحا أن الهدف العام منها هو إدانة خروج طلحة والزبير على علي واعتبار الطمع سببا رئيسيا له.

وإن كنا نرى أن الطمع فى الولاية والخلافة كان من أسباب خروج طلحة والزبير على علي، لأنهما سألاه أن يوليهما البصرة والكوفة، لكنه رفض قائلا: «تكونان عندى فأتحمل بكما فإنى وَحِشٌ لفراقكما»[3]. وتذهب روايات عديدة إلى تقدير علاقة الإمام علي بصاحبيه كل مذهب إلى علاقة يشوبها شىء من التوتر وشىء من المهادنة وشىء من الملق السياسى؛ فرواية تذهب إلى أن عليا «ولى طلحة: اليمن، والزبير: اليمامة والبحرين، فلما دفع إليهما عهديهما قالا له: وصلتك رحم! فقال: لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لى فيكما رأى[4]، وأضاف «أنتما شريكاى فى القوة والاستقامة، وعوناى على العجز والأود»[5]. ورواية تذهب إلى إبراز الرغبة الجامحة عند طلحة والزبير للوصول إلى السلطة بأى ثمن وأى وسيلة أنهما قالا بعد قتل عثمان: «هذا جزاؤنا من علي قمنا له فى أمر عثمان، حتى أثبتنا عليه الذنب، وسببنا له القتل، وهو جالس فى بيته وقد كفى الأمر، فلما نال بنا ما أراد فعل دوننا وقدم غيرنا».

---

(١) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٧٠(شيبان بن فروخ)، جـ٢ ص ٢٧١ (زهير بن حرب): الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٧٥.

(٢) البلاذرى . أنساب، جـ٢ ص ٢٢٧، ٢٢٨ (أبو مخنف) (روح بن عبد المؤمن)، الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٧٤ (المدائنى). انظر للمقارنة: ابن أبى شيبة، المصنف، جـ٨ ص ٧١٨ ــ ٧١٩؛ ابن أبى الحديد، شرح، جـ٧ ص ٤١ ــ ٤٣؛ حمدان، الخلافة، ص ١١٥ ــ ١١٦.

(٣) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى ص ٢٠٨.

(٤) اليعقوبى، تاريخ، جـ ٢ ص ١٨٠، الإمامة، جـ ١ ص ٥٤.

(٥) المصدر السابق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وروى بعضهم أن عليا رفض اقتراحا قدمه المغيرة بن شعبة له لتولية طلحة: اليمن، والزبير: البحرين[1].

٣ - طلحة والزبير يتغيران على الإمام علي:

كما اعترفا بمنتهى الصراحة لعثمان بن حنيف عامل علي على البصرة، عندما سألهما عن أسباب خروجهما: «لم نر أولى بها منا، وقد صنع ماصنع»[2].

ويسوق البلاذرى روايات تشير إلى وجود منافسة داخلية بين كل من طلحة والزبير على الإمرة، بلغت أوجها فى اختلافهما على إمامة الصلاة، فى أثناء توجههم إلى البصرة، مما دفع عائشة إلى الفصل بينهما، بأن أمرت ابن أختها عبدالله بن الزبير بالصلاة، وعلق أحد أصحابهما، ويدعى معاذ بن عبد الله على ذلك بقوله: «والله لو ظفرنا لافتتنا ما خلى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر»[3].

كما يشير إلى أبعاد التنافس بين طلحة والزبير حين أشار إلى كتمان الزبير نبأ تسلمه رسالة من معاوية، دعاه فيها إلى القدوم إلى الشام لمبايعته، وبعد تسرب الخبر إلى طلحة وعائشة، أشعرت عائشة عبد الله بن الزبير بغضبها، فلام بدوره أباه وقال له: «أتريد أن تلحق بمعاوية ؟ فقال: نعم، ولم لا أفعل وابن الحضرمية ينازعنى فى الأمر؟»[4]، وقد تنبهت عائشة إلى هذه المنافسة، فقالت: «لا تبايعوا الزبير على الخلافة ولكن على الإمرة فى القتال، فإن ظفرتم رأيتم رأيكم»[5].

ساء الناس خروج عائشة على الوالى الشرعى فآذت المشاعر المؤمنة وأطلقت الألسنة من حياء الإيمان تلوك أعراض الصحابة وجددت خصومات جاهلية كان الإسلام قبحها وشجعت مرضى القلوب والنفوس على أن يسفكوا الدماء الطاهرة، وكان أجدر بها أن تتخذ سبيلها فى حل ما بدى لها من المشاكل والتفاوض مع الإمام على، وكان الظاهر من مراجعتها أمرين: إقامة الحدود على قتله عثمان ورفع الظلم عن أهل المدينة. وحذرهم القعقاع بن عمرو من تفاقم الأوضاع فى البصرة بعد قصاصهم من قتلة

(١) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٨٠.

(٢) ن .م، جـ ٤ ص ٤٦٩ (الزهرى) .

(٣) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٢٨.

(٤) البلاذرى . أنساب، جـ٢ ص ٢٥٧، ٢٥٨ (خلف بن سالم). انظر للمقارنة: ابن أبى الحديد شرح، جـ١ ص ٢٣١ .

(٥) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٢٩ (أحمد بن إبراهيم) جـ٢ ص ٢٦ (بكر بن الهيثم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عثمان، ودعاهم إلى مبايعة على ومساعدته على ضبط الأمور، وإعادة الوحدة إلى المسلمين، وقال لهم: «وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم».

وهناك روايات تقف مع الإمام على وتشدد على مبايعته وتحتج على خروج عائشة وطلحة والزبير فى مكة، وخاصة من قبل زوجات الرسول ﷺ، وفى مقدمتهن أم سلمة التى نصحت عائشة بالإقامة فى مكة، وعدم الخروج إلى البصرة[1]. ودعت المسلمين إلى «تقوى الله، وإن كنتم تابعتم عليا فارضوا به، فوالله ما عرف زمانكم خيرا منه»[2]. رفض عبد الله بن عمر الخروج مع طلحة والزبير، حيث قال لهما: «إنى امرؤٌ من أهل المدينة، فإن يجتمعوا على النهوض أنهض، وإن يجتمعوا على القعود أقعد، فتركاه ورجعا»[3]. قوله لهما: «وأنتما بالمدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل عليا إلا من كان علىٌ خيرا منه»[4]. كما نصحهما عدد من الصحابة بعدم الخروج، وذكروهما بمواقفهما المعارضة لعثمان «كان منكما فى عثمان من التجليب والتأليب مالا يدفعه جحود، ولا ينفعكما فيه عذر»[5].

أما فى المدينة، فإن الروايات لا تتحدث عن ردود أفعال تشير إلى التطورات التى تحدث فى مكة، إلا بعد قرار عائشة وطلحة والزبير المسير إلى البصرة لكن الإمام عليا لم يلق بالا إلى خطورة خروج عائشة وطلحة والزبير فهى من وجهة نظره لا تخرج عن كونها حركة احتجاج يذيبها الحوار ويمنع شراستها وشيجة القربى والصحبة فقال معلقا: «وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغنى عنهم»[6]. وأكد «إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاة، فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل»[7]. وعندما وصلته أنباء

---

(١) الإمامة، جـ١ ص ٥٩ (ذكروا)، ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص ٩٦، ٩٨.
(٢) البلاذرى، أنساب جـ٤ ص ٢٢٤.
(٣) الطبرى، تاريخ جـ٤ ص ٤٦٠ .
(٤) الإمامة. جـ١ ص ٦٤ (ب.م).
(٥) ن.م. جـ١ ص ٦٤ (ب.م) انظر للمقارنة: نصر، وقعة، ص ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦.
(٦) الطبرى . تاريخ . جـ٤ ص ٤٤٦.
(٧) ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص ٩٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عزمهم على الخروج إلى البصرة، قرر الخروج إليهم لإقناعهم بعدم المسير[1]، حرصا على عدم إصابة الإسلام بالوهن.

وكان الهدف الأساسى لخروج على: هو مواجهة معسكر عائشة وطلحة والزبير وقتاله، باعتباره معسكر الناكثين لبيعتهم[2]. والخارجين على الإجماع.

وكانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان، وخروج على من المدينة؛ انتقال مقر الخلافة بعيدا عنها، وصار الحكم فى الخلافة إلى السيف، وانتقلت قوة الدولة إلى الأمصار؛ إذ هاجرت غالبية القبائل إلى دار الهجرة، وانتقل مركز الثقل فى جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها، وقد خطا أهل المدينة أنفسهم الخطوة الحاسمة فى ذلك، حين تركوا أهل الأمصار يسيطرون على مقدرات الأمور فى مدينتهم، الأمر الذى دل على بداية تنازلهم عن سيادتهم الشاملة[3].

واتجه على نحو ذى قار، واتخذها مركزا لتجمع قواته[4]. بهدف الاتصال مع الكوفة، وكسبها إلى جانبه، فهى فى نظره مستقر أعلام ورجال العرب[5]، وكتب لأهلها «إننى قد اخترتكم على الأمصار وإنى بالأثرة»[6]. ودعاهم إلى نصرته لإظهار الحق[7]. وإصلاح أوضاع الأمة «فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخوانا»[8].

وتتباين المصادر فى ذكر أسماء الرسل ومكان إرسالهم، فتذكر أنّ عليا أرسل من الرَّبَذَة عدة وفود لاستنهاض أهل الكوفة، واستكشاف مواقفهم منه، حيث أرسل كلا من محمد بن أبى بكر، ومحمد بن عوف[9]، وقيل محمد بن جعفر[10]، ثم هاشم ابن عتبة بن أبى وقاص[11]، إلا أنهم فشلوا جميعا فى مهامهم.

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٤٦ .

(٢) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ١٣٨ . الطبرى، تاريخ، جـ ٤ ص ٤٦٦، ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص٩٩، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦ . (٤) المصدر السابق، ص ٢٣٠، الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٨١.

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٥٥. ابن أبى الحديد . شرح، جـ٢ ص ١٨٧ .

(٦) المصدر السابق، ص ٤٧٧ . (٧) المصدر السابق، ص ٤٧٧ . المؤرخون العرب والفتنة الكبرى .

(٨) المصدر السابق ص ٤٧٨، انظر للمقارنة: ابن أبى الحديد، شرح، جـ٢ ص ١٨٧ .

(٩) المصدر السابق، ص ٤٧٧ (المدائنى).

(١٠) ن .م. جـ٤ ص ٤٧٨ (سيف).

(١١) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٣٤، ٢٣٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ - وكانت موقعة الجمل: صدعا لا يلتئم:

ولم يكن الإمام على مجانبا للصواب حين ظن كل الظن أن التلاقى على كتاب الله حتما مقضيا وأمرهما محسوم بالصفح الجميل وذلك حين خندق طلحة والزبير فى منطقة الزابوقة فى البصرة، وهما يقولان: «خرجنا للصلح»[١]، ويعلنان رفضهما اللجوء إلى الحرب بشدة «إنا وهم مسلمون، وهذا أمر لم يكن قبل اليوم، فينزل فيه قرآن، أو يكون فيه من رسول الله ﷺ سنة، إنما هو حدث»: وأضافا «أمر ما بيننا وبين إخواننا، هو أمرٌ ملتبس» «نحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه أجبنا، وإلا فإن آخر الدواء الكى»[٢]، فما دار بخاطر الإمام هو عينه ما حبسته خواطرهما، عبر عن تلك الخواطر الإمام على بقوله: بان لنا ولهم أن الإصلاح الكف عن هذا الأمر، فإن بايعونا فذاك، فإن أبوا وأبينا إلا القتال فصدع لا يلتئم.

وبعد إخفاق السفارة مع طلحة والزبير نشبت المعركة، فأما الأول فجرح جرحا أودى بحياته، وأما الثانى فقد أخرج من الميدان بتبكيت الضمير والندامة، وقتل فيما هو يفر، وتوقفت المعركة أمام الجمل الذى كانت تمتطيه عائشة وتستفز من على ظهره المقاتلين. حسب العادة العربية العريقة، ولم تتم الغلبة لعلى إلا بعد أن عقر الجمل، الذى خلع اسمه على هذه المعركة، فى ٤ كانون الأول سنة ٦٥٦م، وعرضت عائشة على المنتصر تأييدها، ولكنه رفضه، ثم إنها توفيت فى ١٣ تموز سنة ٦٧٨ م. وهى فى السادسة والستين من عمرها، واعترف لعلى بالخلافة فى جميع أنحاء العراق فظل فيه وجعل الكوفة مقرّه.

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٩٢.

(٢) أنساب ج٢ ص ١٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

قوى الشام المضادة
معاوية وعمرو بن العاص

١ - غفلة أهل الشام:

وورث معاوية بن أبى سفيان، رأس البيت الأموى وأمير سورية، مهمة المطالبة بدم عثمان. بيد أنه كان عليه، قبل أن يحقق هذه المهمة أن يبعد عن بلاد الشام الخطر البيزنطى الذى لا يزال يتهددها.

وكانت الشام منذ أول الأمر تربة غير صالحة لدعوة العلويين؛ ويحكى أن أبا عبدالرحمن النسائى (٢١٥ ــ ٣٠٣) دخل دمشق، وكان يتشيع، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله؟ فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضل؟ وفى رواية أنه قال: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع الله له بطنا»، فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ثم حمل إلى الرملة، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس وكان أهل طبرية ونصف نَابُلسِ وقدس وأكثر عمان شيعة.

ويذكر ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية أنه كان يتشيع ويقدم عليا على عثمان، وكان يدخل فى كتابه أشعارا للشيعة. ويروى أيضا أن عوانة بن الحكم (المتوفى عام ١٤٧هـ ــ ٧٦٤م) كان يضع أخبارا لبنى أمية. وعامة أخبار المدائنى مأخوذة عنه[١]. وإذا كان أحد الشعراء حوالى عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢م يعزو أساطير الشيعة إلى قلة معرفتهم بالأخبار[٢]. فإن المقدسى يحكى لنا أنه كان يوما بجامع واسط، وإذا برجل قد اجتمع

---

(١) الإرشاد (معجم الأدباء) جـ٦ ص ٩٤، ٤٠٠، .Goldxlher:"Kultur der Gegenwart" (?)

(٢) هو الشاعر الملقب بالخبر ارزى حيث يقول:

من غابت الأخبار عنه، ودينه ∴ دين الإمامة، قال بالأوهام

انظر مروج الذهب جـ ٨ ص ٣٧٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه الناس، فدنا منه، فإذا هو يروى حديثا بسنده عن النبى عليه الصلاة والسلام: إن الله يدنى معاوية يوم القيامة، فيجلسه إلى جنبه، ويغلفه بيده، ثم يجلوه على الناس كالعروس، فقال له المقدسى: بماذا؟ قال: بمحاربته عليا، فقال له المقدسى: كذبت يا ضال! فقال: خذوا هذا الرافضى؛ فأقبل الناس عليه، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه[1]، وكذلك حكى المقدسى أنه كاد يبطش به لأنه أنكر على رجل من عباد أصفهان قوله: إن معاوية نبى مرسل[2]. على أن عليا لم يصبح موضع النزاع، ومضى الوقت الذى نجد فيه خليفة عباسيا مثل المتوكل (٢٢٣ ـ ٢٤٧هـ = ٨٤٧ ـ ٨٦١م) شديد البغض لعلىّ ولأهل بيته، حتى كان من جملة ندمائه رجل يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدة، ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص، ويقول: قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين، يعنى عليا ـ رضى الله عنه، والمتوكل يشرب ويضحك[3].

وفى سب الإمام على: يروى البلاذرى رأى الأمويين فى سب على:

قال مَرْوان لعلى بن الحسين (زين العابدين) ما كان أحد أكف عن صاحبنا من صاحبكم، قال فلم تشتمونه على المنابر ؟ قال: لا يستقيم لنا هذا إلا بهذا.

ذكر المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) شيئا عن غفلة أهل الشام عن البيت العلوى فى ثوب طرف ونوادر وكنت قرأتها على هذا المحمل الفكاهى لكن قرأت نظائرها فى الجاحظ «فى رسائله، وفى كتابه (الحيوان) وفى (البدء والتاريخ) للمقدسى ذكرنا طرفا منها مما جعلنا نعيد النظر فيما كتبه المسعودى وحملناه محمل الجد ـ ورأينا كثيرا من الأدباء الظرفاء يعمدون إلى نقد المجتمع يصوبون إليه سهامهم فيصيبونه فى الصميم بسهام دقيقة من غير أن يقعوا تحت طائلة الغدر السياسى»ومثل هذا الأدب يظهر فى فترات القهر والعسف السياسى يمر بالأذن أدبا فكاهيا يشيع البهجة فى النفس وتطرب له الأسماع لكنه هو السم الزعاف بعينه. لذلك نظرنا إلى تلك الطرائف على أنها نقد اجتماعى يصور بلاهة أهل الشام وقسيم من العراق.

قال المسعودى: وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم

---

(١) المقدسى ص ١٢٦، وكان من أثر هذا النزاع فى أمر على ومعاوية أن معاوية صار له شأن دينى؛ ويحكى المسعودى (المروج جـ ٥ ص ١٤) أن قبر معاوية بالباب الصغير بدمشق، وهو يزار إلى هذا الوقت «وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وعليه بيت مبنى يفتح كل يوم اثنين وخميس».

(٢) المقدسى ص ٣٩٩ ؛ والمنتظم ص ٦٠ ب .

(٣) أبو الفدا تحت عام ٢٣٦ (جـ ٢ ص ١٨٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأهل الرأى والعقل منهم: من أبو تراب [هذا] الذى يلعنه الإمـام على المنبر؟ قال: أراه لصا من لصوص الفتن.

وحكى الجاحظ قال: سـمعت رجلا من العامة وهو حاج وقـد ذكر له آل البيت يقول: إذا أتيته من يكلمنى منه؟ وأنه أخبره صـديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلى على محمد ﷺ: ما تقول فى محمد هذا ؟ أربنا هو[1]؟

وذكر ثمـامة بن أشرس قال: كنت مـارا فى السوق ببغداد، فـإذا أنا برجل عليه الناس مجـتمعون، فنزلـت عن بغلتى، وقلت: لشىء ما هذا الاجتـماع، ودخلت بين الناس، وإذا برجل يصف كـحلا معـه أنه ينجى من كل داء يصيب العيـن، فنظرت إليه فإذا عينه الواحدة برشـاء والأخرى مأسوكة[2]، فقلت له: ياهذا، لو كان كـحلك كما تقول نفع عـينيك !: فقال لى: [يا جاهل] أهاهـنا اشتكت عيناى؟ إنما اشتكتـا بمصر، فقالوا كلهم: صدق، وذكر أنه ما انفلت من نعالهم إلا بعد كد.

وذكر لى بعض إخـوانى أن رجلا من العامة بمـدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصـحاب الكلام على جار له أنـه يتزندق، فسألـه الوالى عن مذهب الرجل؟ فقال: إنه مرجئ قدرى ناصبى[3] رافضى، فلما قصه عن ذلك قال: إنه يبغض معاوية ابن الخطاب الذى قـاتل علـى بن العـاص، فـقـال له الوالى: مـا أدرى على أى شىء أحسدك: على علمك بالمقالات، أو على بصرك بالأنساب ؟

وأخبـرنى رجل من إخواننا من أهل العلم، قـال: كنا نقعـد نتناظر فى أبى بكر وعـمر وعلي ومـعـاوية، ونذكـر ما يذكـره أهل العلم، وكـان قوم مـن العامـة يأتون فيستمعون منا، فقال لى ذات يوم بعضهم وكان [من] أعقلهم وأكبرهم لحية: كم تطنبون فى علي ومعاوية وفلان وفلان؟ فقلت له: فما تقول [أليس هو أبو فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة؟ قـال: امرأة النبى عليه الصلاة والسلام بنت عائشـة أخت معاوية، قلت: فما كانت قصة على ؟ قال: قتل فى غزوة حنين[4] مع النبى ﷺ.

وقد كان عبد الله بن علي حين خرج إلى الشام فى طلب مروان، وكان فى قصة مروان ومقتله ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجه إلى أبى العباس السفاح

(١) فى أ «ما تقول فى محمد هذا ؟ قال: ربنا هو».
(٢) فى أ «والأخرى موكوسة».
(٣) فى ب «مرجئ قدرى أباضى فضى».
(٤) فى أ «قتل فى غزوة خيبر».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة [من سائر أجناد الشام] فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة، فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر البجلى:

أيها الناس اسمعوا أخبركم ... عجبا زاد على كل العجب

عجبا من عبد شمس إنهم ... فتحوا للناس أبواب الكذب

ورثوا أحمد فيما زعموا ... دون عباس بن عبد المطلب

كذبوا والله ما نعلمه ... يحرز الميراث إلا من تراب

وقد كان ببغداد رجل فى أيام هارون الرشيد متطبب يطبب العامة[1]. بوصفاته وكان دهريا يظهر أنه من أهل السنة [والجماعة] ويلعن أهل البدع ويعرف بالسنى تنقاد إليه العامة ؛ فكان يجتمع إليه فى كل يوم بقوارير الماء خلق من الناس، فإذا اجتمعوا وثب قائما على قدميه فقال لهم: معاشر المسلمين، قلتم لا ضار ولا نافع إلا الله فلأى شىء [مصيركم إلى] تسألوننى عن مضاركم ومنافعكم ؟ الجأوا إلى ربكم وتوكلوا على بارئكم حتى يكون.

يذكر صاحب البدء والتاريخ: وحلف ناس من أهل الشأم أنهم ما علموا لرسول الله قرابة غير بنى أمية وبعث عبد الله بن على فى أثره[2].

٢ - معاوية وبيعة الإمام علي:

وتحت ولاية معاوية رفض الشام مبايعة على، ورفض أهلها استقبال واليهم الجديد سهل بن حُنَيْف«إن كان عثمان بعثك فحيهلابك، وإن كان بعثك غيره فارجع»[3]، الأمر الذى دفع عليا إلى إرسال كتاب إلى معاوية طالبه فيه بالبيعة، فرفض ذلك واستعصى ووجه رجلا من بنى عبس، ثم أحد بنى رواحة قَبِيصَة، ودفع إليه صحيفة بيضاء، لا كتاب فيها سوى البسملة، ويقال: إنها كانت مختومة، وعنوانها من معاوية ابن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب. وأثار هذا الرد لدى على شعورا بالمواجهة «يا أهل المدينة والله لتقاتلن أو ليأتينكم من يقاتلكم»[4]، إلا أن ذلك لم يمنع عليا قبل

(١) فى أ «تتبرك العامة بصفاته» .

(٢) البدأ والتاريخ جـ ٦ ص ٧٤.

(٣) ن.م. جـ٤ ص ٤٤٢ (سيف) .

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٤٣ (سيف) انظر للمقارنة: ابن أعثم: الفتوح، جـ١ ص ٨٠، ٨١، ٩٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توجـهه إلى العـراق من الاستـمرار فى إرسـال كتب إلى مـعاوية مناه فـيهـا، وهدده، وتوعده، إلا أن محاولاته كانت بلا جدوى[1].

وذكر البلاذرى أن عليا أراد أن يرسل صـبيحة مقتل عثمان عـبد الله بن عمر إلى معـاوية ليطالبه بالبـيعة، فـرفض قائلا: «هذا أمـر لم أكن فى أوله ولا آخره[2]. كما رفـض عبـد الله بن عبـاس اقتـراحا لتسـلم ولاية الشام[3]. لم يكن معاوية فى رده يبتـغـى وجـه الحـق إنمـا كان مناورا ريثمـا تدلهم الأمور أكثـر مما هى عليه وتأخـذ المعـارضة قوتها المسلحة ويكون بأسها شديدا فهو كان فى أولها وفى آخرها.

وأفرط مؤرخـو الفتنة الكبرى فكانوا: أشد بـغضا لأهل الشام لعدم تعـاطفهم مع بيعة الإمام على وأشدهم عليه بأسا فـأطلقوا عليهم ألسنة حدادا تلعنهم بأوصاف تدينهم فهم معـسكر البغاة[4] والقاسطون[5] والطلقاء والمؤلـفة قلوبهم[6]، ومحبـو الدنيا[7]، والسلطة والحكم والمال[8]، والمفسدين[9] والسفـهاء[10] والظالمون[11]، والمحلون[12]،

---

(١) البـلاذرى . أنسـاب، جـ٢ ص ٢١١، ٢١٢، (أبو مـخنف)، جـ٢ ص ٢١٢(خلف بن سـالم)، جـ٢ ص٣٤٠ (هشام بن الكلبى)، الإمامـة، جـ١ ص ٥١ (ب.م)، جـ١ ص ٨٧، ٨٨ (ذكروا)؛ الطبرى، تاريخه، جـ٤ ص ٤٤٣، ٤٤٤ (سيف). PETERSEN."Ali Muawiyah". PP.164,177.

(٢) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٠٩.

(٣) ن . م. جـ ٢ ص ٢٠٨ (أبو مخنف).

(٤) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ١٦٨.

(٥) المصـدر السـابق ص ١٢١. الطبـرى، تاريخ، جـ٥ ص ٣٨، الجـاحظ، رسـائل الجـاحظ، رسـالة فى الحكمين، ص ٣٨٤، ٣٨٥.

(٦) الإمـامـة، جـ١ ص ٥٧(ذكـروا)، جـ١ ص ٩٨ (ذكـروا)، جـ١ ص ١٠٣ (ذكـروا)، جـ١ ص١١٢(ذكـروا)، جـ١ ص ١٤ (ذكـروا)، جـ١ ص ١١٧(ذكـروا)، جـ١ ص ١٣٥(ذكـروا)، جـ١ ص١٦٥ (ب.م) ؛ انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.

(٧) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٧٣.

(٨) المصدر السابق ص ٢٨٣. الطبرى تاريخ، جـ٥ ص ١٨.

(٩) الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٤٤٥.

(١٠) ن .م . جـ ٤ ص ٥٤٧ (أبو مخنف) . انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص١٦٤.

(١١) البـلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٣٨ (أبو مـخنف)، جـ٢ ص ١٥٩(قـالوا)، جـ٢ ص ٢٩٤، ٢٩٥ (أبو مخنف)، جـ٤ ص ١٢١ (قالوا)؛ اليعقوبى، تاريخ، جـ٢ ص ٣٠١؛ الإمامة، جـ١ ص ١٠٦(ذكروا)؛ الطبرى، تاريخ، جـ٥ ص ٧٨ (أبو مخنف)، جـ٥ ص ١٠٣(أبو مخنف).

(١٢) اليعقوبى، تاريخ جـ ١ ص ١٥٩(ب. م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأصحاب الباطل[١]، ومفرقى الجماعات[٢]، وأولـــياء الشياطين[٣]، والملحدون[٤]، والطغاة[٥]، وشراب الخمر[٦]، وأوثان الجاهلية[٧]، والفجرة[٨]، والمرتشين[٩]، وهى اتهامات صريحة تشكك فى إسلامهم، وتحط من قدرهم.

قد يكون الدافع الذى دفع بالمؤرخين إلى قذف معسكر معاوية بخسة المواقف ليس تشنيع المؤرخـين للبيت العلوى أو العـباسى كمـا يذهب بعض النقاد؛ لأن القـول بهوى المؤرخين مع البـيت العلوى يطمس قضية الشـام مع الإمام على وإلا كيف نفهم امـتناعه عن البيعـة؟ وكيف نفسر حـمل السلاح عليه فى حرب صـفين؟ وكيف نفسـر التحكيم وإجلاس مـعاوية على سدة الخـلافة؟ لا شك أن الأوصاف التـى كالها المؤرخـون للشام صادفت مكانا لها فى جبلتهم ودانت سجاياهم الخسيسة، فالدافع وراء المؤرخين ليس هو التشيع العلوى إنما رأى تاريخى تأولوا له حديث عمار وهو كما ذكروا إقرار الرسول ﷺ لعمار بن ياسر بـأن الفئة الباغية ستـقتله «تقتل عمار الفئـة الباغية»[١٠]. هذا فى الوقت الذى أشار فيه البـلاذرى وصاحب الإمامة والسياسة والطبرى إلى تأكـيد معاوية على أن الفئة التى سـتجلب عمارا للقـتال. هى الفئة التى ستـقتله، وهى الفئة البـاغية[١١] وهو تأويل يحمل عسرا شديدا.

---

(١) الإمامة، جـ١ ص ٥٩ (ب.م) انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٤٥(سيف)، انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.

(٣) ابن أبى الحديد شرح، جـ١ ص ٢٣٩.

(٤) البلاذرى، أنساب، جـ٤ ص ١٢١.

(٥) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٣٩١.

(٦) حبيب زيات، مزاعم المؤرخين العباسيين فى وصف شره الأمويين، ص ١٦١، ١٦٢.

(٧) البـــلاذرى، أنســاب، جـ٢ ص ٣٣ (المدائنى)، جـ٢ ص ٣٩ (المدائنى)، جـ٢ ص ٣٩(المـدائنى) جـ٢ ص٤٠ (المدائنى) اليعقوبى، تاريخ، جـ٢ ص ١٨٧.

(٨) الطبرى، تاريخ، جـ ٥ ص ١٠٢ (أبو مخنف).

(٩) ن . م. جـ٥ ص ١٠٢ (أبو مخنف) . انظر للمقارنة: الجـاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة فى الحكمين، ص ٣٦٤، ٣٦٨؛ المسعـودى، التنبيه، ص ٢٦١؛ ابن أبى الحـديد، شرح، جـ١ ص ٣٣٤ ــ ٣٤٠ ــ انظر المؤرخون العرب والفتنة الكبرى . ص ٣٠٩ .

(١٠) البلاذرى، أنساب، جـ ١ ص ٦٨، اليعقوبى، تاريخ، جـ٢ ص ٨٨؛ الطبرى، تاريخ، جـ٥ ص ٤١، ابن سعد، الطبقات، جـ١ ص ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٩، مسلم، صحيح، جـ١٧ ص ٢٤٨.

(١١) البـلاذرى، أنســاب، جـ٢ ص ٣١٧، الطبـرى، تاريخ، جـ٥ ص ٤١، ابن سـعد الطبـقـات، جـ٣ ص٢٥٣، نصر، وقعة، ص ٢٤٣، ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص ٣٩١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ - معاوية يخطط للصراع المسلح:

بعث معاوية من ليلة انتصار الإمام علي فى موقعة الجمل إلى عمرو بن العاص أن يأتيه فكتب إليه. .أما بعد فإنه قد كان من أمر علي وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك فقد سقط إلينا مروان من رافضة أهل البصرة وقدم على جرير بن عبد الله فى بيعة على وحبست نفسى عليك حتى تأتينى على بركة الله تعالى: فلما انتهى الكتاب إليه دعا ابنيه عبد الله ومحمدا فاستشارهما، فقال له عبد الله أيها الشيخ إن رسول الله ﷺ قبض وهو عنك راض ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فإنك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها نصبها معاوية فتضجان غدا فى النار ثم قال لمحمد ما ترى؟ فقال بادر هذا الأمر فكن فيه رأسا قبل أن تكون فيه ذنبا. فلما أصبح دعا وردان مولاه فقال له ارحل يا وردان ثم قال حذ يا وردان فحط ورحل ثلاث مرات فقال وردان: لقد خلطت أبا عبد الله فإن شئت أخبرتك بما فى نفسى، فقال: هات قال اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت: على معه آخرة بلا دنيا. ومعاوية معه دنيا بلا آخرة.

والرأى: أن تقيم فى منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغن عنك.شعر عمرو بأن الدنيا تستدعيه ما دامت تستدعيه/ما دام معاوية قد بعث له فلم تقاوم نفسه وانضم إلى معاوية. من هنا بدأ معاوية مناورته.

قال معاوية مناورا حينما طالبه الإمام على بالبيعة: هذا أمر لم أكن فى أوله ولا فى آخره. .إجابة ماكرة تدخل فى باب الملق السياسى وذلك هو قدر الإمام على حاقت ببيعته الدواهى من كل جانب فأتعب الجند وأقلق الولاة وأفسحوا للسيف أن يحل محل الشورى والبيعة وكان أحرص الناس على حقن دمائهم وأموالهم وأعراضهم قال لجنده:

«إنكم قد سرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق»[١] وقال أحد رؤساء القبائل لمعاوية: ما ننظر إلا لله ولا نغضب إلا للخليفة ولا نحامى إلا عن الشام[٢]. كما أشار إلى تحذير قبيلة كندة لزعيمها الأشعث بن قيس، عامل أذربيجان، حينما هم بالالتجاء إلى معاوية، بعد ما طالبه على بمبايعته وتسليمه أموال ولايته «أتدع مصرك وجماعة قومك وتكونن ذنبا لأهل الشام»[٣]. وهو المعنى نفسه الذى عبر عنه عبد الله بن عمرو

(١) الإمامة، جـ ١ ص ١٠٧ (ذكروا) انظر للمقارنة: نصر، وقعة، ص ٥٦، ٧٨، ٧٩، ١٦٨.
(٢) الإمامة جـ ١ ص ١٠٧ (ذكروا) الطبرى، تاريخ جـ ١ ص٤٣.
(٣) الإمامة جـ١ ص ٩٥، ٩٦ (ذكروا).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن العاص فى قـوله لوالده، حينما همَّ بتـلبية طلب مـعاوية بالمسير إلـيه من فلسطين، ليشـاوره حول بيعـة على «... أقم فى منزلك، فلست مجـعولا خليـفة، ولاتريد أن تكون ذنبا لأهل الشام، ولا لحاشيـة معاوية على دنيا قليلة»[1]، ويتفق أيضا مع رسالة قبيلة بكر بن وائل إلى أحد قادتها، مصقلة بن هبيرة، الذى التجأ إلى معاوية فى أعقاب معركة الجـمل«.. ولعمرنا ما استبـدلت الشام بالعراق»[2]. ويورد الطبرى تحذير معاوية لجنده من أن أهل العراق «جاءوكم وهم لايرون إلا أنـهم سيقيضون بيـضتكم ويخربون بلادكم»[3].

وكان الالتجاء لمعاوية وأهل الشام وترك على منقـصة وذنبا. واختفت وراء أطماع معـاوية فى صراعـه مع على رغبـة فى السيطرة على العـراق، وتسخـير خيـراته وأهله لمصلحة أهل الشام، وباتت شـعاراته الكثيرة حول مطالـبته بدم عثمان مـاهى إلا خدعة واضحة لإثارة عصبية القبائل وتأجيج الصراع الدائر.

ويذهب النقاد فى تقدير مـوازين القوى على الجبهة العراقيـة إلى أنها كانت تضم عناصر متباينة فى الولاء والمفاهيم والاتجاهات، فهناك الأنصار والمهاجرون، وإلى جانبهم أشراف القـبائل وأهل القادسيـة والأيام وجماعـات الروادف ومجموعـات القراء، وهى عناصر تختلف فى درجة تقديرها لمصـالحها، وفى نظرتها لقريش ولسلطان المدينة، وفى فهمـها لأبعاد الصراع الذى تـخوضه[4]، الأمر الذى يفـسر تأكيد البـلاذرى وصاحب الإمامة والسـياسة«والطبرى على عدم تجـانس الآراء فى معسكره، وعدم انضبـاط قبائله لدرجة أنها ظلت مثار شكواه منذ انطلاقته لمواجهة معاوية حتى مقتله[5].

أما الشام فأيدت قبائله وقياداته ورجالاته معاوية فى صراعه مع على معلنة دعمها المطلق.

ومن جهة أخرى أكد صاحب الإمامة والسـياسة والطبرى انضمام أربعة آلاف من القراء إلى معاوية بقيادة عبد الله بن عمر بن الخطاب[6].

---

(١) ن .م. جـ١ص ١٠٠ (ذكروا).

(٢) ن.م. جـ١ ص ٩١ (ذكروا.

(٣) الطبرى تاريخه جـ٥ ص ٩٨ (أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٢٦٦.

ـ المؤرخون العرب والفتنة الكبرى .

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ رسالة فى الحكمين ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧. طه حسين الفتنة جـ ٢ ص٨١.

(٥) البلاذرى أنساب جـ ٢ ص ٣٨.

(٦) الإمامة جـ ١ ص ١١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد وصفت هذه المصادر الهاربين بالخونة والعملاء، والغدارين، وأصحاب المصالح الخاصة. ورأت أن مادفعهم إلى ذلك هو الطمع فى السلطة والمال والضيق بسياسة على القائمة على الحق والصدق والعدل.

ومن المفاجآت التى يستعصى على من أوتى حظا من سلامة الرأى تفسير خروج عبد الله بن عمر على رأس تلك القوة من القراء وكان قد اعتذر عن مبايعته ثم بايعه اتقاء الفتنة واعتذر أن يكون رسول على إلى معاوية وقال ماقاله معاوية. . .وخرج بالليل إلى مكة تاركا عليا يتذمر عليه بالمدينة. وكنا نخاله ملاذا للرأى حين تغدو المواقف منبهمة، لكن نبع الرأى الصائب من مخنف بن سليم - أبرز قادة الإمام على حين - قال فى أسف بالغ وألا نسفك دماء المسلمين[1] بأيدينا وماهى إلا أجنحتنا نجدها بأسيافنا، فإن نحن لم نؤاس جماعتنا، ولم نناصح صاحبنا كفرنا وإن نحن فعلنا عزنا أبحنا، ونارنا أخمدنا»[2]. أما عدى بن حاتم فقال: «ما أبقت هذه الوقعة لنا ولا لهم عميدا»[3].

٤ - فكرة رفع المصاحف: التحكيم:

يقول المسعودى: فإن الأسبوعين الأخيرين من موقعة صفين - كانا أدمى الأسابيع حقا فلا عجب إذن أن كره الناس الحرب وتداعوا إلى الصلح[4] من هنا كان الجو مهيأ لدعوة عمرو بن العاص - يصفه اليعقوبى بأنه باع دينه مع على لدنياه مع معاوية - إلى رفع المصاحف والدعوة إلى التحكيم. يقول ابن سعد: ورفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى مكيدة فيها[5] ذلك شكل ضغطا. دفع عمرو بن العاص إلى اقتراح فكرة رفع المصاحف، بهدف إيقاف القتال، والرجوع إلى حكم الله[6]، ولاقت هذه الفكرة تأييدا وتشجيعا من معاوية[7]. وقيادات أهل الشام[8].

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٢٤.
(٢) الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٢٦ ــ ٢٧.
(٣) الإمامة جـ ١ ص١٢٩.
(٤) التنبيه للمسعودى ٢٩٥
(٥) طبقات ابن سعد ج٣ ص ٢١.
(٦) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٣٢٢.
(٧) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٣٢٣.
(٨) الإمامة جـ ١ ص ١٣٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى الرغم من أن السوريين كانوا أحسن تدريبا من العراقيين غير المنظمين، فقد نجح العراقيون بقيادة مالك الأشتر، أحد أشياع على المتحمسين، فى الضغط على خصومهم وإحراجهم إلى درجة حملت معاوية على التفكير فى الفرار. وفى هذه الأثناء كان حفظة القرآن الأتقياء يبذلون أقصى الجهد لدى الفريقين، ليتحقق السلام. وتذهب الروايات إلى أنه فى هذه اللحظة الحرجة أشار الداهية عمرو بن العاص، فاتح مصر وأميرها السابق على معاوية بأن يبعث بقوات جديدة، رافعة المصاحف على رءوس الرماح دلالة على أنها تحكم كلمة الله، لا كلمة السيف، فى أى الرجلين يجب أن يلى أمر المسلمين. ومع أن هذه الحادثة قد تكون وهمية، فالذى لاشك فيه أن أهل العراق قد أجبروا عليا الذى اعتبر أن النصر قد كُتب له، على أن يوقف المعركة.

دعا على قواته إلى تجاهل النداء، والاستمرار فى القتال معتبرا فكرة رفع المصاحف خدعة ومكيدة وأيدته فى رأيه أقلية من رؤساء القبائل وأشرافها ودعته إلى مواصلة الحرب، مثل الأشتر[1]. وعمير بن عطارد، وحريث بن جابر البكرى، وعبد الرحمن بن الحارث، وعدى بن حاتم، وقيس بن سعد[2].

وهددت عصابة من قراء المعسكر العراقى عليا بالقتل، إذا ما أصر على عدم الموافقة على دعوة أهل الشام بوقف القتال، ومن أبرزهم آنذاك مسعر بن فدكى التميمى، وزيد بن حصين[3]. كما أيد وقف القتال عدد كبير من زعماء القبائل العراقية.

الحكمان: أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص:

وفى فترة المهادنة التى فرضت نفسها باقتراح من أهل الشام[4]، جلس الفريقان للتفاوض فأبدى على موافقته على قيام الأشعث بن قيس - وهو من خير من يقوم بمهمة التفاوض بين الفريقين - لتحديد الأهداف والخطوات فاقترح أهل الشام الذى ظل موحدا، أن يكون عمرو بن العاص ممثلا عنهم فى مفاوضات ومؤتمر التحكيم الذى وصفه أهل العراق بالقوى والفاجر والخائن وداهية العرب، بينما وصفه بالمحنك والداهية.

---

(١) البلاذرى: أنساب، جـ ٢ص ٣٢٠.

(٢) الإمامة جـ ١ ص ٢٤.

(٣) الإمامة، جـ ١ ص ١٣١.

(٤) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ - كتاب التحكيم ماله وما عليه:

وأشارت الروايات إلى أسباب اختيار أبى موسى الأشعرى، فهو رجل يثق أهل العراق بتقاته، وأهل الشام بتقواه، و«ضعفه وتقاه خير من قوة عمرو» و«خير مما نحن فيه»[١]. و«إنه لم يدخل فى شىء من الحرب[٢] وأبرزت احتجاجا على اختيار أبى موسى الأشعرى بسبب دوره فى تثبيط الناس عنه فى معركة الجمل[٣]. وأوردت وصف الأشتر له بالمخادع، بينما وصفه الأحنف بن قيس بـ «كليل الشفرة قريب القعر» لا «يصلح لهؤلاء القوم» و«رجل يمانى وأهله مع معاوية»[٤].

اختار على أبا موسى الأشعرى ممثلا للعراقيين، قبل يوم الجمعة، لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة رفض معاوية[٥] أو عمرو بن العاص[٦] كتابة «أمير المؤمنين» بجانب اسم على فى وثيقة التحكيم؛ لعدم اعترافهم بذلك.

وافق علي على محو لقبه[٧]، بعد أن استشار قومه. وبعد أن تذكر حادثة مماثلة واجهها الرسول ﷺ يوم الحديبية، حينما اعترض الكفار على تسمية «رسول الله» ودعوه لكتابة اسمه واسم أبيه فى وثيقة اتفاقهما، فمحا الرسول ﷺ ذلك بيده[٨].

ثم هوجم فيما بعد من الخوارج الذين اعتبروها تنازلا منه عن الخلافة التى بايعه عامة المسلمين عليها.

وكان عدم إصرار علي على تثبيت لقبه «أمير المؤمنين» أتاح لمعاوية طرح مصطلح الشورى، وعزز من إصراره على تطوير محاور صراعه مع علي، وأعطاه غطاء شرعيا للخروج على خلافته، وعدم الاعتراف بها. وأما قياسهم موافقة الإمام على طرح لقب أمير المؤمنين قياسا على ماكان فى صلح الحديبية فهو قياس لايحمل دلائل القوة ولا تجمع بينهما الموازنة.

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٣٣: الإمامة جـ ١ ص ٣٢.
(٢) اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص ١٨٩.
(٣) البلاذرى، أنساب، جـ ١ ص ٣٣٣. (٤) الإمامة، جـ ١ ص ١٣٢.
(٥) الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٢ (على بن مسلم) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥٠٨.
(٦) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٤٧ (المدائنى): الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٢ (أبو مخنف).
(٧) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٤٤(إسحاق الفروى): اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥٠٨.
(٨) المؤرخون العرب، الفتنة الكبرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحملت نصوص كتاب التحكيم الذى تضمن تعهد علي ومن معه من شيعته من أهل العراق ومعاوية ومن معه من أهل الشام مكانة سياسية جديرة بالنظر نعرض لها بعد عرضه: «هـذا ما تقاضى عليه، على بن أبى طالب، ومـعاوية بن أبى سفيـان، قاضى علي على أهل الكوفة. ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين، والمسلمين. وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين[1] على أن يحكما بما فى كتاب الله، فما لم يجداه فبالسنة الجامعـة العاملة غير المفرقة، وأن يصلحا بين الأمة ولا يرداها إلى الحرب والفرقة. وأخذ الحكمان العهود والمواثيق من معاوية وعلى وجندهما. وممن اشترك من الناس بالفتنة أن يقبلوا بحكمـهما. وأن يعطوهما الأمن والأمان لدمائهمـا وأموالهما وحريمهـما، واتفقا على تأجيل القـضية إلى رمضان من العام المقـبل، أو إلى أى موعد يتفـقان عليه. ودعا كل منهـما الطرفين إلى وضع السـلاح خلال هذه الفترة. كـما أتاح الكتاب للحكمـين أن يجتمعا إن اتفـقا قبل ذلك الموعد. وإن مات أحـد الحكمين، فإن أمير الشـيعة يختار مكانه من أهل العـدل، ولهما ألا يحضر لقاءهمـا إلا من أحبا. ولا يشهده إلا من أراد[2]. واتفقا أن يكون مـكان الاجتماع مكان عدل بين الـكوفة والشام والحجاز[3] فى دومة الجندل[4]، فإن لم يجتـمعا لذلك، اجتمعـا العام المقبل فى أذرح ولهما أن يجتمعا بغيرهما، إن رضيا بذلك[5].

وشهد على الكتاب شهود من المعسكرين العراقى والشامى.

لم تخرج نصوص كـتاب الحكمين عن نصوص عـهد أمان عام وجـاء خاليا من معالجـة القضية الأساسيـة التى ارتكز عليها صراع معـاوية مع علي، وهى القصاص من قتلة عثمان. وأغفلت موقف معاوية من شرعية خلافة علي، حتى جعلته يرفض السماح

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ ٥ ص ٥٣ (أبو مخنف) انظر للمقارنة، نصر وقعة، ص ٥٠٤.

(٢) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ (المدائنى): اليعقوبى، تاريخ جـ٢ ص١٨٩ ــ ١٩٠، الإمامة جـ ١ ص١٣٧ ــ ١٣٨ (ذكروا): الطبـرى تاريخ جـ ٥ ص٥٤ (أبو مخنف)، جـ٥ ص ٧٥ (الزهوى)، انظر للمقارنة، نصر، وقعة، ص٥٠٤ ــ ٥٠٥ ــ ٥١٠، إحـسان عباس، تاريخ بلاد الشام، ص٣١٧.

(٣) البلاذرى، أنسـاب جـ ٢ ص٣٢٥ (المدائنى): اليعقوبـى، تاريخ جـ ٢ ص١٩٠، الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٤(أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة ص ٥٠٦، ٥١١.

(٤) الإمامة جـ ١ ص١٣٦ (ذكـروا) جـ١ ص ١٣٨ (ب.م)، جـ١ص ١٤٠(ذكروا)، الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٧ (الزهوى)، جـ٥ص٦٧(أبو مخنف).

(٥) الطبرى، تاريخ جـ٥ ص٥٧ (الزهوى) جـ٥ص٦٦ (أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

له بكتابة لقبه «أمير المؤمنين» فى كتاب التحكيم. ربما كانت تلك المؤاخذات وراء شك الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فى صحة الكتاب حيث أضعف نصه وأسانيده وشهوده[١].

واحترم علي ما تم الاتفاق عليه فى كتاب التحكيم. ودعا على قواته بعد يومين من إنجاز كتاب التحكيم للعودة إلى الكوفة، بعد أن أمر بدفن القتلى، وإطلاق سراح الأسرى، فسار إلى الكوفة فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين[٢].

بعد أن اتخذ على قراره بإعلان القطيعة مع الخوارج. وعدم الاستجابة إلى مطالبهم بعدم إرسال أبى موسى الأشعرى إلى مؤتمر التحكيم[٣]. واجتماع الحكمين فى دومة الجندل ويبدو أن الوفد الشامى وصل قبل الوفد العراقى لانشغال على مع الحرورية وتردده فى تنفيذ ما تم الاتفاق عليه فى وثيقة التحكيم. دفع ذلك معاوية إلى إرسال كتاب دومة الجندل إلى على يقول فيه: «لا يلفتنك عن رأيك أعاريب بكر وتميم» واقترح عمرو بن العاص على أبى موسى الأشعرى مبايعة معاوية بالخلافة، إلا أنه رفض اقتراحه[٤]. مبديا رغبته فى إحياء سيرة عمر بن الخطاب، وذلك بخلع كل من علي ومعاوية، وجعل أمر الخلافة شورى بين المسلمين، يختارون لأنفسهم من أحبوا فوافقه عمرو بن العاص على اقتراحه.

وأعلن أبو موسى الأشعرى قرار الخلع فقال: «أيها الناس إن رأينا قد اتفق على أمر أرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة.. إنا نظرنا فى الأمر فلم نر شيئا أصلح من خلع هذين الرجلين، ثم تستقبل الأمة أمورها فيكون أمرهم شورى يولون من اختاروا. إنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أموركم. وولوا من رأيتم أنتم». وأقبل عمرو بن العاص فثبت معاوية وخلع عليا، إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية، فإنه ولى عثمان والمطالب بدمه، وهو أصلح سياسة وأحزم رأيا من غيره.

وإذ لم يوضع للاجتماع، قبل انعقاده، هدف معين، فقد اختلف الفريقان. وكان اختلافهما على طرفى نقيض. فقد كان العراقيون يتوقعون أن يحصلوا على الاعتراف

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة فى الحكمين: ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣.
(٢) البلاذرى، أنساب جـ٢ ص ٣٣٧.
(٣) البلاذرى . أنساب جـ ٢ ص٣٤٦. الطبرى . تاريخ جـ٥ ص٦٦.
(٤) البلاذرى . أنساب جـ٢ ص ٢٥٠. اليعقوبى . تاريخ جـ ٢ ص١٩٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسمى بخلافة علي. فى حين كان معاوية يطالب ببحث ما إذا كانت تبعة علي فى مقتل عثمان تجعله غير أهل للحكم. ولكن مندوبه اعتبر كلا من علي ومعاوية مدعيا للخلافة، واستطاع بعدد من الإيحاءات الموفقة أن يقنع خصمه بخلع الرجلين معا. ولم يكن فى وسع علي أن ينزل عند هذا الحكم، ورأى نفسه مضطرا إلى أن يحنث بيمينه. وإذ قد وضع على نفسه بهذا الصنيع، على طرف الخطأ، فقد أطلق جنود معاوية أنفسهم لقب الخليفة على ابن أبى سفيان، منذ ذلك الحين.

لذلك نرى أن تفاوض الحكمين حول تفاصيل الخلاف بين الإمام علي ومعاوية ربما كانت مدروسة جيدا من قبل معاوية وعمرو بن العاص فهى فى صالح معاوية دون الإمام علي. وغير مدروسة تماما من قبل الإمام علي إنما ارتجال أبى موسى الأشعرى أيما ارتجال من غير أن يرجع بها إلى من حكموه. فلا هى موافقة لنصوص كتاب التحكيم الذى يطلب الأمان وعدم الفرقة للأمة ولا هى تثبت الحق الشرعى للإمام علي. لقد أصاب التفاوض مقتل الشرعية فى عصب البيعة والشورى وأورث الأمة ضعفا على ضعف ووهنا على وهن. وكانت قسمة ضيزى حين ساءت بين الإمام علي الخليفة الشرعى وبين معاوية ذلك الوالى المعزول وذلك حين رفض الإمام علي وغضب لخلعه وفق صيغة التحكيم التى أعلنها أبو موسى الأشعرى، إلا أن عمرو بن العاص أيد خلع على وإبقاء معاوية، لم يرفض التحكيم استنادا إلى قصة الخديعة. بل اعتمادا على أن الحكمين نبذا حكم القرآن وراء ظهريهما، «أن يُحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن». فما هو الذى نبذاه سوى حقه وشرعيته فى الخلافة والطاعة كما أن دراسة الأسباب التى أدت إلى تمرد الخربت بن راشد عام ٣٨هـ ضد علي، يدعم ماقاله له، لأنك حكمت فى الكتاب، وضعُفت عن الحق إذ جد الجد. وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك زار، وعليهم ناقم «فهل الحق الذى ضعف عنه على هو» أنه لم يقبل حكم أبى موسى، الذى يقضى بترك اختيار الخليفة إلى الشورى بين المسلمين، وخاصة أن الخربت أكد أنه لم يرض عليا ولا سيرته «فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى من الناس».

وجدد المؤرخون ملامح شخصية أبى موسى الأشعرى، كما تصوره رواياتهم، فهو ساذج ومسالم وضعيف ومنقاد لتوجهات ومطالب عمرو بن العاص بشكل ملفت للنظر، وتتهمه هذه المصادر ـ بصورة غير مباشرة ـ بالخيانة لعدم تأكيده على شرعية خلافة علي، وعدم أحقية معاوية فى التشكيك بها، ولعدم إشارته إلى براءة علي من دم عثمان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراح المؤرخون يـذكرون: الصورة الماكـرة والمخادعـة لعمـرو بن العاص، فـهو لايتورع عن اللجوء إلى أى شيء لتحقيق أهدافه وغاياته مـستخدما قدرته وذكاءه وسيلة لذلك وعدم مصداقيته.

ونقل شريح بن هانـئ وعبدالله بن عـباس أنباء التـحكيم إلى علي، فكان يلعن معاوية، وأبا الأعور السلـمى، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحـمن بن خالد بن الوليد، والضحاك بن قيس، والوليد بن عقبة[1]. كما لام أتباعه على إجبارهم إياه على اختيار أبى مـوسى الأشـعرى، وأوضح أنه لا سـبـيل إلى حـرب القـوم، حتى انتـهـاء المدة المحددة[2]. وأضاف بأن الحكمـين نبذا حكم القرآن وراء ظـهريهما، وأحـييا مـا أمات القرآن[3]، وكـتب لأبى موسـى الأشعـرى «إنك امـرؤ ضلك الهـوى، واستـدرجك الغرور». وأعلن ابنه الحـسن أن الحكمين أرسلا ليـحكما بالقرآن على الهوى، فـحكما بالهوى على القرآن.

رحب معاوية بنتيجة الاجتمـاع، وكتب لأبى موسى الأشعرى «فلو كانت النية تدفع الخطأ لنجـا المجتهـد وأعذر الطالب، والحق لمن نصب إليـه فأجابه، ولـيس لمن أعرض له فـأخطأه». وبعدمـا علم معـاوية أن عليا يلـعنه «لعن عليا وابن عـباس والأشـتر وحـسنا وحسينا». وأضاف البلاذرى أسماء «قيس بن سعد، وعبد الله بن جعفر».

ولم يلبث مركز علي فى العراق أن تضعضع إلى حد بعيد. والواقع أنه كان لايزال فى طـريق العـودة من صـفين عندما لامـه جـماعـة من جـيشه، معـظمهم من بنى تميم، لوما عنيفـا على ما أبداه من استـعـداد للنـزول عند قـرار هيئـة محكمة-من البشـر. وكان من رأيهم أن الحكم لله وحـده. فانشـقوا عن علي وانسـحبوا إلـى قرية حروراء، غير بعيد من الكوفة، وانتخبوا أحدهم، عبد الله الراسبى. خليفة عليهم.

٦ - قراء المعسكر العراقى:

وفى سنة ٦٥٣ ظهـر الاختـلاف فى قراءات القـرآن فى أثناء غـزوة أرمينيـة بين جيوش الشام وجيوش العـراق. وإذ كان التوتر بين سكان هذين القطرين على أشده آنئذ

---

(١) البلاذرى أنساب جـ٢ ص٣٥١.

(٢) الإمامة جـ ١ ص١٤٣ (ذكرون)

(٣) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٦٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد كان من الطبيعى أن يؤدى ذلك الخلاف على أى القراءات القرآنية أصح، إلى اشتباكات عنيفة بين الجنود. ولكى يحول الخليفة دون تجدد هذه الحوادث عزم على اعتماد نسخة رسمية من القرآن.

والواقع أن أجزاء كثيرة من الوحى كانت قد دونت بشكل منجم متفرق حتى فى أيام النبى ﷺ. فلما كانت خلافة عمر عهد إلى زيد بن ثابت، المدنى الشاب الذى كان يكتب الوحى للرسول ﷺ، بأن يجمع صحف القرآن كلها. ولكن ذلك لم يعد أن يكون عملا شخصيا ليس له صفة رسمية عامة. حتى إذا توفى عمر انتقلت هذه الصحف إلى ابنته حفصة. ثم إن عثمان حصل على هذه المجموعة الأولى. فعهد إلى زيد، وثلاثة نفر من القرشيين، بأن يعيدوا النظر فيها كرة أخرى. ففرغوا لما ندبوا له وأدوا مهمتهم فى عناية فائقة يشهد عليها اقتران عملهم بالقبول والإعظام، فى كل مكان، من غير معارضة. ومع ذلك فقد وجد الكوفيون فى هذا الصنيع مادة خصبة أفادوا منها فى إثارة الناس على عثمان، آنذاك.

ثم تجددت خصومة قديمة حين قام قراء المعسكر العراقى، أو أهل البصائر والعباد، أو الخوارج فيما بعد، بالضغط على علي لحمله على قبول فكرة التحكيم التى طرحها معسكر معاوية حين رفعوا المصاحف فوق الرماح[1] إلى حد تهديد قيادات القراء مثل مسعر بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى، عليا للموافقة على ذلك، وهددوه بالقتل إذا ما أصر على رفض الدعوة للتحكيم[2].

ويلاحظ أن إلقاء تبعة وقف القتال على القراء كان نواة المذهب الخارجى فيما بعد، ودعم الفكرة التى روجت لها هذه المصادر حول إكراههم عليا على قبول وقف القتال مع معاوية، وهى فكرة لم تصمد للنقاش، إذ اتضح وجود شبه إجماع داخل المعسكر العراقى على قبول الموادعة، ولا يمكن التسليم بإمكانية إملاء القراء لقراراتهم على علي بالقوة والتهديد.

وتذهب روايات مختلفة عن آراء القراء فى التحكيم، ففى حين أظهر بعضها

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٨. اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص ١٩٢. الطبرى تاريخ جـ ٥ ص ٦٥، ٦٦.

(٢) الطبرى، تاريخ جـ٥ ص ٤٩، ابن أعثم، الفتوح جـ ٢ ص ٣١٧، ٣١٢، ابن أبى الحديد شرح جـ ٢ ص٢١٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأييدهم له من خلال إصرارهم على اختيار أبى موسى الأشعرى ممثلا للمعسكر العراقى فى مؤتمر التحكيم، بسبب اعتزاله الفتنة وعدم اشتراكه فى القتال[١].

وروايات أخرى تظهر رفض القراء لمبدأ اختيار الحكمين[٢]. لرفضهم تدخل البشر فى الحكم، واعتقادهم أن القرآن أدان معاوية وخطأه، ولإيمانهم أن رفع أهل الشام لمصاحفهم هو استسلام لأهل العراق[٣]. ولرغبتهم فى أن يصبحوا طرفا ثالثا فى الصراع، أو على الأقل أن يوكل إليهم دور مهم لكى يتفحصوا القرآن ميدانيا ويصدروا حكمهم فى الخلاف الدائر بين علي ومعاوية[٤]. ومما يدعم فكرة معارضة القراء للتحكيم عدم مشاركتهم فى الشهادة على القضية، كما شهد دعاة الموادعة عليه.

كذلك وردت روايات معارضة القراء للتحكيم بعد الانتهاء مباشرة من صياغة كتاب القضية، إوجاء الاحتجاج على لسان أفراد عاصروا تحكيم الرجال فى أمر الله، وجاهروا بالاحتجاج على ذلك تحت شعار «لا حكم إلا لله»، ومن هؤلاء عروة بن أدية التميمى، الذى اعترض الأشعث بن قيس أثناء عرضه لكتاب التحكيم على القبائل وضرب بسيفه عجز دابته. وأورد البلاذرى عددا من الروايات المتباينة بشأن أول من حكم فأشار إلى أنه يزيد بن عاصم المحاربى[٥]، أو الحجاج بن عبد الله بن سعيد بن زيد مناة من تميم، الذى يعرف بالبرك الصريمى[٦]، أو رجل يدعى سعيدا من بنى محارب بن حصفة بن قيس بن عيلان بن مضر[٧]، أو رجل من بنى يشكر بن بكر بن وائل حمل على أصحاب علي فقتل منهم واحدا غيلة، فشد عليه رجل من همدان وقتله[٨]، أو فتيان أخوان من عنزة يقال لهما معدان وجعد حملا على أهل الشام، وقاتلا حتى قتلا

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٢٤، اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص١٩١، الطبرى، تاريخ، جـ٥ ص٦٣.

(٢) المدائنى، تاريخ جـ ٥ ص ٥١.

(٣) هشام جعيط، الفتنة، ص ٢١٠ سليم التميمى، ظهور الخوارج، ص ٢٧.

(٤) إبراهيم شعبان، صدر الإسلام ص ٨٧.

(٥) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٣٦، اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص١٩٠، الأشعرى، مقالات جـ١ ص٢٧٢، المسعودى، مروج جـ ٢ ص٤٢ ــ ٤٤، المقدسى، البدء جـ ٥ ص ٢٢١، فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ص ٢٥ ـ ٣٢.

(٦) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٣٦، المبرد، الكامل جـ ٢ ص ١٨٧. (٣) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٣٦.

(٧) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٣٦.

(٨) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص٣٣٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على باب رواق معاوية[١]، أو صالح بن شقيق المرادى، وهو من رؤساء مراد[٢]. كما جاء هذا الاحتجاج على لسان جماعات من بنى راسب[٣]. ويبدو أن البلاذرى أراد التأكيد على أن البدايات الأولى للتحكيم تمثلت برافضين من مختلف القبائل[٤]، أو ربما أراد استعراض الأصول المختلفة للمحكمة التى مثلت مرحلة مهمة من مراحل تطور حركة الخوارج التى ظهرت فيما بعد[٥].

٧ - الخوارج أو المحكمة:

وأخذت مواقف المحكمة من التحكيم تلقى تأييدا واسعا من الناس، بمن فيهم أولئك الذين أعلنوا فى البداية دعمهم لوقف القتال، كما أخذت فى بلورة منطقها وتنظيم احتجاجاتها.

إذ أكدت المحكمة أن قبول التحكيم هو شك فى عدالة القضية التى قاتلت من أجلها مع علي، كما أنها تمثل ارتدادا بعد إيمان، وشكا بعد يقين، ومفارقة للجماعة، ولذلك أنكروا التحكيم منذ البداية، ونقموا على علي ودعوه إلى إعلان الحرب ثانية على معاوية[٦]. وعدم جواز تحكيم الرجال فى أمر الله، وعلى ضرورة إعادة رص صفوف معسكر أهل العراق لمواجهة أهل الشام[٧]، ويبدو أن اعتراضهم على وثيقة التحكيم جاء بعد إدراكهم أن صواب قتل عثمان أو عدمه سيبحث فى التحكيم وهم الذين لعبوا دورا فى الفتنة عليه[٨].

إن شعار «لاحكم إلا لله» لم يكن شعار جماعة معينة، فالاحتجاجات فردية صدرت من قبل أشخاص مختلفين وردت أسماء بعضهم. أما الآخرون فلم تذكر أسماؤهم، وربما خالطتها صيحات جماعات صغيرة غير واضحة[٩].

---

(١) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٣٣٦.

(٢) نصر، وقعة، ص ٥١٢، ٥١٣، المقدسى، البدء جـ ٥ص٢٢١.

(٣) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص٣٣٨. فلهاوزن، الخوارج والشيعة ص ٢٥ ــ ٢٧.

(٤) محمود عبد الرزاق، الخوارج وقضية التحكيم، ص ٤٧ ــ ٥٧. سليم التميمى، ظهور الخوارج، ص١٦ - ٢٠، صالح العلى، التنظيمات ص ٥٩ ــ ٦٠.

(٥) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى عدنان محمد ملحة.

(٦) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٢٧.

(٧) الإمامة جـ ١ ص٢٨، الطبرى، تاريخ جـ٥ ص٥٥.

(٨) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٧٠، ذيب سعيد نشأة حركة الخوارج ص١٧٢.

(٩) البلاذرى، أنساب جـ٢ص٣٣٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأكـد البلاذرى أن آراء المحكمـة لم تؤد إلى انفـصالهم عن جـيش علي، ولكن افتـرق أنصارها إلى ثلاث فرق: فـرقة رجعت إلى أمـصارها ومنازلهـا فى العراق على الرغم من مناشدة علي لهم بالصبر على هذه القضية، وأقامت الفرقة الثانية وقالوا: «لا نعجل ننظر إلى ما يصير شأنه»، ومضت الفـرقة الثالثة التى شهدت على علي بالشرك، وهم أهل النهروان[1]. وأشار البلاذرى والطبرى إلى المناقشات العديدة والمشادات العنيفة التى شهـدها معـسكر أهل العراق فى أثناء عـودة علي إلى الكوفة حـيث ازداد الخلاف والنقاش بشأن التحكيم: «خـرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون متحـابون فرجعوا متباغـضين متعادين، فما برحوا من مـعسكرهم بصفين حتى فشا فـيهم التحكيم، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط»[2].

٨ - ليس كل من اعترض على التحكيم خارجيا:

وبالغت روايات تاريخـية فى تقـدير عدد الخوارج الـذين خرجوا على الإمـام علي ولعل السبب فى ذلك هو أنهم كانوا يرون أن كل من خرج على التـحكيم كان خارجيا مع أن الإمام علي لم يرض عن الـتحكيم وليس خارجـيا؛ لأن صورة التـحكيم لم تكن طبق الأصل الذى تم الاتفاق عليه؛ لذلك رفـضه أبو موسى الأشعرى نفسه. فـالذين اعترضوا عليه غـير الذين خرجـوا عليه لكن قائمـة الخوارج الذين اعتـرضوا جعلتـهم ضمن الذين خرجوا، مع أن صيـحات المعارضة على علي استمرت بعـد عودتهم إلى الكوفة، وهذا لا يعنى خروج كل من اعترض إلى حروراء[3].

ولعل السـبب فى تضـارب هذه الأعـداد هو قـرب الكوفـة من حـروراء وتمكن الحرورية من الدخول والخروج فيها بحرية، وبخاصة أن النزاع بينهم وبين علي ظل حتى ذلك الوقت سياسيا وليس عسكريا.

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٤٢.

(٢) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٤٢. الطبرى، تاريخ جـ٥ ص ٦٣.

(٣) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، د. محمد إبراهيم الفيومى ــ دار الشروق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

فقه النص على إمامة الإمام علي

الفصل الأول

الإمام علي

الفصل الثانى

الفكر السبأى

الفصل الثالث

علي والحق الإلهى

الفصل الرابع

القبائل المنتصرة للإمام علي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

الإمام علي

إن ما يعتقـده الشيعة فى حق على الصريح فى الخلافـة بعد وفاة النبى ﷺ مبين باختصار فى كتاب فارسى لا زال الإقبـال على دراسته شديدا حتى هذا اليوم وهو كتاب (عقائد الشـيعة) وقد لخصه الأستـاذ براون فى كتابه: persian Literatur in Modern Times ـ ص ٣٨١. جاء فيه «إن عليا هو أمير المؤمنين بالحق[1]، فكان الواجب نصبه خليفة بعد رسول الله ﷺ. وهو الذى يفسر أوامر الله للناس بعده. ولد صباح الجمعة وهو أصغر من الرسول ﷺ بثلاثين عاما وكـانت ولادته فى داخل الكعبة، وعاش ثلاثا وستين سنة منها اثنتان وثلاثون فى حياة الرسول ﷺ وإحدى وثلاثون سنة بعده. وهذه المدة هى مدة خلافته إلا أن حقه بقى مغصوبا مدة خمس وعشرين سنة قضاها فى بيته.

---

(١) أشار الدكتور جـولدتسيهر فى كتابه (العقـيدة والشريعة فى الإسلام) إلى أن المحدث الشيـعى الشهير أبا جعفر محمد الكلينى (المتوفى سنة ٣٢٨هـ. ٩٦٩) قد قطع فى كتابه (الأصول من الجامع الكافى، طبعة يمبى ١٣٠٢ هـ ـ ٩٦٩، ص٣٦١) بأنـه «لاحق لغير علي بالتـسمى بأميـر المؤمنين». وقول ابن سـعد (الطبقـات ٣ (١) ص ٢٠٢) إن عمر كـان أول من تسمى بأمـير المؤمنين قـال: «إن رسول الله ﷺ لما توفى واستخلف أبو بكر الصديق كـان يقال له خليفة رسول الله ﷺ فلما توفى أبو بكر ـ رحمه الله ـ واستخلف عمر بن الخطاب قيل لعـمر خليفة خليفة رسول الله ﷺ فقال المسلمون فـمن جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله ﷺ فيطول هذا ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة يُدعَى به من بعده من الخلفـاء.!فقال بعض أصحـاب رسول الله ﷺ نحن المؤمنين وعمـر أميرنا فدعى أمـير المؤمنين، فهو أول من سمى بذلك). ـ عقيدة الشيعة ص ٣٥ دوايت دونالدس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وأول الغاصبين أبو بكر ومدة حكمه ستتان وثلاثة أشهر ثم عمر بن الخطاب عشر سنوات وستة أشهر وجاء بعده عثمان فتولى الحكم اثنتى عشرة سنة[1]. ثم اعترف بعلي خليفة فنصب مدة أربع سنوات وستة أشهر.

«وحارب فى هذه المدة ثلاثة حروب الأولى مع القاسطين الظالمين أى معاوية وحزبه والثانية فى البصرة مع الناكثين أى عائشة وطلحة والزبير وهى حرب الجمل؛ لأن عائشة ركبت الجمل، والثالثة مع المارقين وهم الخوارج ووقعت عند النهروان».

«وقيل إنه كان لعلى سبعة عشر ولدا وتسع عشرة بنتا. وقد تزوج بعد فاطمة بنت الرسول ﷺ اثنتى عشرة امرأة. وبلغ عدد أزواجه وسراياه ٣٩٥، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد العمران أو عبد مناف. واسم أبيه عمرو وسماه آخرون عمران أو عبد مناف الأصغر. ويكنى بأبى طالب وقد غلبت كنيته عليه. وروى أنه كان مؤمنا يوحد الله»[2].

ومن المهم أن نلاحظ أن سن علي كان عند وفاة الرسول ﷺ ٣٣سنة فهو لا يزال حدثا بالنسبة لعرف القبائل العربية، لتولى المسئولية الإدارية الكبرى فليس من الشاذ أن يختار الناس من هم أكبر منه سنا من الصحابة البارزين مدة خمس وعشرين سنة. ويظهر بالحقيقة وجوب التقدم فى السن فى اختيار الخلفاء الراشدين، فأبو بكر استخلف وعمره فوق الستين، وعمر كان سنه ٥٣ وعثمان كان قد بلغ نحو السبعين، وعلي كان عمره إما ٥٩ أو ٦٤ بالنسبة لسنه عندما آمن أول مرة فقيل: إنه كان بالعاشرة وقيل بل الخامسة عشر.

ولم يمض على وفاة الرسول ﷺ زمن طويل حتى جاءت فاطمة ومعها علي إلى أبى بكر تسأله ميراثها من أبيها فقال لهما: «أشهدكما الله، ألم تعلما أو تسمعا أن رسول الله ﷺ قال:نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة؟!» قالا: «نعم ولكن

---

(١) إن صحة ما ذكر فى مدة خلافة كل من الخلفاء الثلاثة الأول يؤيد المسعودى فى مروج الذهب جـ١، ص١٧٥، ١٩٠، ٢٥٠. وهناك اختلاف بسيط بالأشهر فى ما ذكره السيوطى ترجمة jarret ص٨٧. ويذكر اليعقوبى (ج ٢ ص ١٥٦، ١٨٣، ٢٩٥) أن مدة خلافة أبى بكر ستتان وأربعة اشهر وخلافة عمر عشر سنوات وثمانية أشهر وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة.

(٢) كتاب عقائد الشيعة تأليف الحاج مرزا أقاسى. الكتاب الرابع، الفصل الثانى. مسند أحمد بن حنبل ج١ ص ٧٩ يذكر أن أبا طالب والد علي رفض أن يصلى صلاة المسلمين ولم يعترف بوحدانية الله عند موته كما جاء. ــ نفس المصدر السابق ص ٣٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله ﷺ كان ينفق على أهله وهو بار بهم»[1] فلما سألها عما تريده من الإرث قالت: «فدك وخيبر وأرض الفيء بالمدينة ـ حصتى منها مثلما ترثك بناتك بعد موتك» فقال: «حقا أن أباك ﷺ خير منى وأنت خير من بناتى، إلا أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[2].

وقيل: إن فاطمة غضبت غضبا شديدا من حكم أبى بكر، وإنها ماتت بعد أبيها بمدة لا تزيد على ستة أشهر. ومن المهم أن نلاحظ قصر هذه المدة، لأنها تعين المدة التى امتنع بها على عن مبايعة أبى بكر، فإن عليا ذهب بعد وفاة فاطمة إلى أبى بكر فبايعه بالخلافة. وكانت المناصب الخطيرة أو ذات المسئولية الكبيرة قد خص بها غيره. فكان عمر للقضاء وعتاب أمير مكة للحج بالناس بالنيابة عن أبى بكر، وقيادة الجيوش لأسامة وخالد. وكان علي يتولى أكثر الأحيان المكاتبة».

وينظر علي إلى أبى بكر بعين الاحترام وله عليه تأثير فى القرارات التى كان يتخذها، فمن ذلك أن أسامة لما عاد منصورا من غزوته إلى بلاد الشام أراد أبو بكر أن يسير بالجيش إلى محاربة طليحة المتنبى، فأشار عليه علي بالبقاء فى المدينة حتى أقنعه، وذهب خالد مكانه.

١ - التآمر على قتل الإمام علي:

وكان بين أنصار علي ضد معاوية كثير من الفرس أو العجم الذين كانوا ينزلون مدن العراق الجديدة وقد جاءوا لمكافحة كبرياء العرب من المدينة الذين خرجوا على زمن عثمان لحكم العالم[3] وكان معه أيضا عدد من القراء الذين كانوا يطعنون فى عثمان وبعض أحكامه وقد انضموا إلى علي. إن هؤلاء الأعداء الألداء لحكم العرب لم يكونوا ليرضوا بكل اتفاق، وبعد فشل التحكيم قرروا عدم إمكان خدمة أغراضهم بالولاء لعلي. وقد ذكر ابن سعد مختصرا أمر هؤلاء الذين لم يرضهم شيء فخرجوا من الجيش

---

(١) مسند الطيالسى رقم ٦١. جاء فى تاريخ اليعقوبى ج٢ ص ١٤١ أن «فاطمة بنت رسول الله ﷺ أتته تطلب ميراثها من أبيها فقال لها: قال رسول الله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» فقالت: أفى الله إن ترث أباك ولا أرث أبى، أما قال رسول الله: (المرء يحفظ فى ولده) فبكى أبو بكر بكاء شديدا «انظر كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى».

(٢) البخارى ف ٦٤، ٣٨ ومسلم ف ٣٢، ٥٢. نفس المصدر السابق ص ٣٦.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان ج٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهم الخوارج[1]. قال: «فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا لا حكم إلا لله وعسكروا بحروراء فبذلك سموا الحرورية فبعث إليهم عبدالله بن عباس وغيره فخاصمهم وحاجهم فرجع منهم قوم كثير وثبت قوم على رأيهم وساروا إلى نهروان فعرضوا للسبيل وقتلوا عبدالله بن خباب بن الأرت. فسار إليهم علي فقتلهم بالنهروان وقتل منهم ذا الثدية وذلك سنة ثمان وثلاثين ثم انصرف علي إلى الكوفة فلم يزل يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قتل»[2].

إن عليا، الذى كانوا يأملون أن يكون المطالب بحقهم والمدعى عنهم ظهر أنه عدوهم الألد. وأصبح أمر المقاومة المسلحة أمرا غير ممكن فقد كان انكسارهم حاسما. ولكنهم كانوا يعرفون من هو المسئول عن قتل آبائهم وإخوتهم فلما نظروا ما تم من أمر المملكة الإسلامية التى مزقتها الحروب الداخلية أخذوا ينظرون بعين الحقد إلى الطموح الشخصى للرجال الذين أصبحوا يعتقدون بأنهم هم العثرة فى سبيل الوحدة الوطنية. إن الروايات التى تذكر بالتفصيل المؤامرة التى انتهت باغتيال علي[3] على الرغم من اعتبار أحد الكتاب لها من الروايات المشكوك بصحتها[4] قبلها المبرد ويكررها اليعقوبى ويذكرها الدينورى وهى بلا شك الأساس لرواية المسعودى[5] قال: فى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينتكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجه إليه حتى يقتله أو يقتل دونه وهم: عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله وكان من تجيب، وكان عدادهم فى مراد فنسب إليهم، وحجاج بن عبد الله الصريمى ولقبه البرك، وزادويه مولى بنى العنبر. فقال ابن ملجم: أنا أقتل عليا وقال البرك: أنا أقتل معاوية، وقال زادويه: أنا أقتل عمرو بن العاص، وتواعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان وقيل: ليلة إحدى وعشرين فخرج عبدالله بن ملجم المرادى إلى علي فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت علقمة وكان علي قتل أباها يوم النهروان وكانت أجمل أهل زمانها فخطبها فقالت لا أتزوج حتى تسمى لى جعلا قتال: لا

(١) طبقات ابن سعد ج٣ (١) ص ٢١.

(٢) عقيدة الشيعة دوايت دونالدسن.

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ ــ ص ٢١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة «الخوارج».

(٥) الكامل للمبرد ص ٥٤٨، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها، الدينورى ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩، مروج الذهب للمسعودى ج٤ ص ٤٢٦ وما يليها. ـ عقيدة الشيعة ص ٥٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تسألينى شيئا إلا أعطيته فقالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي، فقال ما سألت هو لك مهر إلا قتل علي فلا أراك تدركينه قالت: فالتمس غرة فإن أصبته شفيت نفسى ونفعك العيش معى وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال والله ما جاء بى إلى هذا المصر وقد كنت هاربا منه إلا ذلك وقد أعطيتك ما سألت وخرج من عندها.

٢ - تعقيب:

إن الرواية التى تحدثت عن تآمر الخوارج على قتل الإمام علي ليس فيها ما يشهد لدور ابن سبأ فى التآمر على قتله لا من قريب ولا من بعيد وهى لليعقوبى، والدينورى والمسعودى فإن روايتهم جاءت خالية من دور ابن سبأ الضالع فى مسيرة الأحداث التى غيرت مسيرة الخلافة الإسلامية على وجه التاريخ فلم يكن بينهم مشيرا ولا مشاركا ولا مخططا.. لكن رواية سيف بن عمر كما رواها الطبرى فإنها جعلته أصل كل شر وبلاء.

ونحن لا ننكر الوجود التاريخى لابن سبأ ولا ننكر أن له تخطيطا فى توجيه بعض الأحداث.. لكننا ننكر مبالغات المؤرخين حين أسبغوا عليه دورا بارزا فى الفتنة الكبرى، بينما الأمر وواقع الأحداث غير ذلك؛ لأن الدور البارز يدور حول تلك المحاور التاريخية:

* طلحة والزبير وعائشة.
* معاوية وعمرو بن العاص.
* التحكيم والغدر بالإمام.
* جيش الإمام علي نفسه.

فأين دور ابن السوداء؟

على أى حال إن القول فيه لا يخرج عن كونه مروج أفكار وجدت الأرض المهيئة بين الأعراب البداة الذين كانوا ضالعين فى فتنة الردة أو من الذين قد خرج بينهم المتنبؤون دعاة الأفكار الضالة.

وكما قلنا فى كتابنا[1]: إن الثورة على عثمان ما هى إلا ثورة القبائل العربية فى

(١) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، دار الشروق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شبه الجزيرة على قريش لاستئثارها بالخلافة، وأن تلك الثورة جاءت انتصارا للتيار القبلى على التيار الإسلامى، أو هى انتصار للعصبية العربية على الإسلامية. وإن عثمان ذهب ضحية تلك الظروف، فلما بويع علي جاء يمثل التيار الإسلامى فى اتجاهاته وميوله، فى ظروف استعلاء التيار القبلى وانتصاره.

يقول الإمام علي ناقدا الروح القبلية وقيمها التى قد نشطت وعادت إلى الظهور فارضة منطقها فى رسم خريطة العلاقات الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع. وقد أفلحت إلى حد بعيد فى تمزيق وحدة المجتمع، وإشاعة روح الشك والضغينة بين فئاته السياسية. يقول فى إحدى خطبه:

«قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم، ونبت المرعى على دفنكم[1]. وتصافيتم على حب الآمال، وتعاديتم فى كسب الأموال. لقد استهام بكم الخبث وتاه بكم الغرور والله المستعان على نفسى وأنفسكم[2].

فالقبائل دخلت الإسلام كما دخلت قريش وهاجرت لإعلاء رايته ولكن قريشا استأثرت بالخلافة وقادت وتزعمت. ومما زاد من هذا التذمر، أن عامة القوات الفاتحة كانت من القبائل فرصتها سانحة للتدخل، كما ظهرت نزعة إقليمية لعلها تطور للنزعة القبلية فى الأمصار بمعنى عدم ارتياح الأقاليم لسلطة المدينة وسيادتها، إذ إن الموارد كانت ترسل من الأمصار إلى بيت المال بالمدينة أى أن الفتنة بكل مراحلها إنما جاءت نتيجة للصراع أو التصادم بين التيار الإسلامى من ناحية والتيار القبلى من ناحية أخرى، أى أن خلافة علي كلها كانت صراعا بين التيارين الإسلامى، والقبلى[3].

---

(١) حركة التاريخ عند الإمام على ــ دراسة فى نهج البلاغة ص ١٠٢ محمد مهدى شمس الدين.

(٢) الدفن: جمع دفنة: ما يتبلد ويتجمد ثم ينبت عليه العشب ونبت المرعى عليه فتبدو جميلة وهى فى الواقع قذرة، لعب بكم الشيطان» خدعكم.

(٣) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، دار الشروق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

الفكر السبئى

كان الإمام علي يضيق بابن سبأ ضيقا شديدا حتى همَّ علي بقتله ذات يوم لولا أن نهاه عبدالله بن العباس وقال له: «إن قتلته اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام، وتحتاج إلى مداراة أصحابك»[1]؛ لذلك تراجع علي عن قتل ابن سبأ. ثم رأى إخراجه من الكوفة فنفاه إلى المدائن[2].

وحينما قتل علي - رضى الله عنه - زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن عليا، إنما كان شيطانا تصور للناس فى صورة علي، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال: «كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى كذلك كذبت النواصب والخوارج فى دعواها قتل علي، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه علي وأن عليا قد صعد إلى السماء»[3].

زعم ابن سبأ أن عليا حى لم يمت؛ لأن فيه الجزء الإلهى[4] ولا يجوز أن يموت. وزعم أن عليا فى السحاب وأن الرعد صوته وأن البرق سوطه[5]، والسبئية من سمع منهم صوت الرعد قال: عليك السلام يا أمير المؤمنين[6].

---

(١) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٥.

(٢) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ص ٥٩. البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢١، ص ٢٣٥.

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق. ص ٢٣٣.

(٤) الأشعرى مقالات الإسلاميين ج١ ص ١١. الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.

(٥) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤. أورد الشهرستانى تلك الرواية غير أنه ذكر أن البرق تبسمه» ج١ ص ١٧٤.

(٦) التاريخ السياسى للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين د. عبد المنعم ماجد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويرى د. فياض أن بداية الغلو فى الأئمة العلويين قد عـزيت إلى عبدالله بن سبأ رئيس الفرقـة المعـروفة بالسبـئية[1] وقد اخـتلف فى أصل عبـدالله بن سبـأ وفى كونه شخصية حـقيقية أم خيالية، وفى غيـر ذلك من أمور سنأتى على ذكرها فى ما يلى من الصفحات.

فابن سبأ كـان يهوديا فأسلم ووالى عليا[2]. ويروى الطبرى أن عبـدالله بن سبأ كان يهـوديا من أهل صنعاء أمـه سوداء»[3]. وتبين لـه وتسمى أن المؤرخين المسـلمين أطلقـوا على عـبد الله بن سـبـأ لقب ابن السـوداء نسبـة لأمه، وأنـه كان يهـوديا من صنعاء[4].

أما سـعد الأشعـرى فإنه، على الرغم من إشارتـه إلى يهودية ابن سبـأ نقلا عن جماعة من العلمـاء، فإنه يتبنى عروبة ابن سبأ وأصله اليمـانى بقوله: «وهو عبدالله بن وهب الراسبى الهمـدانى» ثم يجعل له مساعدين فى رئاسـة السبئية وهمـا «عبد الله بن حرس وابن أسود»[5]. فسعد الأشعرى ربما يكون أول من أثار الشك فى يهودية ابن سبأ وذلك بإثبات أصله العربى واعتقد أن لشكه المذكور نتائج مهمة؛ إذ إنه يؤدى إلى فقدان هدف من أهداف مروجى قصـة ابن سبأ وهو زعمهم أن أصل التشـيع من اليهودية على اعتبار أن أول من قال بوصية النبى ﷺ لعلى هو عبدالله بن سبأ اليهودى الأصل.

أما زمان ظهور الآراء السبئية ومكانها ففيها اختلاف. يقول النوبختى: «فلما قتل على ـ رضى الله عنه ـ افتـرقت التى ثبتت على إمامتـه... فصارت فرقـا ثلاثة: فرقة منهم قالت: إن عليا لم يقتل ولم يمت..، وهى «أول من قال منها بالغلو وهذه الفرقة تسمى السبـئية أصحاب «عـبد الله بن سبأ».. ويبدو من الرواية السـابقة أن زمن ظهور السبئية كان بعد مقتل علي

أما مكان الفرقة المذكـورة فهو العراق؛ لأن عليا كما تقـول الرواية نفسها نفى ابن سبأ من الكوفة إلى المدائن[6].

---

(١) النوبختى، فرق الشيعة، ص ١٩

(٢) أيضا، ص ٢٠.

(٣) التاريخ ٣: ٤٥٩، محـمد بن يحيى، التمـهيد والبيان فى مـقتل الشـهيد عثـمـان (بيروت، ١٩٦١) ص٥٥.

(٤) Hiutsms ,M. Th . "Ibn S ab'a " , Ency . of Islam . I-p29.

(٥) المقالات والفرق، ص ٢٠.

(٦) فرق الشيعة، ص ١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الطبرى، وهو المصدر الرئيسى لقصة ابن سبأ، فيورد روايتين فيما يتعلق بزمن ظهور ابن السوداء قال فى الرواية الأولى: إنه ظهر بعد أن أسلم فى زمن عثمان دون أن يحدد تاريخا معينا[1]، ويقول الطبرى فى الرواية الثانية أن عبدالله بن عامر والى البصرة علم، بعد مضى ثلاث سنين من إمارته، بوجود رجل اسمه حكيم بن جبلة كان يسكن البصرة ويترأس عصابة من اللصوص كانت تغير فى المناسبات على أطراف بلاد فارس فكتب فى أمره إلى عثمان فأمر الخليفة بحجزه وجماعته فى البصرة «فكان (حكيم بن جبلة) لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر...»[2].

ولما كانت ولاية ابن عامر على البصرة فى سنة ٢٩هـ[3]، وأنه حبس حكيم بن جبلة رئيس اللصوص بعد ثلاث سنين من بدايتها، يكون قدوم ابن السوداء للبصرة بين ٣٢ ـ ٣٣هـ.

ويظهر من رواية الطبرى السابقة أنها تحدد وقتا لظهور السبئية أسبق من رواية الأشعرى التى أوردناها، فهى تجعل ظهورهم فى السنوات الأخيرة من حكم عثمان بينما الأشعرى يجعل ذلك الظهور بعد مقتل علي. وسنرى فيما بعد أن تحديد هذا التاريخ كان مهما فى نظر من أقحموا قصة ابن سبأ فى النزاع بين عثمان وبين من ثار عليه من المسلمين؛ لأنهم أرادوا أن يظهروا أن خروج ابن سبأ كان فى السنوات الست الأخيرة من حكم عثمان وهى السنوات التى قويت فيها المعارضة وعدها المؤرخون فترة المخالفات التى ارتكبها عثمان.

أما المكان أو الأمكنة التى ظهر فيها ابن سبأ وجماعته فهى، كما وردت عند رواة قصة ابن سبأ الحجاز والبصرة والكوفة والشام ثم مصر.

كان ابن سبأ فى الشام فى حدود سنة ٣٣هـ؛ وتنقله من البصرة إلى الكوفة ثم الشام يتطلب نصف سنة على الأقل. وعند الرجوع إلى الطبرى نجد أن المناظرة التى جرت بين معاوية وأبى ذر حول قضايا المال كانت فى سنة ٣٠ هـ قال الطبرى: «لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال يا أبا ذر لا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ألا

(١) التاريخ. ٣، ٣٧٨ ـ ٩.
(٢) أيضا، ٣: ٣٦٨.
(٣) أيضا ٣: ٣٢٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله. .»[1].

وبعد المناظرة المذكورة كتب معاوية إلى عثمان في أمر أبى ذر وأخبره أنه يثير الفتنة عليه، فطلب الخليفة من معاوية أن يبعث بأبى ذر إلى المدينة «فبعث (معاوية) بأبى ذر ومعه دليل»[2] ولما وصل أبو ذر المدينة قابل عثمان فى السنة نفسها، وجرى بينهما نقاش حول المال، وانتهى إلى نفى أبى ذر إلى منطقة تعرف بالربذة حيث توفى هناك سنة ٣١ أو ٣٢ هـ[3] ومن هذا يظهر أن الجدل حصل بين أبى ذر ومعاوية فى سنة ٣٠ للهجرة وأن أبا ذر أعيد للمدينة فى السنة نفسها، ثم مالبث أن توفى فى سنة ٣١ أو ٣٢هـ كما أسلفنا. كل هذه الحوادث حصلت قبل التاريخ الذى حدده واضعو قصة ابن سبأ لظهوره وهو سنة ٣٣هـ، فكيف يصح أن نقر مقابلة أبى ذر لابن سبأ فى الشام سنة ٣٠هـ مع أن ابن سبأ لم يظهر بعد، وأن ظهوره إن صح، كان بعد وفاة أبى ذر ولعل فى هذا دليلا على أن ابن سبأ لم يكن شخصية تاريخية وأن أبا ذر لم يلقه فى أى وقت من الأوقات.

١ - هل عمار هو ابن السوداء:

ويناقش د. فياض رأى الوردى وهو فيما نرى رأيا بعيدا عن الصواب ولا يصدق إلا فى ذاكرة الوردى. يقول الدكتور الوردى فى معرض كلامه عن ابن سبأ: «ويبدو أن هذه الشخصية العجيبة اخترعت اختراعا وقد اخترعها أولئك الأغنياء الذين كانت الثورة موجهة ضدهم»[4].

ويرى الوردى أن ابن سبأ هو عمار، ويرى أن من غرائب التاريخ أن نرى كثيرا من الأمور التى تنسب إلى ابن سبأ موجودة فى سيرة عمار بن ياسر على وجه من الوجوه. ويسوق أدلة على ذلك منها:

١ ـ إن ابن سبأ كان يكنى بابن السوداء ومثله فى ذلك عمار.

---

(١) التاريخ، ٣: ٣٣٥.
(٢) أيضا، ج٣، ص٣٣٦.
(٣) القمى، عباس، الكنى والألقاب، ج١ (النجف، ١٥٩٦) ص ٧٣.
(٤) الوردى على، وعاظ السلاطين (بغداد، ١٩٥٤، ص ١٥١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ كان عمار من أب يمانى، ومعنى هذا أنه كان من أبناء سبأ، فكل يمانى يصح أن يقال عنه أنه ابن سبأ.

٣ ـ وعمار فوق ذلك كان شديد الحب لعلي بن أبى طالب يدعو له ويحرض الناس على بيعته فى كل سبيل.

٤ ـ وقد ذهب عمار فى أيام عثمان إلى مصر وأخذ يحرض الناس ثمة على عثمان. فضج الوالى منه وهم بالبطش به.

٥ ـ وينسب إلى ابن سبأ قوله: إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق وإن صاحبها الشرعى هو علي بن أبى طالب.

٦ ـ و٧ ـ قضايا تتعلق بدور عمار فى حرب الجمل وفى علاقته مع أبى ذر.

ويستخلص الوردى أن ابن سبأ لم يكن سوى عمار بن ياسر. فقد كانت قريش تعتبر عمارا رأس الثورة على عثمان، ولكنها لم تشأ فى أول الأمر أن تصرح باسمه فرمزت عنه بابن سبأ أو ابن السوداء، وتناقل الرواة هذا الرمز غافلين وهم لا يعرفون ماذا كان يجرى وراء الستار[1].

وقد قبل الدكتور الشيبي الرأى السابق، ثم حاول تعزيزه بإيراد نصوص تثبت القضايا التى وردت فى محتوياته[2].

يبدو أن رواة قصة ابن سبأ وضعوا على لسان بطل قصتهم آراء ذات أهمية بالغة منها:

أولا: الرجعة: روى الطبرى أن ابن سبأ قال «لهم (أهل مصر) فيما يقول العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا ﷺ يرجع. وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ... (٨٥) ﴾ [القصص] فمحمد ﷺ أحق بالرجوع من عيسى. قال فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها».

ثانيا: الوصية: قال ابن سبأ لمريديه، كما يروى الطبرى: «أنه كان ألف نبى ولكل نبى وصى، وكان علي وصى محمد ﷺ، ثم قال: محمد ﷺ خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ

---

(١) أيضا، ص ٣٧٤ ـ ٨.

(٢) الشيبى، كامل، الصلة بين التصوف والتشيع، ج١ ص ٣٦ ـ ٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ووثب على وصى رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة. ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله ﷺ فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر فبث دعاته..»[1].

ثالثا: القول بأن المال مال المسلمين لا مال الله: روى محمد بن يحيى خبرا رفعه إلى سيف بن عمر أن ابن السوداء لما ورد الشام لقى أبا ذر فقال: «يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله عز وجل، ألا كل شىء لله كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله، فقال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره، قال: فلا تقله عَلَّنِي لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين وأنوى. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك، فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهوديا. فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى معاوية، فقال هذا: والله الذى بعث عليك أبا ذر. وكان أبو ذر بالشام، وجعل يقول يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكان من نار..... فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس»[2].

رابعا: نسبة الألوهية إلى علي. يقول الرازى: إن السبئية هم أتباع عبد الله بن سبأ. «وكان (عبدالله بن سبأ) يزعم أن عليا هو الله تعالى. وقد أحرق على - رضى الله عنه - منهم جماعة..»[3].

ولابن السوداء آراء أخرى ذات صلة بالنقد الذى وجه للخليفة عثمان وإلى ولاته. يقول طه حسين: «يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان «إلى ابن السوداء»[4].

أما القول بالرجعة الذى نسب إلى ابن سبأ فهو يختلف عن الرجعة التى تحصل

---

(١) التاريخ، ٣: ٣٧٨ ــ ٩.

(٢) التمهيد، ص ٧٤ ــ ٥، واليدرى، ٣: ٣٣٥.

(٣) الرازى، فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة، ١٩٣٨) ص ٧٢.

(٤) الفتنة الكبرى، ج١ (القاهرة، ١٩٤٧) ص ١٢٨ ــ ٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد ظهور المهدى، والتى أصبحت من ضروريات مذهب الإمامية. وسنشير إلى ذلك عند كلامنا عن عقائد الإمامية فى فصل لاحق. ويطلق ابن الجوزى على الغلاة القائلين برجعة من نوع الرجعة المنسوبة لابن سبأ اسم «الرجعية» ويعدها فرقة متميزة عن الإمامية. ويقول: إنهم «زعموا أن عليا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا وينتقمون من أعدائهم»[1].

ويبدو أن واضعى قصة ابن سبأ استهدفوا من نسبتهم القول بالرجعة إلى ابن سبأ تشويه فكرة الرجعة عند الشيعة الإمامية. تلك الفكرة التى تختلف فى مضمونها، كما سنبين فى حينه، عن مفهوم الغلاة للرجعة.

أما القضية الثانية التى نسبت إلى ابن سبأ فهى القول بوصية النبى ﷺ لعلي. ويعلم واضعو قصة ابن سبأ أن الشيعة يقولون بفكرة الوصاية. ولكن الشيعة يرون أن الله أمر نبيه محمدا ﷺ أن ينص على علي بالوصية، ونص النبى ﷺعلى ذلك فى يوم الغدير بحضور سبعين أو ثمانين ألفا من المسلمين. ويرى الحُلِّى أن حديث الوصية لم يرد بكتب الشيعة فقط بل أورده أحمد بن حنبل فى مسنده بطرق ثمانية، وأورده ابن عبد ربه فى العقد الفريد، وأورده مسلم فى الصحيح[2]. بينما أراد واضعو قصة ابن سبأ أن يجعلوا مصدر وصاية النبى ﷺ لعلي يهوديا طارئا على الإسلام هو ابن السوداء وليس النبى ﷺ وبأمر من الله. ولا يخفى ما فى هذه القصة من التشويه والنكاية بالشيعة وهو، على ما أعتقد، ما قصده واضعو قصة ابن سبأ.

أما فيما يتعلق بالزعم القائل بأن ابن سبأ وجماعته نسبوا الألوهية إلى على فيبدو أن الغلو بالإمامة عند السبئية تطور مع الزمن فتحول إلى القول بالألوهية. يقول سعد الأشعرى بعد أن يشرح عقيدة السبئية بالغلو فى علي: «وقالوا بعد ذلك فى علي أنه إله العالمين...»[3] أما الرازى فيجعل القول بألوهية علي عقيدة أساسية لدى السبئية ونص بصراحة على أن ابن سبأ «يزعم أن عليا هو الله تعالى»[4]. وبمرور الزمن أصبح ابن سبأ لم يقل بإلهية علي فحسب بل يزعم أنه هو نبيه. وقول العلامة الحلى: «عبدالله بن سبأ.. غال ملعون حرقه أمير المؤمنين علي بالنار، كان يزعم أن عليا ـ عليه السلام ـ إله

(١) تلبيس إبليس، ص ٢٢.

(٢) الحلى، الحسين بن يوسف، إثبات الوصية (النجف لا. ت) ص ١٩.

(٣) المقالات والفرق، ص ٢١.

(٤) اعتقادات، ص ٧٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأنه نبى، لعنه الله»[1]. وهكذا جعلوا ابن سبأ ينتقل مع الزمن، من القول بالغلو بإمامة علي إلى القول بإلهيته وينتهى إلى الادعاء بالنبوة. ولعل التنقل المذكور، وتراكم الإضافات على محتوى القصة يقوم دليلا على ضعفها وعلى اختلاف الأقوال المنسوبة لابن سبأ فيها. ويقول هوتسما: إن أفكار ابن سبأ لم تبق على ما أرادها واضعوها الأوائل بل تطورت. ويضيف قائلا: «يصعب جدا أن نقرر القضايا التى قالها ابن سبأ وتلك التى قالها خلفاؤه»[2].

أما الدكتور فياض فيقول:

أما عمار بن ياسر فقد أراد واضعو قصة ابن سبأ أن يشوهوا معارضته لعثمان ويجعلوها ناتجة عن وقوعه تحت تأثير ابن سبأ. قال الطبرى: إن عثمان بعد أن سمع فيما أثاره ابن سبأ من التشويش فى الأمصار أرسل رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعمار بن ياسر إلى مصر وقالوا: أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم...» واستبطأ الناس عمارا حتى ظنوا أنه اغتيل فلم يفجأهم إلا كتاب من والى عثمان على مصر ابن أبى سرح يخبرهم أن عمارا قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه منهم عبدالله ابن السوداء[3]. وأراد واضعو القصة أن يورطوا عمار بن ياسر فى الوقوع تحت تأثير ابن سبأ كما وقع أبو ذر وغيره من قبل. ولو رجعنا إلى المصادر لوجدنا أن معارضة عمار لعثمان تعود إلى بداية تولى الأخير للخلافة. خطب عمار بعد بيعة عثمان فى المسجد فقال: «يا معشر قريش، أما إن صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ﷺ ههنا مرة وههنا مرة فما أنا آمن من أن ينزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله..»[4]. وذات مرة أخذ عثمان مالا من بيت المال بالمدينة يسقط فيه حلى وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلى به أهله فأظهر الناس الطعن عليه.. فقال: لنأخذ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام فقال له علي: إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه. وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفى أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أعلى يا ابن المتكأ تجترئ ؟ خذوه. فأخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه

---

(١) غالحلى، الحسن بن يوسف «الرجال» (طهران، ١٣١٢) ص ١١٤.

(٢) Op. cit, I, p.29

(٣) الطبرى، ٣: ٣٧٩.

(٤) المسعودى، مروج ج٢، ص ٢٣١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى غشى عليه. . .[1] ويبدو أن معارضة عمار لعثمان كانت مستمرة وعنيفة نال من أجلها عمار الضرب وحاقت به الفتن. وقد أثارت شدة عثمان تجاه غضب بنى مخزوم حلفاء عمار فانحرفوا عن عثمان من أجل ذلك[2].

٢ - رأى الوردى فى الميزان:

بعد مناقشة فياض له وهى مناقشة علمية نقول:

يذهب د. على الوردى فى كتابه (وعاظ السلاطين) وهو بصدد التعليق على عبدالله بن سبأ إلى تأويل تاريخى غريب بقدر ما هو عجيب يقوم على خلع شخصية تاريخية قابلة للجدل ليزرع عليها شخصية تاريخية لا يقبل وجودها جدلا ولا شكا بناء على رؤيته الذاتية التى تخصه هو دون غيره. وهى إحلال شخصية عمار بن ياسر ذلك الصحابى الجليل محل شخصية مزعومة هى عبدالله بن سبأ الذى ينسب إليه حكاية التآمر والدسائس والفتن، وتكلف فى سبيل زعمه أدلة اصطنعها من عند نفسه اصطناعا ليثبت حكمه الذى أعده قبلا - بسبق إصرار - وحين نعرض لأدلته التى ساقها تأخذك من تلابيب فكرك لتقف بك على طرفى النقيض تماما لنتائجه الذى ذهب بها إلى أن ابن السوداء هو عمار بن ياسر، إنها رؤية تباعد بينها المقارنة ولا تدنيها. فإن تراءى لعلى الوردى أن يمنية عمار وإطلاق ابن السوداء عليه فيه ما يدفع إلى المقارنة فإن فيها ما يباعد بينها أكثر، فابن السوداء اليهودى جاء يغدر بالإسلام ويثير فتنا عظيمة تتشكل مع الأحداث بألوانها. بغض النظر عن تحقيق الوقائع التاريخية التى ترفض وجوده، وأما سيرة عمار بن ياسر. . . فهى فى مصر كما هى فى الكوفة والبصرة والعراق صبغها حب الرسول ﷺ وجعل استشهاده نقطة فاصلة بين الفئتين الباغية والعادلة فى قوله ﷺ: ويح عمار تقتله الفئة الباغية - وكان تأول الحديث من الفئتين يشهد بصحة روايته، وصلاح عمار. واتخذت الفئتان من استشهاده حجة على براءتهما حين تنازعا من المقصود بالفئة الباغية. فهل هم الذين أخرجوه أم هم الذين قتلوه؟ فحرص الفريقين على البراءة من دمه دفعهما إلى إشكالية التأويل وما ذلك كان منهم إلا بحثا عمن هو أولى بالبراءة من الأخرى حتى تكون بمنجاة من وزر قتله - فلم تدَّع عليه إحداهما بأنه صاحب فتنة أخرجته عن صحبة الرسول ﷺ، كذلك لم تدع عليه بأنه كان على يهوديته

(١) أنساب الأشراف، ٥: ٤٨.

(٢) المسعودى، مروج ج ٢، ص ٢٢٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملتحفا الإسلام[1]. وإذا لم يكن عبد الله بن سبأ لم يكن له وجود تاريخى فما معنى إطلاقه على عمار؟ إن الأعمال التى تنسب إلى ابن السوداء وتداولها المؤرخون، من الظلم الفادح أن يحملها عمار، ومن الأشد ظلما أن نرضى لعمار هذا الظلم. ورد فى السنة النبوية أن أبا ذر الغفارى عير أعرابيا بأمه فقال له: يا ابن السوداء فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك فقال له: إنك امرؤ فيك جاهلية. فكيف ينكرها الرسول ﷺ على أبى ذر حين سب أعرابيا ثم نرضى إطلاقها على عمار؟

ونلاحظ أن المستعربين الروس لا يلقون بالا إلى عبدالله بن سبأ فصاحب كتاب العرب والإسلام، والخلافة العربية لا يذكره سلبا ولا إيجابا رغم أنه ركز على مظاهر الترف فى عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان وعلى غضب أبى ذر الغفارى الذى نادى بأن مال المسلمين إنما هو للمسلمين جميعا يوزع عليهم بالعدل.. وعده إيليا بيف فى كتابه بأنه على رأس الناقمين وذكر أن النبى ﷺ كان يصفه بالصحابى الصالح والمسلم التقى الكامل[2]. وأغفل ذكر ابن سبأ إغفالا تاما، ولم يكن إغفاله إياه لرؤية ذاتية وهوى إنما مرده إلى تقديمه كتاب فتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٨٩٢ وهو قبل الطبرى وكتاب فتوح البلدان هو أولى بالتقديم على الطبرى المتوفى ٩٩٣ وله موازنة علمية بين منهجيهما دقيقة وقيمة[3] كذلك لم ترد فى اليعقوبى المتوفى ٨٩٧ ولا الدينورى المتوفى ٩٨٥ إنما انفرد بها الطبرى لذلك لم تلق منه اهتماما. وتتميز عن كتب الاستشراق الغربى. والأمر الثانى: أن الاستشراق الروسى فضح نفسه؛ لأنه أخضع التفسير التاريخى الإسلامى للأسس الماركسية فحصرها فى المفهوم الاقتصادى الاجتماعى. والإسلام لديه دين ظالم لكن الاستشراق الغربى ليس واحدا، والمعاصر خير من القديم ويرى أن الإسلام نشأ فى وضح النهار.

٣ - عمار بن ياسر وابن سبأ:

لقد أقلقنى ما وقع من التباس بين عمار بن ياسر وابن سبأ ردده بعض الباحثين استمدادا من بعض المستشرقين حول الصحابى الجليل عمار بن ياسر الذى جعله رسول الله ﷺ حدا فاصلا بين الفئتين: الباغية والعادلة.. وقفت أمام تلك المسألة كثيرا وبينما ذلك الكتاب.. تاريخ الشيعة يتخذ طريقه إلى المطبعة وقع فى يدى كتاب: آراء الخوارج

(١) ص ١٥١ طبع بغداد ١٩٥٤، والمزيد راجع كتاب عبد الله بن سبأ مرتضى العسكرى.
(٢) العرب والإسلام والخلافة العربية ص١٩٦.
(٣) نفس المصدر ص ١٦٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لمؤلفه الأستاذ الفاضل الدكتور عمار الطالبى وجدت فيه دراسة وافية عن عبدالله بن سبأ وعمار بن ياسر فسررت بها ـ ورأيت فيه حلا حاسما فألحقتها بالكتاب واستفادت الدراسة بها.

٤ - عبد الله بن سبأ:

ذهب المستشرق Lévi della Vida أن عبد الله بن سبأ له أسماء كثيرة فهو ابن حرب، وابن السوداء، وابن وهب السبائى، ويكاد يجمع أهل السنة أنه يهودى يمنى، وتعتبره الشيعة غاليا من الغلاة قد لعنه جعفر الصادق (+١٤٨هـ/٧٦٦) نفسه، ويذكر الذهبى استنادا إلى رواية سيف بن عمر أن ابن سبأ كان سبب الفتنة الحادثة فى الملة، ويفترض المستشرق Hodgson أن ابن سبأ ليس يهوديا فى أغلب الاحتمالات، مشايعا فى ذلك لـ: Lévi della Vida[١] واعتبره البغدادى (+٤٢٩/١٠٣٨)، وابن كثير (+٧٧٤/ ١٣٧٢) روميا[٢]، وافترض M.S. Hodgson أن عبد الله بن سبأ شخص مغاير لابن السوداء، وان ابن السوداء كان مساعدا له، والذى أنكر موت على بن أبى طالب عنده هو ابن السوداء لا عبد الله بن سبأ[٣]، ولكن لم يأت بنصوص أو أدلة تؤيد افتراضه، وقد يسر لى أن أعثر على نص يؤكد ما ذهب إليه المستشرق المذكور، وهو ما أورده أبو المظفر الإسفراييني فى كتابه «التبصير فى الدين» حيث قال: (ووافق ابن السوداء عبد الله بن سبأ بعد وفاة علي فى مقالته هذه، وكانا يدعوان الخلق إلى ضلالتهما)[٤] ويذكر سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعرى القمى (+٣٠١/ ٩١٣) أن عبد الله بن سبا كان يساعده شخصان أحدهما عبد الله بن حرس، وثانيهما ابن أسود، ووصفهما بأنهما من أجل أصحابه[٥]، ولعل ابن أسود هذا، وابن السوداء الذى ذكره الإسفراييني هما شخص واحد وهو سودان بن حمران اليمنى، من قبائل مراد اليمنية التى نزلت بمصر؛ لأنه قد عرف بنشاطه الكبير فى مصر، وفى المدينة، وكان من أعظم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة «ابن سبأ».

(٢) د. النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٢ ص ٣٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ط ٢، ج١، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٤) التبصير فى الدين ص ٧٢، ويمكن أن يكون المستشرق قد اطلع على هذا النص ولكنه لم يشر إليه. ولكن لا يفهم من النص أن ابن السوداء وحده هو الذى أنكر موت على، وإنما يدل على أن ابن السوداء انضم إلى عبد الله بن سبأ بعد مقتل علي.

(٥) سعد القمى، كتاب المقالات والفرق، ص ٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مساعدى ابن سبأ فى الفسطاط المصرى، وهو الذى يذكر المؤرخون أنه اتصل بعمار بن ياسر حين قدومه إلى مصر، وكان قائدا لإحدى فرق الوفد المصرى ومن الذين تسوروا دار عثمان، ونادى حين قتل: قد قتلنا عثمان، ويذكره الطبرى بكثرة[1].

وأول ذكر لابن سبأ فى تاريخ الطبرى ورد فى حوادث سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠، وكان أول اتصال له بأبى ذر الغفارى (+٣٢هـ/ ٦٥٢) وأثار أمامه الاعتراض على معاوية فى سياسته الاقتصادية وأبدى شبه استنكار لقول معاوية: «المال مال الله كأنه يريد أن يقول إن معاوية يرغب فى أن يختص به دون المسلمين، ثم أتى أبا الدرداء عويمر (+٣٢/ ٦٥٢) فحدس فيه أنه شخص يهودى وقال له: (أظنك والله يهوديا واتصل أيضا بعبادة ابن الصامت (+٣٤/ ٦٥٤) فشك فى أمره، وأمسك به، وحمله معه إلى معاوية، وقال له: (هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر؟[2] وهذا شأن المؤامرات إلى اليوم حيث يقوم المتآمرون ذوو النزعات الأيديولوجية أو الاقتصادية أو السياسية بالاتصال بكبار الأعيان، والسياسيين والذين لهم تأثير فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية فإذا يئسوا اتصلوا بالشيطان والمجرمين، ثم إن ابن سبأ ظهر فى سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢ بالبصرة وكان أول اتصال له بحكيم بن جبلة العبدى أحد لصوص بنى عبد القيس، من أصل عمانى أقام بالبصرة وكان ذا شجاعة نادرة، يشارك فى الفتح، وفى المعارك فإذا رجع الجيش الذى يرافقه خنس عنه، وتنكر وأخذ فى الإغارة على بلاد فارس، والاستيلاء على أموال أهل الذمة، حتى اشتكى منه أهل الذمة والمسلمون على السواء إلى الخليفة عثمان، فأمر والى البصرة بحبسه بها، ومنعه من الخروج منها، فلما أتى ابن السوداء البصرة كما أشرنا نزل عنده، واجتمع به وبنفر معه ويبدو أنه كان عارفا للأحوال الاجتماعية فى البصرة. وقد عبر الطبرى برواية سيف بن عمر عن طريقة عمله فى ذلك الاجتماع بقوله: (فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح، فقبلوا منه واستعظموه)[3]، وهذا شأن الغنوصية فى الدعوة فى البداية بالإشارة والتلميح ثم يعقبه التصريح، ويبدو أن وراء ابن السوداء جماعة تحركه، وتترصد الظروف وتختار الأشخاص الذين يمكن لهم أن ينفذوا المؤامرة. ويذكر هذا المصدر أن والى البصرة وهو عبد الله بن عامر (+٥٩/ ٦٧٨) اشتبه فى أمر ابن سبأ

---

(١) الطبرى، ط. الحلبى، جـ ٥ ص ٩٩، ١٠٣.

(٢) ن. م. جـ ٤ ص ٢٨٣.

(٣) ن. م.، جـ ٤ ص ٣٢٦ قال المقريزى: فجعل يطرح مسائل على أهلها، (البصرة) ولا يصرح، فأقبل عليه جماعة وأعجبوا بقوله، فطرده عبد الله بن عامر، الخطط. جـ ٤ ص ١٤٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى اتصاله بجبلة بن حكيم، ذلك اللص الجرىء فأرسل إليه وسأله عن أمره فأجابه بأنه رجل من أهل الكتاب يرغب فى الإسلام، فشك فيه الوالى، وأمره بالخروج من المدينة[1]، وكان حكيم بن جبلة بعد ذلك رئيسا لإحدى الفرق الأربع من الثوار الذين قدموا المدينة من البصرة، كما كان الأشتر رئيسا لفرقة من فرق ثوار الكوفة، فالسبائى الأول بهذا الاعتبار إنما هو حكيم بن جبلة، فلما أخرج ابن سبأ من البصرة دخل الكوفة فأخرج منها أيضا، وينص الطبرى ثم المقريزى من بعده على أنه توجه من الكوفة إلى مصر، واستقر بها، وأخذ فى الطعن على عثمان زاعما أنه استولى على الخلافة بدون حق، داعيا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ويحدثنا السيوطى (+٩١١/ ٧٩٥٠٥) نقلا عن سيف بن عمر، أن عبد الله بن سبأ دخل مصر سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤ وأنه أوحى إلى طائفة من الناس كلاما اخترعه، فحدث برجعة محمد ـ عليه السلام ـ قائلا ما دام عيسى سيرجع فإن محمدا وهو أفضل منه لا بد من رجوعه إلى الدنيا، محتجا بالقرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ... (٨٥)﴾ [القصص] واخترع بدعة القول بأن عليا وصى بل إنه خاتم الأوصياء كما أن محمدا خاتم الأولياء، وصرح بأن عليا أصلح للخلافة من عثمان وما عثمان إلا معتد على ولاية علي وخلافته، فأنكر عليه بعض الناس وافتتن به جمع كثير من أهل مصر، وكان ذلك سبب قيامهم على عثمان، واعتبر السيوطى هذه الواقعة من الحوادث العجيبة التى وقعت بمصر[2] واعتمد ابن سبأ فى مصر على جماعة يمنية، وخاصة أحد أبناء وجوه القبائل اليمنية التى جاءت إلى مصر أثناء الفتح، وهو الغافقى ابن حرب العكى، ويظهر أنه لما لم يجد صنائع فى الحجاز والشام، اقتصر على بعض الأعوان فى البصرة والكوفة واختار الإقامة فى الفسطاط بمصر وجعله مركزا له، وهنالك استمال الغافقى الذى أدرك ابن سبأ ناحية الضعف فيه، وهى حبه الشديد للرئاسة والجاه، واستغل كذلك محمد بن أبى حذيفة بن عتبة، وجعله اليد اليمنى له ولجماعته فى مصر ولمعرفته بأحوال الخليفة عثمان؛ لأنه كان ربيبه وتنكر له حين رفض أن يوليه إحدى الولايات، أما الزعامة والتصدير فكانا للغافقى[3] وكان ابن سبأ يكاتب صنائعه

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣٢٧.

(٢) السيوطى، حسن المناظرة فى أخبار مصر والقاهرة جـ ٢، ص ١٤٨، وأورد هذا المعنى أيضا ابن كثير، فى البداية والنهاية، مصر (دون تاريخ) جـ ٧، ص ١٦٨.

(٣) الطبرى ث. مصر ١٣٢٦ جـ ٥ ص ١٠٧، آراء الخوارج ص٥١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى البصرة والكوفة ويكاتبونه فى الطعن على عثمان وأمرائه. وعندما ذهب الوفد المصرى إلى المدينة صحبهم ابن السوداء، وأعطيت الرئاسة العامة للفرق الأربع إلى الغافقى بن حرب وفى المدينة استفحل أمرهم، ومنعوا عثمان من الصلاة بالناس فى المسجد وأصبح الغافقى إماما يصلى بالناس ثم كان من الجانين على عثمان وبعد مقتله بقيت المدينة فى إمارة الغافقى خمسة أيام[1]، وكان لابن سبأ دعاة بثهم، لاستمالة الناس بدعوى أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[2]، وبذلك يبدو لنا كيف اعتمد على القبائل اليمنية النازلة بمصر، ونشر بين الناس فكرتين يهوديتين هما المهدية والرجعة وحاول أن يستر وجهه بقاعدة إسلامية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[3]، وهنا نتساءل عن تاريخ إسلامه، قيل أنه أسلم بعد مضى سنة من خلافة عثمان، وقيل بعد مضى سبع سنين، وأغلب الظن أنه أسلم بعد سنة ٢٣/ ٦٥٣ لأنه سئل فى هذه السنة، فقدم نفسه على أنه رجل من أهل الكتاب، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وبعد ذلك كله كان يبدو ابن سبأ للناس بالكوفة، مع قتلة عثمان[4].

وقد أثيرت مسألة عبد الله بن سبأ لدى الباحثين المعاصرين فحاولوا أن يشككوا فى وجود عبد الله بن سبأ باعتباره شخصية تاريخية واقعية، فزعم بعضهم أنه عمار بن ياسر (+٣٧/ ٦٥٧)[5] وأنكر بعضهم الآخر وجوده على الإطلاق، أو شك فى وجوده[6]، أما القدماء من أهل السنة والشيعة على السواء فإنهم اعتبروه باتفاق حقيقة واقعية وشخصية تاريخية وليست من اختراع أهل السنة أو الأموية العثمانية كما يزعم بعض الباحثين المحدثين؛ ذلك أن سعد بن عبد الله القمى الشيعى المعاصر الطبرى وهو

---

(١) ن. م.، جـ ٥ ص ١٣٠.

(٢) الطبرى، ط. دار المعارف جـ ٤ ص ٣٤١.

(٣) الدكتور النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢، ص ٢٤.

(٤) الدكتور النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢، ص ٢٦.

(٥) وهو الدكتور على الوردى، فى كتابه: وعاظ السلاطين بغداد، ١٩٥٤، ص ٢٧٤ وتبعه على ذلك الدكتور كامل مصطفى الشبى، فى كتابه الصلة بين التصوف والتشيع مطبعة الزهراء بغداد، جـ١ ص٣٥ ـ ٣٧.

(٦) من هؤلاء الدكتور طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى (عثمان) ط ٧ دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣٣ (على وبنوه) دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤ ـ ٢٥ وأنكره أيضا مرتضى العسكرى، فى كتابه «عبدالله بن سبأ» ط ٢ القاهرة ١٣٨١ ص ١٧ ـ ١٢ ويلاحظ أن أغلب المنكرين له أو المشككين فيه من الشيعة، آراء الخوارج، د. عماد الطالبى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثقة وواسع المعرفة بالأخبار[1] يقر بوجوده، ويقرر أنه أول من بذر بذرة الغلو[2] الشيعى وكذلك النوبختى الذى يعتبر من أعظم مؤرخى مقالات الشيعة فإنه يتفق تمام الاتفاق مع القمى[3]، أما أن عبد الله بن سبأ هو عمار بن ياسر فيما يزعم على الوردى فهذا أبعد؛ لأن الوقائع التاريخية لا تسمح لنا بذلك فإن ابن سبأ لما ابتدأ حركته بمصر، وشاعت أخبار جماعته أرسل عثمان بن عفان عمار بن ياسر إلى مصر ولم يعد كما عاد أصحابه الذين أرسلوا إلى بقية الأقاليم، وذلك لأن بعض أصحاب ابن سبأ استمالوه لما يعلمون من سوء التفاهم بينه وبين عثمان مما جعل والى مصر يرسل به إلى المدينة فعاتبه عثمان وقال له: يا أبا اليقظان قذفت ابن أبى لهب أن قذفك وغضب علىّ أن أخذت لك بحقك أخرج عنى يا عمار[4]، وكان ابن سبأ قد ذهب إلى المدينة وكانوا يكاتبونه من مصر[5]، فهما شخصان أحدهما بمصر، والآخر بالمدينة، ولماذا يرمز بنو أمية بابن السوداء لعمار بن ياسر فى ذلك العهد وهم قد نسبوا إلى من هو أعظم من عمار بن ياسر من الصحابة الكفر، وأعلنوا سبه من على المنابر، وأما القول بأن عليا أيضا رمز له بأبى تراب وسمى أتباعه بالترابية فإن النبى ﷺ نفسه كناه بهذه الكنية فى قصة أوردها البخارى ومسلم، وابن هشام (+٢١٨هـ/ ٨٣٤)[6] فى سيرته[7] فما يمنع الناس أن يصرحوا باسم عمار بن ياسر ولما أغفل الرواة ذلك ولم يعرفوا ما وراءه كما يدعى بعض الباحثين، وإذا رمزوا له باسم ابن السوداء فلماذا يجعلونه يهوديا؟ فإذ قيل أنهم يقصدون بذلك تشويه التشيع، والتشنيع عليه، فإننا تقول أن مؤرخى الشيعة أنفسهم يعترفون بوجود ابن سبأ، وبأنه يهودى، ويقررون أنه من أول من أدخل الغلو إلى التشيع، وللطعن على أبى بكر وعمر وعثمان، ثم إذا كانت هذه العقائد الغالية الدخيلة قد وجدت فى ذلك العهد فهى أثر واقعى موجود والأثر يدل على المؤثر، وما ابن سبأ إلا شخص ظهر من بين أشخاص بقوا تحت الخفاء شأن الجمعيات السرية، وما هو إلا داعية

---

(١) سعد القمى كتاب المقالات والفرق (مقدمة محققة محمد جواد مشكور ص ١).

(٢) ن. م.، ص ٢٠.

(٣) النوبختى أبو الحسن، فرق الشيعة ص ٢٢ ــ ٢٣.

(٤) ابن عساكر، (+٥٧١/ ١١٧٦) تريخ دمشق، دمشق ٢٩ ــ ١٣٥١هـ جـ ٧ ص ٤٢٩.

(٥) الطبرى، جـ ٤ ص ٣٥٣.

(٦) وقيل توفى سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ وهو هشام بن عبد الملك بن أيوب الحميرى.

(٧) محمد الزمخشرى (+٥٣٨/ ١١٤٤) كتاب خصائص العشرة الكرام البررة تحقيق الدكتورة بهيجة باقر الحسنى، بغداد ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ ص ٩٢ تـ١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يظهر ويختفى، وإذا كان مقصد من ينكر عبد الله بن سبأ أو يشكك فيه أن يبعد التهمة عن الشيعة وصلتها باليهودية فكيف يستطيع أن ينفى الأفكار اليهودية التى اعتنقها الغلاة منها وخاصة السبائية؟ ومن أين جاءت وكيف وصلتهم والحال هذه أن الشيعة غير الغالية تعترف بوجود هؤلاء الغلاة، وبأن العناصر التى فيها أجنبية ودخيلة على الإسلام، وتنكر ذلك أشد الإنكار، أما الطبرى وغيره من الرواة فإنهم يدركون جيدا الفرق بين عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر كما أشرنا إلى ذلك من قبل، حيث نص على وجود أحدهما بالمدينة وعلى الآخر بمصر، وأما مجرد اتفاقهما فى الكنية وهى ابن السوداء فهذا لا يقوم دليلا على أنهما شخص واحد؛ لأننا نجد أعلاما كثيرين متشابهين فى الكنى، ومما جعل بعض المؤرخين يؤلفون فى المتشابه من الأسماء والكنى، لبيان الفروق بينها، وأما صلة عمار بن ياسر بأبى ذر فهى كصلة بقية كبار الصحابة الذين تجمعهم الصحبة، والتقدم الزمنى فى العقيدة، ولم يثبت أن عمار بن ياسر أوحى إلى أبى ذر ربما كان يدعو إليه من الزهد الذى لا يجب على المسلم أن يطبقه على النحو الذى كان يدعو إليه، وإنما يشتركان فى أنهما قد غضبا على عثمان، لأمور تستوجب الخروج والدعوة إلى قتله، وفتح باب الفتنة الأعظم على الأمة، أما ذهابه إلى مصر[1] فإنه لم يذهب إليها بغية الوثوب على عثمان، وإنما بعثه عثمان نفسه، لاستطلاع الحالة هناك باعتباره من كبار الصحابة فاستمالة بعض الناقمين على عثمان وكانت حالته النفسية وسوء تفاهمه مع عثمان يدعو إلى الإنكار عليه، لكن كما ينكر كل مسلم على أخيه المسلم إذا أخطأ فلم يكن يهدف إلى قتله أو إلى الخروج المسلح عليه؛ لأن الصحابة وخيار المسلمين لم يكن لهم دخل فى دم عثمان، ولهذا نجد ابن تيمية يقرر: (إن خيار المسلمين لم يدخل أحد منهم فى دم عثمان، لا قتل ولا أمر بقتل وإنما قتلته طائفة من المفسدين، فى الأرض من أوباش القبائل، وأهل الفتن، وكان على ـ رضى الله عنه ـ يقول: اللهم العن قتلة عثمان فى البر والبحر والسهل والجبل)[2] وإذا كان الأمويون قد رمزوا إلى عمار بن ياسر بابن السوداء فلماذا لم يشنع عليهم من كتب التاريخ وهم قد بدأوا التدوين بعد عصر الأمويين، ولهم الحرية الكاملة فى أن ينسبوا إلى الأمويين كل رذيلة، وإذا كان الرواة قد نسبوا إلى معاوية أشياء كثيرة مشينة، ونسبوا إلى علي أشياء

(١) إذا كان وجود عبد الله بن سبأ فى مصر يتفق مع عمار بن ياسر فيها فإن النصوص التى لدينا تحدثنا أن عبد الله بن سبأ دخل مصر سنة ٣٣هـ أو سنة ٣٤هـ وكان عمار بن ياسر فى ذلك الحين فى المدينة ولم يدخل مصر إلا حين بعثه عثمان سنة ٣٥هـ. (الطبرى جـ٤ ص ٣٤١).

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة جـ ٢ ص ١٨٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإلى كبار الصحابة أقوالا وأفعالا، وأضافوا وطعنوا عن هوى فما المانع إذن أن ينسبوا إلى عمار بن ياسر ما نسبوه وأن يكشفوا عن حقيقته؟ أو عن حقيقة من غالط الناس واخترع شخصية وهمية، وأفكارا وهمية، وربط بينهما ربطا وهميا؟ ثم إن الاختلاف الوحيد بين ابن سبأ وعمار بن ياسر يلزم منه أشياء غير مقبولة، ولا تسمح لنا الظروف التاريخية والنفسية أن ننسبها إلى عمار بن ياسر، فإذا كان عبد الله بن سبأ عمار بن ياسر، فمعنى ذلك أن الأخير هو الذى أشاع فكرة الوصية وفكرة المهدوية والزندقة مما لا يستطيع أى مؤرخ أن ينسبه إلى عمار بن ياسر الصحابى الجليل، والواقع أن عمار بن ياسر ليس شيعيا إلا بالمعنى اللغوى فهو من محبى علي وأتباعه، ولكن ليس من الذين يعتقدون فيه أنه الوصى، أو المهدى أو أن الإله حل فيه، أو أن الرسول ﷺ نص على خلافته، وهو المبدأ الأساسى للشيعة، ومن ثم فإن التشيع بمعناه الاصطلاحى الحقيقى لا ينطبق على عمار بن ياسر وإلا فلنا أن عبد الله بن عباس شيعى أيضا؛ لأنه كان اليد اليمنى للإمام علي، وكان رسوله إلى الخوارج، ومن ناحية أخرى فإن يهودية ابن سبأ لم يذكرها أهل السنة فحسب، وإنما ذكرها قدماء الشيعة، فالنوبختى ينص على أن جماعة من أهل العلم من أصحاب على قالوا: إن ابن سبأ يهودى وكان يقول بالوصى قبل أن يسلم[1].

وقد تعجب بعض الباحثين، من أن شخصا واحدا كابن سبأ استطاع أن يوقد نار هذه الفتنة كلها حتى أنكر وجوده التاريخى كما فعل طه حسين حيث ذهب إلى أن ابن سبأ منحول مخترع، أدى إلى اختراعه الجدل بين الشيعة وخصومهم من الفرق الأخرى، وقال أنه قد بولغ فى أمره كيدا للشيعة[2] وقد أشرنا إلى أن قدماء الشيعة أقروا وجوده، ولم ينكروه، فلو وضع كيدا لهم، وتشنيعا عليهم لردوا ذلك، وهم يترصدون خصومهم، ولكن لم نجد ذلك فى كتب الشيعة المتقدمين الذين جادلوا وناضلوا عن مذهبهم، ومن جهة أخرى فإن عبد الله بن سبأ لم يكن وحده، فله جماعة وراءه وخلايا منها من يوجد بالبصرة، ومنها من يوجد بالكوفة، وبمصر، وإلا فكيف نستطيع أن نفسر النظام المحكم الذى اتبع فى تكوين الوفود التى جاءت إلى المدينة، الوفد البصرى والكوفى والمصرى، فقد كان كل وفد يتكون من أربع فرق، وكل فرقة عليها رئيس، ويتزعم الفرق الأربع من كل بلد رئيس عام، والغريب أن الوفود الثلاثة متساوية

(١) النوبختى، فرق الشيعة، ص ٢٣.

(٢) الفتنة الكبرى، (على وبنوه) ص ٢٤ ــ ٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى عدد الأعضاء[1]، فهل كان هذا مصادفة واتفاقا أم أنه ينبئ عن حركة منظمة؟ أما التعجب من أن فردا واحدا يلعب على عقول الصحابة، فإننا لا نقول أنه لعب على عقول الصحابة، وإنما لعب بعقول ذوى الأغراض، والأهواء وذوى العصبية وحب الرئاسة وكسب المال، فكان الجو الاجتماعى مناسبا ومهيئا للعب فى الماء العكر، والواقع أن ما قاله الدكتور طه حسين من أن الظروف الاجتماعية والسياسية كانت تدعو إلى الاختلاف وإلى نشأة المذاهب[2] حق، ولكن دور ابن سبأ، وبقايا أهل الردة، والغنوص المستتر واليهود المستترين واقع تاريخى وحق أيضا، فإذا كان المنافقون والمرتابون والمتنبئون موجودين فى عهد النبى نفسه[3] فكيف لا يوجدون فى عهد اتصل فيه المسلمون بالأمم الأخرى ذوات العقائد القديمة والديانات والأمجاد السياسية التى لا يمكن نسيانها فى ظرف يسير، ولا يمكن السكوت المطلق أمام هذا المعتقد الجديد الذى أصبح بيده المجد والسلطة والسياسة والمال، لهذا اعترف طه حسين بأن ابن سبأ استغل الفتنة ولم يثرها[4]. أما الشيخ زاهد الكوثرى (+١٣٧١/١٩٥٢) فإنه يعلل دور ابن سبأ بأن (المسلمين ما خبروا أساليب الماكرين وطرق فتن الفاتنين من قوم بهت أهل غدر وفجور على ما فى صحيح البخارى وغيره)[5] ويرد على من أنكر وجوده بإجماع المؤرخين الإثبات على وجوده وإحداثه[6] ويعتمد من أنكر وجوده مثل مرتضى العسكرى المعاصر على أن رواية سيف بن عمر لا يوثق بها وأنه ضعفه أهل الحديث واتهموه بالكذب تارة والزندقة أخرى، وبأنه ربما يكون مناصرا لتميم التى كان لها دورها فى الردة، والواقع أن سيف بن عمر ليس ثقة فى الحديث ولكنه من أقدم المؤرخين إذ توفى فى عهد الرشيد (+١٩٣/٨٠٨) بعد ١٧٠هـ/٧٨٦ ومن ناحية أخرى فإنه من رجال الترمذى

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٠٤.

(٢) طه حسين الفتنة الكبرى، (عثمان) ص ١٣٤

(٣) قال ابن قتيبة: (ونحن نعلم أنه قد كان يشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد، ويحضر معه المغازى المنافق لطلب المغنم، والرقيق الدين والمرتاب والشاك، وقد ارتد بعده أقوام منهم عيينة بن حصن لحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ وآمن به. تأويل مختلف الحديث ص ٢٣٤.

(٤) طه حسين، الفتنة الكبرى (عثمان) ص ١٣٤.

(٥) زاهد الكوثرى، مقدمته على «المقدمات الخمس والعشرون» من دلالة الحائرين لموسى بن ميمون (+٦٠٥/١٢٠٧) شرح أبى بكر محمد التبريزى، من أهل القرن السابع الهجرى مصر، ١٣٦١هـ ص٣.

(٦) قال زاهد الكوثرى: (رغم محاولة بعض المقسطين من أبناء اليوم إنكار وجود شخصى يقال له عبد الله ابن سبأ فضلا عن أن يكون أحدث تلك الأحداث، المقدمات الخمس والعشرون (المقدمة) ص ٣ ــ ٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(+٢٧٩/ ٨٩٢) ولم يناقض فى روايتـه راويا آخر، ولم يرد عليـه أحد من المحـدثين أو المؤرخين فى خبره الخاص بابن سبأ، وإذا كان لنا أن نتهمه فى أخباره عن حروب الردة؛ لأنه تميمى ويحتـمل أن يتعصب لقومه فلـيس لنا أن نتهمه فى خبـره عن ابن سبأ إذ لم يكن له غرض خاص، بل إن اتهامـه بالزندقة يقتضى أن يخفى عن الزنادقة مـشاركتهم فى إيقاد نار الفتنة، فلا ينسب ذلك إلى عبد الله بن سـبأ وإلى أمثاله، فليس هناك مبرر واضح يحتم علينا أن نتهمه فى هذا الخبر خاصة، وقد عرف قوم ابن سبأ بالدس فى كل زمن[١] ولم ينكره اليهود فى زماننا كـجولدتسيهر وغيره من أهل الاستـشراق من اليهود ومن غير الـيهود[٢] وأما الزعم بأن خـبر ابن سبأ لم يكن إلا من اختـراع المحدثين فى القرنين الثـانى والثالث الهجـريين فإن التدوين فى التـاريخ والحديث إنما نشط فى هذين القرنين فكيف يصبح القول بأن ما يقوله هؤلاء المدونون فى هذا العصر مخترع منحول؟

ويقرر بعض الباحثـين أن خبر إحراق السبئية مزعـوم مخترع من أصله، وأنه لم يرد فى أى كتاب مـوثوق من كتب التاريخ[٣] يمكن رده بما أورده البخـارى عن عكرمة (+١٠٥/ ٧٢٣) قـال: (أتى علي ـ رضى الله عنه ـ بزنادقـة فأحـرقهم فـبلغ ذلك ابن عباس، فقـال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ، ولقتلتـهم لقول رسول الله ﷺ: من بدل دينه فاقتلوه)[٤] وفسر الشراح الزندقة هنا بتفاسـير مختلفة منها أنها تطلق على من أسر الكفر وأظـهر الإسلام، ومنها أنها الثنوية، ومنها أنها ادعاء وجود إله آخر مع الله، والمعنى الأخير هو ما زعمه ابن سـبأ فى علي، وروى حديث آخر يسند وصفه ابن حجـر بأنه سند حسن أن قـوما جاءوا عليـا فقالوا له: (أنت ربنا وخـالقنا ورازقنا)

---

(١) يقول زاهد الكوثرى: والشىء مـن معدته لا يستـغرب، وسعى قـومه (ابن سبـأ) فى الفتن طول التاريخ حقيقة ملموسة لا يتجاهلهـا إلا من هو ضالع معهم فى آخر الزمن وقد عرفهم الناس فى كل دور بأنهم أهل مكر وغدر. ـ مقدمة «المقدمات الخمس والعشرون» ص ٤.

(٢) أمثال: فـان فلوتن فى كتابه (السيادة العربيـة والشيعة والإسرائيليـات فى عهد بنى أمية ترجمـة الدكتور حسن إبراهيم ومحـمد زكى إبراهيم، ط ١ مصر ١٩٣٤ ص ٧٩، ونيكلسـون فى كتابه به تاريخ الأدب العربى ط. كمبردج، ص ٢١٥ ودوايت م. دونلدسن فى كتابه (عقيدة الشيعة) ٨٥ من الترجمة العربية مكتبة الخـانجى مصر ١٩٤٦. العقيـدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسـيهر ترجمة محـمد يوسف موسى وجماعة ص ١٩٢ فلهوزن، الدولة العربية وسـقوطها، ترجمة يوسف العش، دمشق ١٩٥٦، والخوارج والشيعة ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) الدكتور كامل مصطفى الشيبى، الصلة بين التصوف والتشيع، جـ١ ص ٩١.

(٤) ابن حجر، فتح البارى، جـ١٢ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فحاول أن يردهم؛ فلما أبوا أمر بإحراقهم[1]، وورد بطريق آخر منقطع أنهم جماعة من عباد الأوثان، وفى رواية أخرى أنه أحرق المرتدين، وذكر ابن حجر، ما ذهب إليه أبو المظفر الإسفراييني من أنهم طائفة السبائية، وعلق على ذلك بأنه من الممكن أن يكون أبو المظفر يعتمد على الرواية التى أشرنا إلى أن ابن حجر وصف سندها بالحسن، وذهب ابن تيمية إلى أن الذين حرقهم على هم الذين قالوا له أنت إله، فأحرقهم عند باب مسجد بنى كندة بالكوفة، واعتمد فى ذلك على ما أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس[2] إلا أنه يذكر أن عبد الله بن سبأ نفاه علي إلى ساباط بالمدائن ونفى زميلا له يسمى عبد الله بن يسار إلى خازر[3]، وروى أبو جعفر بن شاهين (+٣٨٥/ ٩٩٥) بسنده عن الشعبى (+١٠٤/ ٧٢٣). وهو كما يقول ابن تيمية كوفى ومن أخبر الناس بالشيعة ـ أن عليا حرق جماعة من غلاة الشيعة ونفى بعضهم، ومن المنفيين عبد الله بن سبأ اليهودى الصنعانى، وعبد الله بن يسار، وروى هذا بطريق آخر عن الشعبى، ورواه ابن عاصم خشيش بن أصرم (+٢٥٤/ ٨٦٨) فى كتابه «الاستقامة» وعنه نقله أبو عمرو الطلنكى شخص آخر من المنفيين وهو أبو بكر الكردوسى[4] على أنه نفى إلى الجابية[5] وروى مثل هذا أبو القاسم الطبرى (+٣٦٠/ ٩٧٠) فى شرح أصول السنة بسنده عن عبدالرحمن بن مالك بن مغول[6] ولكن الأخير ضعيف عند أهل الحديث[7] وهو ثقة فى الرواية فحادثة الحرق ثابتة فى هذه المصادر، وخاصة صحيح البخارى؛ لأن أئمة الحديث يتحرون فى رواية الأخبار، ويشترطون شروطا لا يشترطها المؤرخون من غير أهل الحديث، ومنهجهم منهج علمى يعتمد على النقد التاريخى، ولكن الإشكال فى

---

(١) ن. م.، جـ ١٢ ص ٢٢٧.

(٢) ابن تيمية، مجموع الرسائل الكبرى جـ ١ ص ٢٥ منهاج السنة، جـ١ ص ٨٤.

(٣) نهر بين الإربل والموصل وعليه كوردة يقال لها نخلا يسمى أهلها الخازر ويصب فى دجلة (معجم البلدان).

(٤) ويذكره الملطى باسم «أبو الكردوس» التنبيه والرد، ص ١٥٦ ولعله هو الذى ذكره نصر بن مزاحم المنقرى باسم: كردوس بن هانى البكرى الذى كان من أشد أنصاره وهو الذى يتكلم بلسان قبيلته وبيعة (وقعة صفين ص ٥٥٤ وهو غير كردوسى، (خلف بن محمد الواسطى) المحدث الذى ذكره الذهبى (العبر جـ١ ص ٥٣) لأنه توفى سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧).

(٥) قرية من أعمال دمشق شمال حوران (معجم البلدان).

(٦) من أهل القرن الثانى الهجرى معاصر للشعبى (+١٠٤/ ٧٢٢). قال فيه النسائى غير ثقة، وقال أبو داود كذاب وقال أحمد والدارقطنى متروك (الذهبى ميزان الاعتدال القسم الثانى ص ٥٨٤).

(٧) ابن تيمية منهاج السنة جـ ١ ص ٦ ــ ٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعيين الطائفة التى أحرقت، وما ورد فى رواية عبد الرحمن بن مالك بن مغول فإنه وقع النص فيه على الرافضة، والواقع أن اصطلاح الرافضة لم يستحدث فى زمن الشعبى[1]، ولكن يمكن أن يكون الناقل للرواية راويا لكلام الشعبى بالمعنى، فاستبدل لفظ الشيعة أو السبائية بلفظ الرافضة التى عرفت فى زمنه، فالثابت على هذا الأساس إنما هو الحرق، أما التعبير فإنه يتغير بتغير الزمن، وبحدوث الاصطلاحات؛ لأن الأخبار والأحاديث تجوز روايتها بالمعنى، ويذكر ابن قتيبة أن عبد الله بن سبأ ادعى الألوهية لعلي فأحرق أصحابه بالنار[2]، أما الذهبى الخبير الناقد للأخبار ورواتها، فيتفق فى التعبير مع ما ورد فى البخارى فيقول فى عبد الله بن سبأ: (من غلاة الزنادقة ضال مضل، أحسب أن عليا حرقه بالنار[3] فهو يظن أن عليا حرقه أيضا، ولكن أغلب الروايات تقول بنفيه إلى المدائن وبحرق أصحابه، ويقرر ابن حجر أن الذين حرقهم هم الذين ادعوا فيه الألوهية[4] والواقع أن أحداث صدر الإسلام لا تزال غامضة تحتاج إلى دراسة، وهذا الغموض لا يسمح لنا بأن نصدر أحكاما قاطعة. فلعل ظهور بعض النصوص أو النقوش ينير لنا السبيل، ورغم هذا فإنه يحلو لبعض الناس أن يلغى وجود ابن سبأ بجرة قلم، أو أن يشكك فى وجوده دون مبرر واقعى، أو دليل قاطع. وهذه المحاولة لتبرئة اليهود من فتنة المسلمين تشبه كما قال الدكتور محمود قاسم محاولة أخرى فى عصرنا هذا، وهى تبرئة اليهود من دم المسيح، حيث أعلن المسيحيون ذلك فعلا حسب اعتقادهم فى قتل المسيح عليه السلام[5].

ظهرت آثار السبئية حتى فى الخروج على علي، فبعد تنفيذ مؤامرتهم فى قتل عثمان أخذوا فى إيقاد نار الفتنة من جديد، فابتدأت النزعة الخارجية على علي قبل حرب الجمل بقليل، وذلك أنه لما خطب وأعلن أنه مرتحل، وأمر بألا يرتحل معه أحد ممن أعان على قتل عثمان، اجتمع بسبب ذلك جماعة ومن بينهم ابن السوداء فتشاوروا وتبادلوا الآراء، فقال ابن السوداء: (إن عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون، فابصروا الرأى

(١) ن. م.، جـ ١ ص ٨. (٢) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص ٧٣.

(٣) ميزان الاعتدال القسم الثانى ٤٢٦.

(٤) ابن حجر، هدى السارى مقدمة فتح البارى ص ٣٣٨.

(٥) الدكتور محمود قاسم، دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٤٤ ــ ١٤٥. آراء الخوارج، د. عماد الطالبى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون)[1] ثم بعد هذا كله استتر ابن سبأ، ولم يرد أن يظهر على المسرح الذى هيأ له، وأعد له عدته، وحقق بعض الذى يريد، ولذلك فإننا لم نسمع عنه فى معركة صفين، ولم نر له ذكرا، حتى أن نصر بن مزاحم المنقرى لم يذكره فى كتابه وقعة صفين ولا مرة واحدة، كما لم يذكر عبدالله بن وهب الراسبى؛ لأن الأول استتر فى هذه الفترة، والثانى لم يظهر ويشتهر أمره، إلا بعد التحكيم، حيث تزعم حركة الخوارج بالمعنى الاصطلاحى النهائى للخروج، وليس معنى عدم ذكر نصر ابن مزاحم لعبد الله بن سبأ ولعبد الله بن وهب الراسبى أنهما لا وجود لهما؛ لأن المؤلف اختار لنفسه معركة واحدة وتحدث عنها ولم يشر إلى ما قبلها، ولا إلى الظروف التى جاءت بعدها، فهل معنى عدم ذكره لعبد الله بن وهب أنه لا وجود له؟ وليس من المستبعد أن يطلع علينا من ينكر وجوده، متذرعا بأنه غير مذكور عند بعض المؤرخين القدماء، وخاصة المنقرى؛ لأن كتابه يعتبر أقدم نص وصلنا عن معركة صفين.

٥ - أصول مبادئ السبئية:

وقد روى عن عامر بن شراحيل[2] الشعبى أن ابن سبأ قيل له: إن عليا قد قتل، فقال: إن جئتمونا بدماغه فى صورة لم نصدق موته، لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض[3] بحذافيرها.

وفى ذلك يقول الشاعر[4]:

برئت من الخوارج، لست منهم ... من الغزال منهم وابن باب

ومن قوم إذا ذكروا عليا ... يردون السلام على السحاب

وقالت السبئية أيضا بتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة[5] بعد على - رضى الله عنه - فالتناسخ مرتبط بالحلول. أظهر ابن سبأ هذا القول ونشره بين الناس فكان بذلك أصل الغلو فى الإسلام والأصل الذى تشعبت منه أصناف الغلاة[6]. والغلاة هم الذين غلوا

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٤٩٤.

(٢) هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل الهمدانى الكوفى، ولد فى خلافة عمر، وكان علامة التابعين، وهو أكبر شيوخ أبى حنيفة، توفى عام ١٠٤ هـ.

(٣) النوبختى: فرق الشيعة ص ٤٣ وما بعدها. أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ج١ ص ٤٢.

(٤) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ٨٨. البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ص ٥٩. (٦) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم عن حدود الخليقة والبشر. وحكموا فيهم بأحكام الإلهية فصارت لهم فرق مختلفة عديدة انشعبت كلها وانبثقت عن أقوال عبدالله بن سبأ. وكل فرق الغلاة متفقون على التناسخ والحلول. وقد يكون الحلول بجزء، وقد يكون الحلول بكل، فهو كظهور ملك بشخص، أو شيطان بحيوان. وللتناسخ مراتب منها: النسخ، والمسخ، والرسخ[1].

لم يكتف ابن سبأ بتأليه على ومبدأ الحلول والتناسخ بل نراه فى هذه الفترة عقب مقتل علي - رضى الله عنه - يتناول فكرة الرجعة أى رجعة الإنسان بعد الموت إلى الدنيا. وضع لهم رجعة على هذه المرة. لقد أكد ابن سبأ أن عليا حى لم يمت وأنه سينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها[2]. وسيرجع إلى الدنيا وينتقم من أعدائه[3]. أكد ابن سبأ عودة علي إلى الأرض ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا [4] وارتبطت بذلك فكرة المهدى المنتظر الذى تصوره السبئية فى علي دون غيره[5].

انتشرت تلك الأفكار انتشارا سريعا فى مشرق العالم الإسلامى وبخاصة بين الفرس وانتشر التشيع. وبذلك نجحت الحركة السبئية باعتبارها الرابطة التى تربط أبناء الأمة فإذا ضعفت تلك الرابطة سقطت تلك الأمة فى مهاوى الضعف.

انطلق عبدالله بن وهب بن سبأ زعيم الحركة اليهودية آنذاك من منطلقات ثلاث فقد أحدث فى هذه الأمة ثلاثة أمور كان لكل منها الأثر البالغ فى تفريق كلمتها، وتصديع وحدتها وتشعب أمرها وهى:

الأمر الأول: كان ابن سبأ أول من أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بن أبى طالب بالإمامة، فعلي وصىّ الرسول ﷺ وخليفته على الأمة من بعده بالنص يوم الغدير[6].

---

(١) تاريخ العرب العام ص ١٥٠ ل. أ سيريو. ترجمة عادل زعيتر.

(٢) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص١٧٤.

(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ٥٩.

(٦) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٩٦ وما بعدها، ص ٢٠٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمر الثانى: كان ابن سبأ أول من أحـدث القول برجعة النبى ﷺ بعد موته. ثم طور الفكرة بعد ذلك فـأحدث القول برجـعة[1] علي ـ رضى الله عنه ـ إلى الدنيا بعد موته. وما ارتبط بذلك من فكرة المهدى المنتظر.

الأمر الثالث: كان ابن سبأ أول من أحدث القول بأن عليا لم يقتل، وأنه لا يزال حيا، وأنه يسكن السحاب؛ لأن فـيه جزءا إلهيا[2] ، أى أن روح الإله تحل فى البشر. وما ترتـب على ذلك من القول بتناسخ الجـزء الإلهى فى الأئمة، أى أن الجـزء الإلهى يحل فى الأئمة[3] لذلك استحقوا الإمامة دون غيرهم.

والواقع أن أكثر هـذه القضايا مأخوذ عن الـيهودية[4] دين ابن سبـأ، والتى كان يعرفها قومـه يومئذ، بل إنه كان يستدل لمن يخدعهم على صحـة هذه القضايا ببعض ما عرف من أحوال موسى ـ عليه السلام ـ مع شىء من التمويه والتحريف[5].

تلك هى جهود السبئية فى خلافة علي، وهى جهود جبارة هدامة ضالعة فى المكر والخداع والتآمر. تشيع السـبئية لعلي وطالبوا بحقه فى الخلافـة. وبايعوا له بها وانضموا لرجاله وانضووا تحت لوائه، وكـان ذلك جزءا من المخطط. ثم مهدوا لإشـعال نار الفتنة واستغلوا كل موقف لصالحهم. حتى كانت معركة الجمل.

ثم تقربوا من علي ونشروا تلك الأفكار المنافية للعـقيدة، ولا شك أنهم استعانوا بيهود العراق وفارس فانتشر التشيع سريعا[6].

ومن الجدير بالذكـر أن ابن سبأ أول من أظهر القول بالنص بـإمامة علي ـ رضى الله عنه ـ ومنه انشعبت أصناف الغلاة[7] ، ومن المؤكد أن السبئـية بأقوالهم تلك، قد خرجـوا على العقـيدة. وفى ذلك يقول البـغدادى: «وهذه الفرقـة ليست من فـرق أمة الإسلام لتسميتهم إليها»[8].

---

(١) بطوشوفسكى: الإسلام فى إيران ص ١٨٩ ـ ١٩٠ (نقلا عن الطبرى).
(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة ص ٢١٥. وما بعدها.
(٣) جولدتسيهر: العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٩٦. وما بعدها، ص ٢٠٣.
(٤) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.
(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ١١.
(٦) السبئية د. نادية حسنى صقر النهضة المصرية.
(٧) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.
(٨) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أجمع المحققون من أهل السنة على أن ابن سبأ الملقب بابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته فى علي ثم فى أولاده من بعده، فابن سبأ قد أظهر وفاقا وأضمر نفاقا[1]

(١) المصدر السابق ص ٢٣٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

علي والحق الإلهي

إن ادعاء الشيعة على الإمام علي لم يكن بنظر أصحابه وشيعته مجرد طموح سياسي بل حق إلهي له وكان خصوم الشيعة يرون أن للتعاليم والدسائس الشخصية الخفية نسبيا في تاريخ الإسلام اليد الطولى في ظهور وجهة النظر هذه وانتشارها فقد ظهر منذ زمن خلافة عثمان داعية متنقل اسمه عبدالله بن سبأ، قطع البلاد الإسلامية طولا وعرضا «يريد إفساد المسلمين» كما يقول الطبري ويظهر حسب قول wrlhausen أنه كان يهوديا قبل أن يسلم وأصله من صنعاء اليمن وقد جاء الحجاز ومدينتي البصرة أو الكوفة الحديثتين ثم ذهب إلى بلاد الشام واستقر أخيرا في مصر وفي مصر قام بدور رئيسي في المؤامرة في سبيل علي وأعلن أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا عاصبيين[1] وكان الناقمون في خلافة عثمان يكاتبون ابن سبأ سرا وسار مع الركب الذي قدم المدينة من مصر قبل مقتل عثمان[2] ولا يشير ابن سعد إلا إلى كونه أحد القراء الذين صحبوا عليا[3]، ويذكر ميرخوند في روضة الصفا[4] إن الكاهن اليهودي جاء المدينة وأسلم وهو يأمل أن يكرمه عثمان ويحترمه فلما لم يحصل له ما أراد أخذ يتصل بالناقمين عليه وينكر على عثمان إدارته علنا، وبلغ عثمان خبره أخيرا فقال «ومن هذا اليهودي الذي أتحمل منه هذا؟» وأمر بنفيه من المدينة ثم ذهب إلى مصر وصار من المشاغبين العاملين ضد عثمان.

---

(١) عقيدة الشيعة دوايت دونلدس ص ٦

(٢) الطبري ج١ ص ٢٤٢، ٢ ص ٩٨ ودائرة المعارف الإسلامية مادة عبد الله بن سبأ

(٣) طبقات ابن سعد ج٤ ص ١٦٣ (٤) روضة الصفا ج٢ ص ٥٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من احتجاج ابن سبأ قوله: إن النصارى يقولون برجوع عيسى فينزل من السماء فإن قلنا: إن محمدا أعظم من عيسى وجب أن يرجع قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ... ﴿٨٥﴾﴾ [القصص].

ومن تعاليمه الأخرى مما كان له نفوذ مباشر قوله: إن لكل نبى وصى وإن عليا وصى محمدﷺ. وقد نصبه بنفسه وإن الناس لما لم يعملوا بأمر الرسولﷺ فقد ظلموا عليا ظلما فاحشا، فوجب عليهم جميعا أن يقروا بحق علي المنصوص عليه من الله، وأن يطيعوه طاعة مطلقة. وقد ذهب غلاة الشيعة إلى أبعد من ذلك فقالوا بألوهية علي نفسه، ويقال: إنهم أخذوا عقيدتهم عن ابن سبأ[1] الذى علمهم «أن روح الله حلت فى كل نبى وأنها تنتقل فيهم الواحد بعد الآخر وقد انتقلت بعد وفاة محمد إلى علي ثم أبنائه الذين انتقلت إليهم الإمامة».

فحدث من ذلك جدال كبير فى ما إذا نص الرسول ﷺ بالفعل على علي فى غدير خم أو لم يفعل، وهل توجد أقوال أخرى للرسولﷺ كان الواجب فهمها على أنها تعبر عن غايته فى نصب علي خليفة له. فقد وردت فى بعض كتب الحديث القديمة عند أهل السنة أحاديث يظهر أنها تؤيد[2] العلويين الذين رفضوا الحديث فى نظرية إجماع الأمة، فى قولهم هذا. ثم كيفوا فيما بعد أنفسهم حسب مقتضيات الظروف واعترفوا بالخلفاء القائمين وبايعوهم بالاسم مع احتفاظهم برأيهم فى أن أحد الفاطميين الأحياء هو بالحقيقة الخليفة أو إمام المسلمين.

وتدل كلمة الإمام: على من يؤتم به فى الصلاة، والإمامة منصب من مناصب الخلافة يحتفظ به الخليفة لنفسه. ولما أمر الرسول ﷺ فى مرضه الأخير أبا بكر أن يصلى بالناس اعتبر ذلك سندا قويا بيد الطاعنين بالقول فى النص على خلافة علي. فقالوا بأن كل نص محتمل سابق لعلي غير واقع. ولم يكن لعلي أن يؤم الناس والصلاة بهم مدة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان. وكان الخلفاء الثلاثة يكرمون منزلته ويحترمونه ويستشيرونه، وليس ثمة خبر موثوق يدل على أنه لما استخلف ادعى بسلطة روحانية أكثر مما كان لغيره من الخلفاء. وهو فى مركزه أحد أصحاب رسول الله ﷺ، انتخب للخلافة بعد عثمان بإجماع من كان حاضرا من الوجوه والرؤساء وغيرهم. وقد قتل فى أثناء جهوده للتغلب على ثورة شديدة واسعة النطاق ضد سلطته.

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى.

(٢) صحيح الترمذى ٣١: ٤٦، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٧٢ وما يليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال أحمد بن حنبل: «لم ترد رواية بفضل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بقدر ما ورد فى فضائل علي»[1] ووصفها بعضهم فى أنها كانت من الكثرة بحيث أثارت حسد بنى أمية وكرههم له. أما أمر اعتماد محمد ﷺ عليه اعتمادا خاصا، فيعترف به الجميع. ويذكر أصحابه أنه قضى صباه مع رسول الله ﷺ ولم يفارقه. وكان من أول من آمن به وربما كان أولهم بعد خديجة زوجة الرسول ﷺ. ويروى أن النبىﷺ عندما خرج إلى غزوة تبوك أبقاه فى المدينة وقال له: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟»[2].

وعلى كل حال، فإنه كهارون كان فى بعض الحالات إذا كلف ببعض الواجبات الإدارية الخطيرة كانت أجوبته تفصح عن شعور الشباب وتردد التواضع. فيروى عنه أنه قال: «بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا فقلت: يا رسول الله إنك تبعثنى إلى قوم شيوخ ذوى أسنان وإنى أخاف أن لا أصيب. فقال: إن الله سيثبت لسانك ويهدى قلبك»[3] وكان عمر نفسه يعتبرعليا أقضى أهل المدينة وأقرأهم للقرآن[4].

وقد سماه الحسن البصرى «بعالم الله فى هذه الأمة»[5] «وذكر الواقدى أنه كان عند ظهور الإسلام ستة أو سبعة نفر يعرفون القراءة والكتابة فى قريش قبيلة الرسولﷺ، منهم عمر وعثمان وعلي، ممن تولوا الخلافة بعدئذ. أما الرسول ﷺ فيقال إنه كان أميا، يكتب له أربعة ما يوحى إليه من القرآن، على ما يجدونه من العسب والرقاع وقطع الأديم والعظام. ومن الروايات التى يرويها المسلمون أن عليا آخر الخلفاء الراشدين كان يكتب الكاف الطويلة التى يمتاز بها الخط الكوفى بصورة مضبوطة يصعب حتى مع آلة القياس التفريق بين الكافات التى يكتبها»[6].

١ - صحيفة الجفر:

وتؤكد بعض الروايات أنه كان عند علي نسخة من القرآن جمعها ورتبها بنفسه وعلق

(١) مسند الإمام أحمد ١ ص ١٠٨، ١١٤، ١١٨، عقيدة الشيعة ص ٦١ دوايت دونلدس.

(٢) ابن حجر ج٢ ص ١، ١٢٨.

(٣) طبقات ابن سعد ٢ (٣) ص ١٠١.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة دى سلان ج ١ ص ٦٦٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٢ (٣) ص ١٠٢.

(٦) جولدتسيهر الباب الخامس الفصل ٣. ــ العقيدة والشريعة فى الإسلام ترجمة حسن عبد القادر وعبدالعزيز عبد الحق. د. محمد يوسف موسى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليها بعض الحواشى حسب ما كلم الرسول ﷺ به وهذه الحواشى التى على نسخته هى كما يظهر كل ما ادعاه علي مما أوحى للرسول ﷺ ولم يكن عنده غيره ولما كان لقضية حقيقة هذه الصحيفة التى كان علي يراجعها تأثير على اعتقاد الشيعة بوجود كتاب سرى يسمونه بالجفر[1]. فلا أرى مندوحة من ذكر بعض الأحاديث الواردة عن الموضوع فلنتذكر أولا أن كلمة الصحيفة تجمع على صحف وقد جاءت هذه الكلمة بصيغة الجمع فى ذكر «الصحف المائة التى أنزلت على آدم وشيث وإدريس وإبراهيم وموسى وأشار إليها القرآن فى سورة الأعلى «الآية ١٨، ١٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2]. وجاء فى باب العلم من البخارى حديث رواه عن أبى جُحَيْفَة قال: قلت لعلي: «هل عندكم كتاب؟ «قال» لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة»«قلت»«وما فى هذه الصحيفة ؟» قال. «العقل وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»[3] وأورد البخارى حديثا عن (إبراهيم) التميمى رواه مرتين[4] عن أبيه ذكر خطبة لعلى قال فيها: «ما عندنا شىء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة» ثم ذكر أن فيها التوصية بالجريح وما يفعل بالإبل المسنة وحدود حرم المدينة وهى بين عائر وكذا. «وذكر أحمد بن حنبل هذا الحديث عدة مرات» وقال: إن حدود حرم المدينة بين عائر وثور ثم أضاف على عن النبى ﷺ أنه قال: «من أحدث فيها (أى المدينة ـ المعرب) حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل»[5]

فإذا كان عمر على بين العاشرة والخامسة عشر عند أول إسلامه وأنه كان يعرف الكتابة كما تذكر الروايات، فليس ببعيد من أن يكون عنده قرآن علق هو حواشيه بما حدثه به الرسول ﷺ. وأن ما جاء فى هذه الحواشى قد بينته الروايات بصورة عامة، فهى عبارة عن بعض تفاصيل لأحكام وغيرها، لا غموض أو سر فيها ولا علاقة لها بما يدعيه الشيعة من الادعاءات المرتبة فى الأزمنة المتأخرة عن كتاب الجفر

ومن هذه الروايات المتأخرة ما ذكره الكلينى[6] فى أن «النبى ﷺ علم عليا بابا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة «جفر» بقلم D.B.Mcdonald

(٢) قاموس الإسلام تأليف Haghes

(٣) صحيح البخارى، فصل ٥٨ باب ١، ١٧

(٤) صحيح البخارى ج٣ ص ٣٩، مسند الطيالسى، طبعة حيدر أباد سنة ١٣٢١ هـ رقم ٩١

(٥) عقيدة الشيعة ص ٦٥ دوايت دونالدس

(٦) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٨١، ١١٩، ١٢٢، ١٢٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يفتح له منه ألف باب»[1] وأن طول هذه الصحيفة، وهى بخط علي سبعون ذراعا بذراع الرسول ﷺ و«فيها كل حرام وحلال وكل شيء يحتاج إليه الناس» وأن عنده الجفر و«فيه علم النبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل» ويذكر المسعودى أن الأئمة المتأخرين كانوا يشيرون إلى هذه الكتب التى يفترض أن عليا تركها لهم يتوارثونها صاغرا عن كابر[2].

والاعتقاد بوجود هذه الكتب المقدسة السرية عند الأئمة، ثابت. وتوسع الكتاب المتأخرون فى وصفها فذكر محمد باقر المجلسى فى القرن السابع عشر فى كتابه (حياة القلوب)[3] أنه لما دعا محمد ﷺ نصارى نجران فى اليمن إلى الإيمان بنبوته وأن عيسى قد بشر به، ذكر كتابا اسمه (الجامعة). ويقولون: إن فى هذه الجامعة صحف ١٢٤,٠٠٠ نبى. ففيه صحيفة آدم «عن ملكوت الله عز وجل وما خلقه وما قدره فى السموات والأرض، دنيا وآخرة.

وأورث أبو البشر هذا الكتاب الذى يحتوى على جميع العلوم ابنه شيث» فأضاف إليه شيث وأورثه إدريس، وكذلك صحف إبراهيم وموسى وعيسى حتى جاء خاتم النبيين محمد ﷺ.

وصنف المجلسى صاحب التآليف الكثيرة كتابا باللغة الفارسية عن حياة الأئمة وقد طبع بالحجر فى طهران سنة ١٩١٢. واسم هذا الكتاب (تذكرة الأئمة) ويذكر فيه أن الجفر الجامع كتاب اتفق العلماء على أنه كان عند علي وأن ما بقى منه اليوم هو ٢٨ فصلا كل منها من ٢٨ صفحة كل صفحة من ٢٨ جزءا. «ولا يعلم ما كتب فيها إلا الله والأئمة أو من علمهم إمام معصوم».

ويشير الكتاب نفسه إلى «الصحيفة» ويقول: إنها بإملاء الرسول ﷺ وخط علي، وطولها سبعون ذراعا وعرضها بعرض جلد الكبش. واسمها أيضا الجامعة وفيها كل حرام وحلال» وكتابان آخران أقل أهمية من الصحيفة أحدهما الجفر الأبيض وهو من أربعة عشر جزءا كل جزء من ١٤ قسما إلخ. ومصحف فاطمة، وأحاديث كثيرة تدل على أن الله أعطى آدم خمسة عشر حرفا من حروف الاسم الأعظم، ونوحا ثمانية

(١) أصول الكافى للكلينى ص ٨٥.
(٢) مروج الذهب للمسعودى ج٧ ص ٣٨٢.
(٣) حياة القلوب للمجلسى ج٢ ص ٣١٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإبراهيم ستة وموسى أربعة وعيسى اثنين وآصف بن برخيا حرفا واحدا وأعطى محمدﷺ اثنين وسبعين حرفا، فعلمها عليا[1]

٢ - الإمام علي والحق النصي:

غدير خم:

إن الشيعة يعلقون أهمية كبرى على الخبر الوارد بأن محمدا ﷺ عند عودته من حجة الوداع نزل مكانا يعرف بغدير خم، وفيه أعلن لمن كانوا معه رغبته فى نصب علي خليفة من بعده. وينقل ابن واضح اليعقوبى (المتوفى سنة ٨٩١ ب م) أنه قال لعلي فى غدير خم:

وخرج ﷺ ليلا منصرفا إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة وقام خطيبا وأخذ علي بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه[2]. (ثم قال) أيها الناس إننى فرطكم وأنتم واردون على الحوض وإنى سائلكم حين تردون علي عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفونى فيهما، قالوا. وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتى أهل بيتى[3].

وروى أيضا أن الرسول ﷺ عند انصرافه من غزوة الحديبية وقبل النزول بغدير خم بأربع سنوات كاملة ولثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة أيضا، قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[4] «وقد سميت غزوة الحديبية بصلح الحديبية وبمواعيد المشركين»[5] كما سميت آخر حجة للرسول ﷺ حجة الوداع، فى الحالتين يدل بوضوح على احتمال كون

---

(١) تذكرة الأئمة للمجلسى، طبع طهران ١٩١٢ ص ٥٦ وما يليها.

(٢) أورد الإمام أحمد بن حنبل الحديث عدة مرات فى مسنده الجزء الاول ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٣٣. (٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٥

(٤) قال المسعودى فى كتاب (التنبيه والإشراف) ص ٢٥٥، ١٨ وفى منصرفه ﷺ عن الحديبية قال لأمير المؤمنين ٧٨ على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بغدير خم (من كنت مولاه فعلى مولاه) وذلك فى اليوم الثامن من ذى الحجة. وغدير خم يقرب من الماء المعروف بالخرار بناحية الجحفة. وولد على وشيعته يعظمون هذا اليوم. انظر كذلك جولدتسيهر ج ٢ ص ١١٨

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج٥ ص ١٥٨. (٥) السابق ج٤ ص ١٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحدهما تكرارا للثانى. غير أن هناك ما يستدل به من تسلسل الحوادث سنة ٦ للهجرة لم يكن له ولد وكان حفيداه الحسن والحسين من علي وفاطمة لا يزالان طفلين عمر أولهما ثلاث سنوات وعمر الآخر أربع. ولا يمكن أن يخلفه حفيداه إلا إذا اعترف بعلي خلفا له، فإنه ليس من عادة العرب رد النسب إلى ابنته فاطمة[١].

ولا يغرب عن بالنا أن عليا لم يكن ابن عم الرسول ﷺ وصهره فحسب، بل إن أباه أبا طالب كفل محمدا ﷺ ورباه وحماه فلا غرو أن يرغب الرسول ﷺ فى أن ينظر المسلمون إلى علي نظرهم إلى المرجع الثانى فى الأهمية بعده.

ويقول ابن خلكان[٢]: (قلت) والثامن عشر من ذى الحجة هو عيد الغدير وهو غدير خم. وخم موضع بين مكة والمدينة به غدير أو بطيحة على قول بعضهم ويقال: إن رسول الله ﷺ لما عاد من مكة بعد حجة الوداع (١٠هـ) وقف فى خم وآخى علي ابن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وقال: علي منى كهارون من موسى، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

ويصف الملا محمد باقر المجلسى من علماء الشيعة الأعلام (المتوفى سنة ١٧٠٠م) خلاصة الحديث لما جرى فى غدير خم. قال:

لما انقضت مناسك الحج قفل النبى ﷺ راجعا من مكة إلى المدينة ومعه على ـ رضى الله عنه ـ والمسلمون. فلما بلغ غدير خم نزل هناك، وهو مكان لم يكن نزول المسافر متعارفا فيه. والسبب فى نزوله هناك ما أنزل عليه فى القرآن بلزوم نصب على ـ رضى الله عنه ـ خليفة من بعده. وقد أنزل عليه فى ذلك عدة مرات ولم يعين الوقت لتبليغ ذلك، وقد أخر خشية اعتراض الناس. ولو جاوز ذلك المكان، أى غدير خم لتفرق الناس وذهبت كل قبيلة ناحية.

فأمر محمد ﷺ الناس بالاجتماع ليقول لعلي ـ رضى الله عنه ـ ما يجب أن يبلغهم جميعا وقد أُنزل الله عليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة]. وكان لذلك الأمر بنصب علي ـ رضى الله عنه ـ خليفة أن نزل الرسول ﷺ ومن معه فى ذلك المكان.

---

(١) عقيدة الشيعة وهو كتاب عن تاريخ الإسلام فى إيران والعراق. دوايت.م. دونلدس تعريب ع.م. الخانجى.

(٢) ابن خلكان ج٣ ص ٣٨٣. وعقيدة الشيعة السابق ص ٢٥٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان الهواء فى غاية الحرارة والمكان مملوءا من الأشواك، حتى كان الرجل يضع الرداء تحت قدميه من شدة الرمضاء. وأمر الرسولﷺ أن ينصب له منبر من أقتاب الإبل، فلما نصب له واجتمع الناس ارتقى محمد ﷺ المنبر ودعا عليا إلى يمين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه أخبر الناس بدنو أجله قائلا: «ولقد دعيت إلى ربى وإنى مجيب، وإنى مغادركم من هذه الدنيا وإنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترة أهل بيتى، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض»ثم قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا «نعم» فأخذ بيد علي ـ رضى الله عنه ـ ورفعها حتى بان بياض إبطه وقال ﷺ:«من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

فلما نزل النبىﷺ من المنبر صلى صلاة الظهر ثم ذهب إلى خيمته وأمر بنصب خيمة بجانب خيمته لأمير المؤمنين. فجلس علي فى خيمته وأمر الرسول ﷺ الناس أن يبايعوه بالإمامة ويسلموا عليه بأمرة المؤمنين ففعلوا نساء ورجالا وسر عمر بذلك مثل غيره.[1]. ومن المهم أن نتذكر أن المؤرخ اليعقوبى (المتوفى سنة ٨٩١ م) كان متشيعا لآل علي، وقد صنف تاريخه قبل المجلسى بثمانمائة سنة وقبل أن تدون أحاديث الشيعة المتداولة اليوم بخمس وعشرين سنة على الأقل.

٣ - تصحيح الطبرى لرواية غدير خم:

وكان لتصحيح الطبرى حديث غدير خم الأثر الأكبر فى اتهامه بالرفض من قبل أعدائه، فالحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢) يقول: «وإنما نبذ بالتشيع؛ لأنه صحح حديث غدير خم»[2] على الرغم من مخافته للنتائج التى رتبتها الشيعة على هذا الحديث، ومن أهمها قولهم: إنه نص على تعيين الرسول ﷺ لعلي خليفة من بعده، وأمينا للوحى، وأخذ له البيعة بإمرة المؤمنين يوم الغدير[3]، وتأكيدهم أن تعيين علي كان من تمام الدين؛ إذ لم يتفرق الناس حتى نزل قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... (٣) ﴾

---

(١) حياة القلوب للمجلسى ج ٢ ص ٣٣٩ وتجد وصفا كاملا لمبايعة على عن غدير خم فى كتاب مطارح الأنظار باللغة الفارسية لمحمد صالح المازندرانى طبعة بمبى سنة١٢٨٧ هـ. ص ٩٢.

(٢) ابن حجر، لسان، ج٥ ص ١٠٠، TAYOB. The Case of Al- Taabari's,72-73

(٣) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية ص ٦٠، ٦١.

[المائدة]. ووضعوا على لسان الرسول ﷺ حديث «الله أكبر على تمام الدين، ورضا الرب برسالتى، وبالولاية لعلي من بعدى»[1].

أما الطبرى فأكد على أن أحق الناس بالخلافة بعد الرسول ﷺ وأولاهم بالإمامة هم أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبى طالب، وأن ترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الإمامة[2]، كما كفر الطبرى كل من قال بتكفير الصحابة من الشيعة والخوارج، وكان لا يقبل أخبارهم ولا شهاداتهم. وكان يدعو إلى قتل كل من قال: إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامى عدل وهدى[3]، كما كان لا يقبل رواية المتهم بالتشيع، ويعتبر التشيع طعنا فى عدالته[4]. يضاف إلى ذلك أن الطبرى صنف بعد رجوعه من بغداد إلى طبرستان عام ٢٩٠ هـ كتابا فى فضائل أبى بكر وعمر بعد أن وجد الرفض وسب أصحاب الرسول ﷺ منتشرا بين أهلها، ولاقى بتصنيفه هذا الكتاب المضايقة والتهديد من الروافض ومن حاكم طبرستان فهرب منها[5]. ولم يتعرض الطبرى لحديث الغدير ولا لإمامة علي عند تفسيره لآية كمال الدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة]، إذ أثبت بسند صحيح أن هذه الآية نزلت فى عرفة خلافا للشيعة الذين قالوا إنها نزلت فى غدير خم[6]. وخالفهم كذلك فى مقصود هذه الآية؛ إذ بين أنها نزلت لتبين للناس أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أكمل لهم دينهم بإفرادهم البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه[7]، خلافا للشيعة الذين زعموا كما مر سابقا أنها نزلت لتبين للناس أن الدين اكتمل بوصية الرسول ﷺ بالإمامة من بعده لعلي[8].

فهدف الطبرى من تصحيح حديث خم لم يكن إلا الاحتجاج به على صحة إثبات الخلافة لعلى كما يفعل الشيعة، وتبيان فضائله، والرد على منتقديه تمشيا مع تقديره واحترامه للصحابة والتابعين ومن تبعهم، والوقوف فى وجه من يحط من قدرهم

---

(١) الطوسى، مجمع البيان، ج٣ ص ٢٤٦، السيوطى الدر المنثور ج٣ ص ١٦، ٢٧.
(٢) الطبرى، صريح السنة، ص ٢٤.
(٣) الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج٢ ص ٧١٢.
(٤) الطبرى، المنتخب من ذيل المذيل ضمن كتاب تاريخ الرسل، ج١١، ص ٦٤٦، ٦٦٦.
(٥) الحموى، معجم الأدباء، ج٦ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦.
(٦) الطبرى، جامع البيان، ج٦ ص ٧٩.
(٧) ن.م. ج٦، ص ٨٠.
(٨) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية ص ٦٠، ٦١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودورهم فى انتصار الإسلام[1]. فليس غريبا أن يتجاهل فى تاريخه حديث الغدير؛ إذ رفض أن يستخدم كدليل وغطاء شرعى قدمه الرسول ﷺ لعلي لإثبات عدالة مواقفه وتحركاته ضد أعدائه.

تعقيب:

تذهب الشيعة وفق ما قدمناه إلى أن الإمام علي هو الأولى بالخلافة أو الإمامة من أبى بكر وعمر وعثمان، ولا نشك فى شخصية الإمام علي ففضائله لا تعد ولا تحصى شجاعة ورجاحة عقل وسعة فى العلم وتقوى وورع. وفهما للدين وللرسول ﷺ وإدارة للمعارك ففضله على صفحة التاريخ مشهود.

أما حديث «غدير خم» فلا اعتراض لنا عليه لا سندا ولا متنا ـ فهو مسلّم به من حيث زمانه ومكانه. وشخصية الرسول ﷺوهو المتحدث. وشخصية الإمام وهو المتلقى منه. وفحوى خطابه أوصى بالثقلين، وهما كما أجاب الرسول ﷺ على سؤال: ما الثقلان؟ فقال الرسولﷺ: الثقل الأكبر وهو كتاب الله سبب طرفه بيد الله. وطرف بأيديكم فاستمسكوا به.

والثانى: عترتى أهل بيتى.

يجتهد الملا محمد باقر المجلسى فى توضيح سبب نزول الرسولﷺ بغدير خم أنه أراد أن يعلن نصب علي... وهذا ما تؤكد عليه الشيعة وما تبغيه من حديث غدير خم. وهو أن تنصيب الإمام ـ الإمام علي ـ من تمام الدين، ورضا الرب برسالتى، وبالولاية لعلي من بعدى.

لكن الطبرى له موقف آخر من الحديث والخلافة، فأما الحديث فهو فى رأيه صحيح، وصحته ـ فى نظره ـ لا تلغى أحقية أبى بكر فعمر، فعثمان فعلي فى صحة الخلافة. وأن ترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة أو الإمامة. وكفر الطبرى كل من قال بتكفير الصحابة من الشيعة والخوارج.. ولعدم تحديد مفهوم الشيعة الغالية من الشيعة المعتدلة ـ إلا مؤخرا ـ كان التشيع فى نظر الطبرى تهمة تطعن فى عدالة الرجل، وحين شاع الرفض وسب الصحابة ـ ألف كتابه فى فضائل أبى بكر وعمر. وبسبب تأليفه لقى من الشيعة الرافضة ما لقى من الاضطهاد والتهديد. ونشايع الطبرى فيما ذهب إليه.

(١) محمد المخزون. تحقيق مواقف الصحابة، ص ١٩٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ - حديث الصحيفة:

ولما توفى ﷺ قال الناس: ما كنا نظن أن رسول الله ﷺ يموت حتى يظهر على الأرض، وخرج عمر فقال: والله ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت وإنما تغيب كما غاب موسى أربعين ليلة ثم يعود والله ليقطعن أيدى القوم وأرجلهم، وقال أبو بكر: بل نعاه الله إلينا فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر] فقال عمر: والله لكأنى ما قرأتها قط، ثم قال: لعمرى لقد أيقنت أنك ميت ولكنما أبدى الذى قلته الجزع.

«ولم يخلف ﷺ من الولد إلا فاطمة وتوفيت بعده بأربعين ليلة وقال قوم بسبعين ليلة. وقال آخرون: ثلاثين ليلة. وقال آخرون: ستة أشهر»[1] وجاء فى حديث رواه كل من مسلم والبخارى أن رسول الله ﷺ لما دنت وفاته كان عنده فى البيت عدة رجال بينهم عمر بن الخطاب فقال النبى: «إيتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا» فقال عمر: «إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله» واختلف الحضور، منهم من قال قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال النبى ﷺ لهم: «قوموا، ما ينبغى أن يكون بين يدى النبى ﷺ خلاف».

وروى عبد الله أن ابن عباس كان يقول: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم».

وهناك حديث آخر تجدر ملاحظته بصورة خاصة لعلاقته بمعتقدات الشيعة فيما بعد بالأئمة، وهو ما روته عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ عندما كان صحيحا يقول: «إن كل نبى يخير قبل موته، بين هذه الدنيا والآخرة» فلما أضعفه المرض كان يردد (مع النبيين والصديقين والشهداء الذين ارتضيت) وردد (بل الرفيق الأعلى) فعلمت أنه قد خير فاختار[2].

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٥، البخارى، الفصل ٦٣ رقم ١١ طبقات ابن سعد ٢ (٢) ص ٤٢. (٢) البخارى الفصل ٣ رقم ٣٩، الفصل ٥٨ رقم ٦ الفصل ٦٤ رقم ٨٣ الفصل ٧٥ رقم ١٧ الفصل ٦٩ رقم ٢٦، انظر كذلك مسلم فصل ٢٥ رقم ٢٢، ابن سعد ٢(٢) ٦م وما يليه وأحمد بن حنبل ج (١) ٢٣٢، ٢٩٣، ٣٢٤.

(٢) البخارى ف ٦٤، ٨٤، الترمذى ف ٤٦، ١٥ ابن سعد ج٢ (٢) ٩، ٢٥، ٦٠ أحمد بن حنبل ج(١) ٢٦٧. انظر كتاب روضة الصفا لميرخوند ج٢ ص ١٧٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذى عليه الجمهور أن محمدا ﷺ مات بين ذراعى عائشة كما جاء فى حديث مروى عنها. وقد أورده صاحب كتاب مشكاة المصابيح، فقد أراد الرسول ﷺ أن يستاك بضريع الأراك فأخذته عائشة فليّنته له ثم ناولته إياه فاستن به وقال: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» ثم رفع يده وقال: «اللهم اغفر لى واجعلنى مع الرفيق الأعلى» وهبطت يده وقبض ﷺ.

تعقيب وتحقيق:

أما حديث الصحيفة: فهو لا يعطى تفسيرا لأحقية الإمام علي فى الخلافة ووفق نصه أنه لما دنت وفاته ﷺ كان عنده فى البيت عدة رجال بينهم عمر بن الخطاب فقال النبى ﷺ: إيتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى أبدا. فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله... واختلف الحضور... فنصه يفيد أن الرسول ﷺ يكتب أو يملى فيها مزيدا من الشرح لكتاب الله وهو عاصم لكم من الضلال لو تمسكنا به.

لكن الصحابة رأوا معالجة الرسول ﷺ لوجعه قد أشغلته عن إمام ما طلبه منهم وليس فيه ما يبرر للشيعة أن تأخذ موقفا من أبى بكر وعمر والصحابة حين أجلوا طلب الرسول ﷺ إلى أن يهدأ وجعه.

ينقل ابن أبى الحديد عن النقيب أبى جعفر: لما كان أكثر الناس موتورين فى الدنيا إذ المستحقون أكثرهم محرومون بينما الحمقى والجهلاء حظهم من الدنيا عظيم تدر عليهم الخيرات. بل إن ذوى الفضل والاستحقاق غالبا ما تضطرهم الدنيا إلى الذل والخضوع إلى هؤلاء لضررهم أو استجلابا لنفعهم، ولما كان علي مستحقا محروما بل هو أمير المستحقين المحرومين وسيدهم وكبيرهم، فإن الذين ينالهم الضيم وتلحقهم المذلة بتعصب بعضهم لبعض ويكونون يدا واحدة على الذين استأثروا بالدنيا ونالوا مآربهم، فما بالك إذا كان من هؤلاء المحرومين رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل محتو على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم قد جرعته الدنيا علاقمها، وعلا عليه من هو دونه وحكم فيه وفى بيته وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ولا دائر فى خلده.... ولا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه أهلا له، ثم كان فى آخر الأمر أن قتل ذلك الرجل الجليل وقتل بنوه من بعده... وسبى حريمه ونساؤه وتتبع أهله وبنوه بالقتل والطرد والتشريد والسجون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وانتفاع الخلق بهم، فهل يمكن أن لا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص وهل تستطيع القلوب أن لا تحبه وتهواه وتذوب فيه وتتغنى فى عشقه انتصارا له وحمية من أجله وامتعاضا مما ناله[1].

إن تحليل النقيب الذى نقله ابن أبى الحديد يشرح موقع الإمام علي وبنيه من التاريخ ولماذا تحرك به التاريخ وفق مفهوم بشرى إذا لم يتيسر لقارئ التاريخ أن يعيش فى النصوص الدينية التى ترفع تميزه أو يعطى قارؤها فهما لها، فإذا لم يكن ذلك متيسرا فتلك مآسيه على وجه التاريخ أحصاها الأصفهانى فى كتابه (مقاتل الطالبيين) نتبين منها عظمة التضحية فى سبيل المبدأ وتحرير الجماعة من ربق الشهوات. حكى البلاذرى على لسان الإمام علي: ما لقى أحد من هذه الأمة ما لقيت، توفى رسول الله ﷺ وأنا أحق الناس بهذا الأمر فبايع الناس أبا بكر، فاستخلف عمر فبايعت ورحبت وسلمت، ثم بايع الناس عثمان فبايعت وسلمت ورضيت، وهم الآن يميلون بينى وبين معاوية».

من هنا كان تحليل النقيب أبى جعفر له مكانة فى فلسفة التاريخ. رحم الله الإمام وبنيه وليس بعد قول الله تعالى تقدير:

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ۝٥ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ۝٧ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ۝٢٢ ﴾ [الإنسان]، أنها نزلت فى علي وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ بمناسبة قصة صيامهم ثلاثة أيام وتصدقهم خلال تلك الأيام الثلاثة على المسكين واليتيم والأسير[2].

بعد ما سبق تمخض التحكيم عن تغير اجتماعى وسياسى وديني وكان من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين: أهل السنة، والشيعة، وكان لأهل البيت فريق يعترف سرا بحقوقهم، حتى فى عهد الخلفاء الثلاثة الأولين، ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام.

وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من هم من غير أبناء على، وكانت هذه المعارضة موجهة أول الأمر إلى الأمويين، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوافر فيهم

(١) ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة مجلد ٢ ج ١٠ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٧٠: تفسير القرطبى ١٩ / ١٢٣٠ أسباب النزول للواحدى / ٢٥١، روح المعانى للآلوسى ٢٩ / ١٥٧، أسد الغابة ٥ / ٥٣٠ ـ ٥٣١، تفسير النسفى ٤/ ٣١٨، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١/ ٢١ و١٣ / ٢٧٦، الغدير للأمينى ٣/ ١٠٧ ـ ١١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشروط التى يوجهها الشيعة فى الإمام، وهم حين يبينون وجوه النقص فى هؤلاء الحكام يقررون الحقوق الشرعية لأبناء النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممثلة فى ذرية علي وفاطمة، وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين بأنهم مغتصبون ظالمون، فكذلك عارضوا النظام السياسى فى الدولة الإسلامية سرا وجهرا فى كل العصور[1].

ويذهب محمد باقر الصدر فى كتابه: بحث حول الولاية[2] إلى أن الإمام عليا هو الأحق بالخلافة نصا. ويرى: أن الشواهد على ذلك من حياة النبى ﷺ والإمام علي على أن النبى ﷺ كان يعد الإمام إعدادا رساليا خاصا، كثيرة جدا، فقد كان النبى ﷺ يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها، ويبدؤه بالعطاء الفكرى والتثقيف، إذا استنفد الإمام أسئلته. ويختلى به الساعات الطوال فى الليل والنهار، ويفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم فى حياته.

ـ روى الحاكم فى المستدرك بسنده عن أبى إسحاق، سألت القاسم بن العباس. كيف ورث على رسول الله؟ قال: لأنه كان أولنا به لحوقا وأشدنا به لزوقا.

وفى حلية الأولياء، عن ابن عباس أنه كان يقول: كنا نتحدث أن النبى ﷺ عهد إلى علي سبعين عهدا لم يعهد إلى غيره.

وإذا كانت الشواهد كثيرة على أن النبى ﷺ يعد الإمام إعدادا خاصا لمواصلة قيادة الدعوة من بعده، فالشواهد على إعلان الرسول القائد على تخطيطه هذا وإسناد زعامة الدعوة الفكرية والسياسية رسميا إلى الإمام علي ـ عليه السلام ـ لا تقل عنها كثرة، كما نلاحظ ذلك فى «حديث الدار» و«حديث الثقلين» و«حديث المنزل» و«حديث الغدير» وعشرات النصوص.

وقد أدت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها فى صورة تغلب عليها الصبغة الدينية، على حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الإنسانية، فإنهم يقولون: إن الرئيس الشرعى الوحيد من الناحية الروحية والزمنية هو الإمام المعصوم الذى يعين تعيينا، ويكون من أبناء النبى ﷺ[3].

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٣٤٠ ج١ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

(٢) بحث حول الولاية ص ٦٤ محمد باقر الصدر.

(٣) وفى صفحة ٢٣٠ تكلم جولدتسيهر عن الفرق الأساسى بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأوجب أهل السنة تنصيب الخليفة تنفيذا لأحكام الشريعة وفروضها، وحماية لحدود بلاد الإسلام والدفاع عنها، والإشراف على تعبئة الجيوش، وأخذ ما فرض على المسلمين في أموالهم، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل، وغير ذلك من المهام، وبالاختصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائية والإدارية والحربية، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالانتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياساتهم، ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين.

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم، بفضل ما وهبه الله من الصفات، وبحكم وراثته للنبي ﷺ، وهو يحكم ويعلم متلقيا ذلك عن الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة، فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة، وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان. ويزعم الشيعة أن وراثة الإمامة تنقلت من آدم، حتى انتهت إلى عبد المطلب جد النبي ﷺ وجد علي - رضى الله عنه - ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ﷺ، والآخر إلى أخيه (أبو طالب) والد علي، ثم سار النور من علي إلى ذريته. وهذا النور الذى فى روح الإمام يجعله إمام عصره، ويجعل له قوى روحانية تجاوز حدود القدرة الإنسانية، وروح الإمام أنقى من أرواح سائر الناس؛ لأنه مبرأ من بواعث الشر متحل بالفضائل الإلهية وهذه صفات الإمام عند المعتدلين من الشيعة، أما الغلاة منهم فهم يرفعون الإمام إلى الأفق الإلهى[1].

٥ - أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة:

يذهب بعض الناس إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن، وأن الشيعة، فليس من بينهم من ينكر السنة، بل هم يقرون بالسنة التى حملها أهل البيت، ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون فى أخذ السنة على الصحابة الغاصبين. وثم أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة، والتى تؤيد الشيعة المتشددين الذين يعتمدون على أحاديث البخارى ومسلم، ويقرؤونها أيام الجمع، ونستطيع معرفة شأن السنة عندهم من أن كثيرا من قول علي فى القرآن والسنة يؤخذ مما رواه الشيعة عن علي، فاحترام السنة من مستلزمات مذهب أهل السنة والشيعة على السواء، ومما يدل أيضا

(١) فى ص ٢٥٤ وما بعدها ينبه جولدتسيهر على أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على اعتداد الشيعة بالسنة النبوية أنهم كتبوا الكثير فى السنة وما يتعلق بها، وأنهم وضعوا أحاديث كثيرة وأذاعوها، فالشيعة لا يعارضون أهل السنة بصفتهم منكرين للسنة، بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتازون على العامة الغارقين فى بحار العمى والضلال.

وكان الحمدانيون أول أسرة تدخلت فى أمور بغداد، وكان هذا التدخل مثيرا للعجب؛ ذلك أن ابن حمدان على شدة تشيعه وميله إلى علي وأهل بيته سعى فى البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علي وغلوه فى النصب[1]. ولكن الأحوال تغيرت لما استولى الديلم على بغداد، وكانوا قد دخلوا فى الإسلام حديثا على يد أحد العلويين، فلم يكد معز الدولة يدخل بغداد حتى قبض على الخليفة المستكفى وأنزله عن عرشه على صورة مهينة. وكان من الأسباب الظاهرة فى ذلك أن المستكفى كان قد قبض على الشافعي رئيس الشيعة[2]. وفى سنة ٣٤٩هـ - ٩٦٠م قامت فتنة بين العامة ببغداد، وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصال الفتن، ولم تقم الجمعة إلا فى مسجد براثا الشيعي[3]. وفى عام ٣٥١ هـ كتب معز الدولة على المساجد لعن الصحابة، فمحاه الناس أثناء الليل[4]. وفى العام التالى أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء، وهو أكبر عيد للشيعة، وأن يظهروا الحزن. فأغلقت الأسواق وعطل البيع والشراء، ولم يذبح القصابون، ولا طبخ الهراسون، ولا ترك الناس أن يستقوا الماء، ونصبت القباب فى الأسواق، وعلقت عليها المسوح، وخرجت النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهن يدرن فى البلد وينحن ويلطمن وجوههن على الحسين - رضى الله عنه -. وفى هذا اليوم كان يزار قبر الحسين بكربلاء[5]. ويصف البيرونى ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح فى يوم عاشوراء، وما كان يظهره الشيعة من حزن، ثم يقول:

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣.

(٢) مسكويه ج٦ ص ١٢٣.

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٨٩، وأبو المحاسن طبعة ليدن ج٢ ص ٣٥١، وابن الأثير ج٨ ص ٣٩٧.

(٤) انظر ما تقدم.

(٥) المنتظم ص ٩٣ ب، وكتاب الوزراء ص ٣٧١، وابن الأثير ج٨ ص ٤٠٣، ٤٠٧، وأبو المحاسن ج٢ ص ٣٦٤. ولا نجد قط ذكرا لروايات ألفت لتمجيد الشهداء كالتى نراها اليوم عادة، على أنه من العبارات التى تشيع أن يكون أصلها من قصة تمثيلية قول السيدة سكينة بنت الحسين - رضى الله عنها: «كنت أحسن من السماء وأعذب من الماء» (رسائل الخوارزمى طبعة القسطنطينية ١٢٩٧ ص ٣٧)، (وليس فى هذا دليل مقبول. المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ولذلك كره فيه تجديد الأوانى والثياب»[1]. وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خم)، فاحتفل به الشيعة ببغداد، وزعموا أنه اليوم الذى عهد فيه الرسول ﷺ إلى علي بن أبى طالب واستخلفه[2]، وفيه أظهروا السرور بأمر معز الدولة، على خلاف صنيعهم فى يوم عاشوراء، فنصبوا القباب وعلقوا الثياب، وأظهروا الزينة. وفى ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة، وضربت الدبادب والبوقات، وفى صبيحته نحروا جملا وبكروا إلى مقابر قريش[3]. أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور، «فلبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا يوم عاشوراء وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم فى العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقى فيهم بعد زواله عنهم». وقد حاول أهل الحديث أن يظهروا فضل يوم عاشوراء فذكروا ما روى عن النبى ﷺ من الحض على فعل الخير فيه[4]. وكانوا يزعمون أن «الاكتحال فيه مانع من الرمد فى تلك السنة»[5]؛ ولذلك يقول القمى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ ـ ٩٦٦م) مشددا فيمن يفرح بيوم عاشوراء: «من ترك السعى فى يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه يجعل الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة فرحه وسروره... ومن سمى يوم عاشوراء يوم بركة وادخر بمنزله شيئا لم يبارك له فيما ادخر، وحشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار»[6]. ولما زالت الدولة الفاطمية وجاء ملوك بنى أيوب انخذوا يوم عاشوراء، بعد أن كان يوم حزن، يوم سرور، جريا على عادة أهل الشام[7]. ثم إن أهل السنة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء، فجعلوا بعده بثمانية أيام يوما نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزاروا قبره فى مسكن، كما يزار قبر الحسين بكربلاء[8]. وكذلك عملوا بإزاء

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى طبعة أوروبا ص ٣٢٩.

(٢) المنتظم ص ٩٣ ب، وابن الأثير ج٨ ص ٤٠٧، وكتاب الوزراء ص ٣٧١، وقد اخطأ أبو المحاسن (ج٢ ص ٤٢٧) بجعله ذلك عام ٣٦٠ هـ.

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٧١، والمنتظم ص ٩٣، وابن الأثير ج٨ ص ٤٠٧.

(٤) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٢٩.

(٥) عجائب المخلوقات للقزوينى، طبعة عام ١٨٤٩ ص ٦٨.

(٦) كتاب العلل للقمى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ب.

(٧) الخطط للمقريزى ج١ ص ٤٩٠.

(٨) كتاب الوزراء ص ٣٧١، وكذلك عرف ياقوت هذه الأماكن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوم الغدير بعده بثمانية أيام يوما ادعوا أنه اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ وأبو بكر - رضى الله عنه - فى الغار، وعملوا فى هذا اليوم ما يعمله الشيعة فى يوم الغدير. وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك فى يوم الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة عام ٣٨٩هـ - ٩٩٩م[١]. وفى هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من شغب وفتن بين الفريقين، حتى كان الحكام الأقوياء يمنعون من عملها أحيانا[٢]. وقد حدث مرة فى فتنة بين أهل السنة والشيعة بأن الشيعة صاحوا: حاكم يا منصور، إشارة إلى العدو المقيم بالقاهرة، وقد بلغ الخليفة ذلك، فأحفظه، وأنفذ الحراس الذين على بابه لمعاونة أهل السنة، فهزموا الشيعة، ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة، فسألوه العفو عما فعله السفهاء فعفا عنهم[٣]. وفى عام ٤٢٠هـ - ١٠٢٩م كان خطيب مسجد براثا، وكان شيعيا، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة ويغلو فى علي، فأمر الخليفة بالقبض عليه، وعين محله خطيبا آخر، فلما صعد المنبر دقه بعقب سيفه على ما جرت به العادة، والشيعة ينكرون هذا، وقصر فى الخطبة عما كان يفعله من تقدمه فى ذكر علي بن أبى طالب، وقال: اللهم اغفر للمسلمين، ومن زعم أن عليا مولاه، فرماه العامة حينئذ بالآجر، فوافاه كالمطر، وخلع كتفه، وكسر أنفه، وأدمى وجهه، وعرف الخليفة ذلك فغاظه وأحفظه، وكتب فى الشيعة كتابا شديدا للوزير، وفى آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ، وتوجهوا مع الشريف المرتضى إلى دار الخليفة، فأحالوا ما جرى على سفهاء الأحداث، وسألوا الصفح عن هذه الجناية، وطلبوا إقامة خطيب عملت له نسخة يعتمدها فيما يخطب، وتجنب ما يحفظ الشيعة[٤]. ومما كان له شأن فى ثورات الشيعة المفاجئة فى القرن الرابع الهجرى أن مشهديهما الكبيرين المقدسين عندهم كانا بالعراق. على أن موضع قبر علي كان موضع شك، وقد بين ذلك المسعودى.

٦ - التشيع السياسى والروحى:

أما التشيع السياسى أو النصرة والأتباع لعلي دون الالتزام بالنص على إمامته الدينية فقد أصبح فى خلافته منتشرا بصورة واسعة، ثم أخذ يتقلص فى آخر عهده وفى

---

(١) المنتظم ص ١٤٣ أ - ١٤٤ ب، وكتاب الوزراء ص ٣٧١.

(٢) فعل ذلك أبو الحسن المعلم عام ٣٨٢ هـ (المنتظم ص ١٣٤ أ) وعميد الجيوش عامى ٣٩٢هـ - ٤٠٦ هـ (كتاب الوزراء ص ٤٨٢ - ٤٨٣، والمنتظم ص ١٤٧ ب، وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٤).

(٣) المنتظم ص ١٥٢ب.

(٤) نفس المصدر ص ١٧٨ أ - ١٧٩ ب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفترة التى تلت مقتله، ولكنه ما لبث أن استعاد شيئا من قوته وبخاصة فى العراق لاسيما بعد أن شعر العراقيون بفقد سيادتهم السياسية على يد الأمويين. إن انقسام التشيع إلى سياسى وروحى - وإن كان نظريا - إلا أننا نرى ضيق الفجوة بين القائلين بالنص والقائلين بالنصرة حبا للإمام علي؛ لأن التشيع السياسى لا يرى فيه بعض الشيعة أنه لا يحتاج إلى نص، أما التشيع الروحى لشخص علي كما يرى الشيعة فهو المقصود وعليه يدور النص. ثم مع انقسام الشيعة إلى إمامية وغالية وروافض وزيدية أصبح التشيع وحدة واحدة وشملهما تفسير النص. وهذا ما جعل الزيدية تحافظ على الفوارق بينها وبينهما ففضل علي حق كما هو حبه مع إجازة ولاية المفضول؛ إذ لا نص على ذلك.

ويرى د. فياض أن ثمة نوعين من التشيع، مرتبا فرقا زمنيا بينهما، وهما وفق قوله:

١ - كان التشيع الروحى أقدم عهدا من التشيع السياسى، وأنه يقوم على الاعتقاد بإمامة علي المفروضة من الله. وقد تطور الاعتقاد المذكور ثم تبلور فى عقيدة الإمامة المعصومة من الخطأ بعد أن أسند بالحجج الكلامية بقضية القول بالنص على تلك الإمامة من النبيﷺ وبأمر من الله.

٢ - ظهرت بوادر التشيع السياسى أو الولاء لعلي دون الالتزام بقضية الاعتراف بإمامته الدينية فى سقيفة بنى ساعدة حين أيد حق علي بالخلافة عدد من المسلمين أمثال الزبير والعباس وغيرهما. وبلغ التشيع السياسى أقصى مداه حين بويع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان. وسبقت مناقشته.

٧ - الإمامية من أولاد فاطمة:

أما الشيعة أسلاف الإمامية فإنهم انتهوا إلى القول بإمامة على بن الحسين (ت: ٩٤هـ) وعلى هذا هو الوحيد الأحق فى نظر الشيخ المفيد الإمامى الذى ساق الأدلة على بطلان أئمة الشيعة الآخرين المعاصرين لذلك الإمام كما بينا ذلك قبل قليل. قال النوبختى: «وأما الشيعة العلوية الذين قالوا بفرض الإمامة لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - من الله ومن رسول الله ﷺ فإنهم ثبتوا على إمامته ثم إمامة الحسن من بعده ثم إمامة الحسين بعد الحسن. ثم افترقوا بعد قتل الحسين - رضى الله عنه - فرقا، فنزلت فرقة إلى القول بإمامة علي بن الحسين.. فلم تزل مقيمة على إمامته حتى توفى بالمدينة.. فى أول سنة أربع وتسعين»[1]، أما الفرقة الأخرى فقد قالت بانقطاع الإمامة

(١) فرق الشيعة، ص ٤٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد الحسين وأنه لا إمامة لأحد بعده. وفرقة قالت: «إن الإمامة صارت بعد مضى الحسين فى ولد الحسن والحسين...»[1].

ويترتب على ذلك أن فرق الشيعة عند وفاة علي بن الحسين (٩٤هـ) تنحصر فى الفرق التالية:

أ ـ الكيسانية.

ب ـ الجماعة الشيعية القائلة بانقطاع الإمامة بعد موت الحسين.

جـ ـ الفرقة القائلة بإمامة علي بن الحسين.

وبعد وفاة على بن الحسين ساق جماعة من الشيعة الإمامة إلى ابنه زيد وعرف هؤلاء بالزيدية وهم الذين «ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت الإمامة فى غيرهم. إلا أن يكون كل فاطمى عالما زاهدا شجاعا، سخيا خرج بالإمامة أن يكون إماما واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين[2].

وهناك جماعة أخرى من الشيعة استمرت على سوق الإمامة فى أولاد الحسين وبذا احتفظت بسلسلة الأئمة التى تبنتها جماعة الشيعة التى سميت بالإمامية فيما بعد. يقول النوبختى: «وأما الذين أثبتوا الإمامة لعلي بن أبى طالب ثم للحسن ثم للحسين ثم لعلي بن الحسين. ثم نزلوا إلى القول بإمامة أبى جعفر فمحمد بن علي بن الحسين باقر العلم فأقاموا على إمامته إلى أن توفى. ولما كانت وفاة الباقر سنة ١١٤ أو ١١٩هـ ترتب على ذلك أن الشيعة الذين اعترفوا بإمامة الباقر بعد أبيه علي زين العابدين لم يطلق عليهم اسم «الإمامية» ونظر1 لاعتراف هؤلاء الشيعة بسلسلة الأئمة التى تبناها الإمامية حين تسموا بهذا الاسم فيما بعد، كما ستبين، صح أن نطلق عليهم أسلاف الإمامية.

يقول الشيخ المفيد:

فأما السمة للمذهب بالإمامة ووصف الفرق من الشيعة بالإمامة فهو علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها فى كل زمان، وأوجب النص الجلى والعصمة والكمال لكل إمام، ثم حصر الإمامة فى ولد الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ وساقها

---

(١) السابق. ص ٤٨.

(٢) الشهرستانى، الملل والنحل (القاهرة، ١٩٤٨) ص ٣٠٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى الرضا علي بن موسى - عليهما السلام - لأنه وإن كان فى الأصل علما على من دان من الأصول بما ذكرناه دون التخصيص لمن قال فى الأعيان بما وصفناه، فإنه قد انتقل عن أصله لاستحقاق فرق من معتقديه ألقابا بأحاديث لهم بأقاويل أحدثوها فغلبت عليهم فى الاستعمال دون الوصف بالإمامية، وصار هذا الاسم فى عرف المتكلمين وغيرهم من الفقهاء والعامة علما على من ذكرناه.

وأما الزيدية فهم القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبى طالب والحسن والحسين وزيد بن علي - عليهم السلام - وبإمامة كل فاطمى دعى إلى نفسه وهو على ظاهر العدالة ومن أهل العلم والشجاعة وكانت بيعته على تجريد السيف للجهاد[1].

٨ - الشيعة تحدد نفسها:

يرى بعض المستشرقين أن الشيعة نشأت فى الأصل نشأة إيرانية. ولا نميل إلى هذا الرأى؛ لأنه يلغى صراعا حقيقيا حول مبدأ شرعية خلافة الإمام علي. وما يسوقه المستشرقون من شواهد تاريخية لا تخدم رأيهم، مثلا الصراع العربى الفارسى ليس الأصل للتشيع لكن لما ارتبطت الشيعة بالعناصر المضطهدة تخلت عن تربية القومية العربية وكانت حلقة الارتباط هى الإسلام. ولكنه لم يكن ذلك الإسلام، بل نوعا جديدا من الدين اتخذ نقطة ابتدائه من بدعة غريبة غامضة اختلط بها المختار وهى «الكيسانية». والسبئية كانت قد اتخذت اتجاها أنشأ يسيطر على طبقات واسعة بحيث اضطرت الشيعة بوجه عام إلى اتخاذ موقف أشد حدة بإزاء الفرق الأخرى وإزاء إبراز الخلافات بين الشيعة والسنة. والسبئية يسمون أيضا «الكيسانية» وكان كيسان زعيما للموالى[2]، فإن كان فى نفس الوقت زعيما للسبئية. فيستنتج من هذا أن السبئية والموالى كانوا شيئا واحدا تقريبا.

واعتمادا على هذا الاستنتاج مضى بعض الناس زاعمين أن التشيع كمذهب دينى إيرانى الأصل؛ لأن غالبية موالى الكوفة كانوا إيرانيين.

٩ - الشيعة بين النشأة العربية والفارسية:

دوزى يصر على أن الشيعة منشؤها فارسى - وهو من الرعيل القديم الذى كان ينهج نهجه فى إثبات النتائج أولا ثم البحث عن الشهود للقضية ثانيا.

(١) أوائل المقالات فى المذاهب والمختارات ص ٤ الشيخ المفيد.

(٢) الطبرى تاريخ الأمم والملوك ص ٦٣٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نراه يحتـال لإثبات فارسـية الشيعـة ليصف الفرس بخـضوع العبـيد وأنهم نقلوا التوقير الوثنى إلى علي وذريته والطاعة المطلقة للإمام. وهو دائما فى أبحاثه إما أن يحقر العرب للفرس أو يحقر الفـرس للعرب. يقول دوزى: «كانت الشيعة فى حقيـقتها فرقة فارسية، وفيها يظهـر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين الجنس العربى الذى يحب الحرية. وبين الجنس الفـارسى الذى اعتاد الخـضوع كـالعبيـد. لقد كـان مبدأ انتـخاب خليـفة للنبىﷺ أمرا غير معهود ولا مفهوم؛ لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة فى الحكم؛ لهذا اعتـقدوا أنه مـا دام الرسول ﷺ لم يترك ولـدا يرثه، فإن عليا هو الـذى كان يجب أن يخلفه وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى آل علي. ومن هنـا فإن جميع الخلفاء ـ ما عدا عليا ـ كـانوا فى نظرهم مغتصـبين للحكم لا تجب لهم طاعة. وقوى هذا الاعـتقاد عندهم كراهيتـهم للحكومة وللسيطرة العربية، فكانوا فى الوقت نفـسه يلقون بأنظارهم النهمة إلى ثرات سـادتهم. وهم قد اعتادوا أيضا أن يروا فى ملوكهم أحـفادا منحدرين من أصلاب الآلهـة الدنيا. فنقلوا هذا التوقيـر الوثنى إلى علي وذريته. فالطاعـة المطلقة «للإمام» الذى من نسل علي ـ كانت فى نـظرهم الواجب الأعلى، حتى إذا ما أدى المرء هذا الواجب. استطاع بعد ذلك بغـير لائمة ضمير أن يفسر سـائر الواجبات والتكاليف تفسيرا رمـزيا وأن يتجاوزها ويتعداها. لقـد كان «الإمام» عندهم هو كل شىء. إنه الله قد صار بشرا. فـالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمـات «ذلك الأساس فى مذهبهم» وعلى نحو مشـابه يتحدث أ. ملر فى كتابه المذكور سـابقا ص ٢٣٧. ويضيف إلى هذا أن الفرس كانوا ـ تحت تأثير الأفكار الهندية قبل الإسلام بعهد طويل ـ يميلون إلى القول بأن الشاهنشاه هو تجسد لروح الله التى تنتقل فى أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء.

١٠ - السبئية وكرسى المختار:

يقول فلهاوزن:

أما أن آراء الشيعة تلائم الإيرانيين. فليست تلك الملاءمة دليلا عليه. بل الروايات التاريخيـة تقول بعكس ذلك. إذ تقول: إن التشيع الواضح الصريح كـان قائما أولا فى الدوائر العـربية، ثـم انتقل بعـد ذلك منهـا إلى الموالى، وجـمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر.

وأولئك الذين كانوا يتواثبون حول الكرسى المقـدس يذكرون أنهم «السبئية». ولم يكونوا من الموالى، بل من العـرب، إذ كـانوا من عشـائر: نهد وخـارف وثور وشاكـر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشبام[1]. وهؤلاء السبئيـة كانوا على علاقات سيئة بعشـائرهم نتيج لمذهبهم الغريب. وبخاصة شبام بالنسبة إلى قبيلة همدان، بينمـا كانوا على علاقات وثيقة جـدا بالمختار. ومن أجله خاضوا الـنار ووشوا بقبائلهم. ونجد حـديثا عن بطانة[2] من الشيـعة العرب كانت تجتمع فى منزلى امرأتين بارزتين. وتذكر أسماء بعض أفراد هذه البطانة ومنهم ابن نوف الهمدانـى الذى كان ينافس مولاه وأستـاذه (المختار) فى الزعامة. لقـد كان يصنع وحيا لدى الكرسى المقدس، وكان أحد عمومة الأعشى ممن تأثر لهذا الوحى. وكان أول سادن للكرسى هو موسى بن أبى موسى الأشعرى.. ثم تلاه حوشب البرسمى. والبيئة هنا كلهـا يمنيـة. ويقال: إن المختـار قـد أظهـر الكرسى على أنه كـرسى علي بن أبى طالب. ولكن ثمة روايات أخـرى تقول بعكس ذلك، وهذه الروايات الثانيـة أقرب إلى التصديق. وعلى كل حال فقد كـان الكرسى فى حوزة اليمنيين. وأصله إنما يبحث عنه لديهم. ولم يكن اختـراعا أبدعه الهوى، بل مثله مـثل الحجر الأسود كـان قطعة وثنية وفى الأصل كرسى اللـه ثم كرسى علي، لأنهم ألهوا عليـا. وكراسى الله الخـالية هذه نجدها كثيرا، وإن لم تكن عادة من الخشب، فالكرسى عربى[3].

١١ - حزب علي هو شيعته:

ونميل إلى أن حزب علي هو فى الأصل شيعة علي وكذا حزب معاوية. والحزب يطلق عليه فى العربية أيضـا اسم «الشيعة» فكانت شيعة علي فى مقابل شـيعة معاوية. لكن لما تولى معاوية المـلك فى دولة الإسلام كلها ولم يعد مجـرد رئيس حزب، أصبح استـعمال اللفظ «شـيعـة» مقصـورا على أتباع علي، ودخل فى هذا الاسـتعمـال أيضا تعارضهم مع الخوارج.

ولم يكن اتخاذهم عليا زعيما بسبب أنه ابن عم الرسول ﷺ وصهره وأبو أحفاده؛ إذ إن حق الأقـربين فى وراثة الرياسة ـ وكـأنها ملك خـاص ـ لم يكن معـترفـا به عند العـرب، إنما كان حـقا مـقدسـا لدى الفرس. وبالأولى لم يعـترف به الإسـلام. وإنما اختاروه؛ لأنه بدا لهم أفـضل صحابة الرسول ﷺ الأقدمين. ومن هؤلاء كـان الخليفة يختار حدا كبيرا مناط استمرار الحكومة عند تبدل الأشخاص الذين فى المنصب الأعلى.

---

(١) الطبرى ص ٧٠٤ وما يليها.

(٢) الطبرى ج٢ ص ٦٦٩ س٢.

(٣) الخوارج والشيعة فلهاوزن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكان علي إذن ممثلا فى الأصل لهذه الطبقة الإسلامية التى نالت الرفعة بما لها من فضل ولحقها التقليدى فى الخلافة الذى كان يهدده السلطان الفعلى لعمال الأمويين الذين عينهم عثمان، والأمويون أسرة عريقة النسب ذات تقاليد جاهلية وثنية. ولم يكد علي يتولى الخلافة حتى انقلب عليه العضوان الباقيان من هذه الأرستقراطية الروحية، وكانا حتى ذلك الوقت يؤازرانه ويقدمانه. وحولا الغضب من مقتل عثمان ضده وأخذا لأنفسهما الحق فى العمل.

ولكن الواقع هو أن الكفاح قد قام به جميع الطامعين فى الخلافة ولم يكن «الحق» إلا نكأة لإثارة الجماهير وإعطائهم راية يقاتلون حولها. واستطاع علي أن يضم أهل العراق إلى صفه، وقد كانوا أشد سندا للذين ثاروا على عثمان. فانتقل إلى الكوفة ثم كسب البصرة لجانبه بعد ذلك. وتم له هذا بعد كفاح دموى ضد منافسيه الغادرين.

١٢ - سبب تشيع إيران:

* رأى محمد جواد مغنية:

يرى أن سبب التشيع فى إيران يرجع إلى عنصر عربى، والتسنن إلى عنصر فارسى صرف. ولكن خصوم الشيعة موّهوا وضللوا، وعكسوا الآية لا لشيء إلا للكيد والتنكيل، كما قال الدكتور طه حسين.

وقال الشيخ محمد حسين المظفر فى «تاريخ الشيعة ص ٨، مطبعة الزهراء بالنجف:

«كان للإمام ثلاثة حروب: الجمل، وصفين والنهروان. وكان جيشه كله عربا أقحاحا بين عدنانية وقحطانية. أكانت قريش من الفرس أم الأوس والخزرج، أم مذحج، أم همدان، أم طئ، أم كندة، أم تميم، أم مضر، أم أشباهها من القبائل؟ وهل كان زعماء جيشه غير رؤساء هذه القبائل؟ أكان عمار فارسيا، أم هاشم المرقال، أم مالك الأشتر، أم صعصعة بن صوحان، أم أخوه زيد، أم قيس بن سعد، أم ابن عباس، أم محمد بن أبى بكر، أم حجر بن عدى، أم عدى بن حاتم، أمثال هؤلاء من القواد؟».

أما أصحاب الحسن والحسين فكلهم عرب، وجلهم من أصحاب أبيهما أمير المؤمنين[1].

(١) الشيعة فى الميزان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول مغنية: وإذا كان الفرس هم سبب التشيع فى إيران وغير إيران، فهل جاء غلو بعض أهالى أصفهان فى معاوية، ورفعه إلى منصب النبوة والرسالة، هل جاء هذا الغلو فى معاوية نتيجة لتشيع الفرس؟ إنه لغريب حقا منطق خصوم الشيعة، كما قال الدكتور طه حسين. قالوا: إن الغلو فى علي جاء من الفرس. ثم ينقل عالم من علمائهم مثل المقدسى أن بعض الفرس غالى فى معاوية،حتى جعلوه نبيا مرسلا. ثم كيف ومن أين وصل التشيع إلى جزيرة العرب؟ هل جاء إليها من الفرس، والتاريخ يقول: إن الفرس كانوا على التسنن حين كان سكان الجزيرة العربية على التشيع؟ وهكذا يقع فى التناقض من يضفى على التاريخ صفته الذاتية العدائية، ثم يبنى عليه آراءه وأحكامه(١).

وقال المستشرق جولدتسيهر فى كتاب «العقيدة والشريعة» ص ٢٠٤:

«إن من الخطأ القول بأن التشيع فى منشئه،ومراحل نموه يمثل الأثر التعديلى الذى أحدثته أفكار الأمم الإيرانية فى الإسلام، بعد أن اعتنقته، أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية، وهذا الوهم الشائع مبنى على سوء فهم الحوادث التاريخية. فالحركة العلوية نشأت فى أرض عربية بحتة(٢).

ومن دخل من الفرس وتشيع فحاله حال من تشيع من سائر الأمم، كالعرب والترك والروم وغيرهم لا باعث له إلا حب الإسلام، وحب آل الرسول ﷺ، فأسلم وتشيع عن رغبة واعتقاد. وإذا جاز أن يقال: إن الفرس تشيعوا كيدا للإسلام؛ لأنه قهرهم جاز أن يقال: إن غير الفرس تسننوا كيدا للإسلام، وأنه غلب وقهر الجميع لا الفرس وحدهم.

والحقيقة أن بعض الفرس دان بالتشيع للسبب الذى دان به غيرهم بالتشيع. وبعضهم دان بالتسنن للسبب الذى دان به غيرهم للتسنن، سنة الله فى خلقه. إن الذين

---

(١) الشيعة فى الميزان ص ٦٧ محمد جواد مغنية.

(٢) إن علماء المسلمين العرب هم الذين أدخلوا التشيع إلى فارس، وأرشدوا الفرس إليه بشهادة الشيخ أبى زهرة، قال فى كتاب «الإمام جعفر الصادق ص ٩٤٥»: «أما فارس وخراسان، وما وراءهما من بلدان الإسلام فقد هاجر إليها كثيرون من علماء الإسلام الذين كانوا يتشيعون فرارا بعقيدتهم من الأمويين أولا، ثم العباسيين ثانيا، وإن التشيع كان منتشرا فى هذه البلاد انتشارا عظيما، قبل سقوط الدولة الأموية بفرار أتباع زيد ومنقلبه إليها». فالفرس ــ إذن ــ تشيعوا على أيدى العرب، ولم يخلقوا التشيع من تلقائهم كيدا للإسلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشروا التشيع فى قم وأطرافها الأشعريون، وهم عرب صميمون هاجروا إليها من الكوفة فى عصر الحجاج. وغلبوا عليها، واستوطنوها. وانتشر التشيع فى خراسان بعد الخروج إليها وزاد الانتشار واتسع فى إيران فى عصر الصفوية الذين نصروا التشيع، وهم عرب؛ لأنهم سادة أشراف من نسل الإمام موسى بن جعفر، لا يمكن بحال أن يتعصبوا للأكاسرة، والذين يجوز فى حقهم ذلك هم قدماء الفرس، وهؤلاء جلهم كانوا على مذهب التسنن».

أثبت السيد الأمين أن الذين نشروا التشيع وناصروه فى إبدال هم بين عربى أصيل، كالإمام الرضا والأشعريين[1] أو من أصل عربى كالصفوية، وأن الذين زعموا التسنن وناصروه هم فرس أقحاح. كالبخارى والنسائى والرازى وغيرهم.

١٣ - ظهور بواكير مصطلح الشيعة:

أصل مصطلح الشيعة فى كتب التاريخ الإسلامى القديم منذ اجتماع سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة النبى ﷺ لاختيار الخليفة بمعناه اللغوى، بمعنى النصير والمعاون. .إلخ فأطلق بهذا المعنى على شيعة عثمان وعلي ومعاوية دون معناه الاصطلاحى المذهب حكى البلاذرى بعضا من ذلك منه:

١ ـ أتى مسلم بن عقيل ـ وهو فى الكوفة ـ هانئ بن عروة بن نمران المرادى بيته من بابه للجيرة. فقال هانئ: والله لقد سألتنى شططا. ولولا دخولك دارى وثقتك بى لأحببت أن تنصرف عنى، ولكنه قد وجب على ذمامك، فأدخله داره، وكانت الشيعة تختلف إليه فيها.

٢ ـ ودس ابن زيادة مولى له يقال له معقل وأمره أن يشهر أنه من شيعة علي ويتجسس عن مسلم ويتعرف موقعه.

٣ ـ وقد بلغنى أن رجلا منهم بعث به الحسين بن علي إلى شيعته من أهل الكوفة.

---

(١) فى سنة ٨٣ هـ خرج ابن الأشعث على الحجاج، ثم هزم جيشه وتفرق فى البلاد، وكان بينهم خمسة إخوة: عبد الله والأحوص وعبد الرحمن وإسحاق ونعيم أبناء سعد بن مالك بن عامر الأشعرى، فاجتمع الخمسة وتغلبوا على بعض القرى القريبة من قم، واجتمع إليهم بنو عمهم، وكان المتقدم من هؤلاء عبد الله وكان له ولد يتشيع، فانتقل من تلك القرى إلى قم ونقل التشيع إلى أهلها «الكنى والألقاب» ترجمة القمى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ وكان شريك شيعيا شهد الجمل وصفين مع علي.

٥ ـ سار الحسن بالناس من الكـوفة عند أم سلمة. فقالت أم سلمـة: ما تذكرون شيعة علي وهم الفائزون يوم القيامة.

ثم بدأت الشيعة فى النزوع إلى التميـز المذهبى السياسى بعد التحكيم حين انشق جيش الإمـام إلى فرقة الخوارج وخـرجت عن شرعيـة خلافته وإلى شـيعة تناصـر عليا واسـتقلت نابتـة الشام بمـعاوية. فلم يبق من المنـاضلين ضد القـوى المضادة: الخـوارج والشام، ولا شيعة علي وهم من قبائل الكوفة العرب. من الكوفة شيعته، وشيعة شيعته البصرة. وكـان شريك شيعيـا شهد الجمل وصفـين، فالشيعى الكامل من شـهد الجمل وصفـين، فالشيعـة عربية المنبت والهـدف نبتت فى الكوفـة حاضرة خلافـة الإمام علي لنصرته.

١٤ - وثيقة التحكيم وظهور مصطلح الشيعة السياسى:

تضمنت وثيقة التـحكيم بعض المعانى السياسية لمصطلح «شيعـة» ذكر فيها «علي ومن معه شيعته» و«معاوية ومن معه من أهل الشام» وداخل بنود الوثيقة «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبى طـالب» ومعاوية بن أبى سـفيان، قاضى علـي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين.

وفى بعض البنود. . . فإن مات أحـد الحكمين، فإن أميرالشيعـة يختار مكانه من أهل العدل. . ثم وقع خلاف حول «الأمير».

تلك صيغة كـتاب التحكيم، وإن كان الجاحظ تشكك فى صحتهـا لضعف نصها لكنها تقوى من جهة أخرى وأسانيدها مشهورة، فإن تشكك فيها فإن الطبرى والبلاذرى واليعقوبى ومزاحم. . قد ذكروها بأسانيـد منها:عن الزهرى، ومحمد بن إسحاق، وأبو مخنف. . . فالوثيقة وردت بطرق متعددة الروايـات التاريخية ترجح صحتها وتقف دون نقد الجاحظ الذى اعتمد على النقد البلاغى.

حددت الوثيقة مـعنى الشيعة السياسى، هم المناصـرون لحق علي فى الخلافة بعد بيعته فى المدينة التى أبرم فيها بيعة أبى بكر وعـمر، وعثمان، وهم الذين وقفوا معه فى الجمل وصفين والنهروان ضد الخوارج الذين كانوا من شيعة علي ثم خرجوا عليه بسبب التحكيم. وإن صح وصف الإمام علي بأنه «أمير الشيعة» رغم أن فيه انتقاصا لحق الإمام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على وهو انتقاص يقلل من شأن الوثيقة وكاتبيها ولا يقلل من شأن الإمام على فهو أمير المؤمنين بلا منازع، والشيعة دائرة من المؤمنين.. فإن وصفه بأمير الشيعة يعتبر أول وصف سياسى ميز جماعة المناصرين للإمام على، استعمله الخصوم والمناصرون معا استعمالا سياسيا رسميا.. وبذلك دخل معاجم الاصطلاحات السياسية وصار علما تميز به المناصرون لحق آل البيت فى الخلافة، وورد فى كتاب الصلح الذى تم بين معاوية والحسن جاء فيه: وبعث معاوية، عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح، فدعواه إليه وزهداه فى الأمر، وأعطياه ما شرط له معاوية وألا يتتبع أحد بما مضى، ولا يُنَال أحد من شيعة على بمكروه ولا يُذْكَرُ علي إلا بخير... وأشياء اشترطها الحسن[1].

فى حوار جرى بين معاوية والحسين «وقال للحسين بن علي: يا أبا عبد الله، أعلمت أنا قتلنا شيعة أبيك، فحنطناهم، وكفناهم وصلينا عليهم، ودفناهم؟ فقال الحسين: لا ورب الكعبة، لكنا والله إن قتلنا شيعتك ما كفناهم ولا حنطناهم، ولا صلينا عليهم، ولا دفناهم»[2].

ومن هذه الاستعمالات:

«ما ورد عن زياد عن أبيه أنه ـ كان أحضر قوما بلغه أنهم شيعة لعلى، ليدعوهم إلى لعن علي والبراءة منه، وأن يضرب أعناقهم، وكانوا سبعين رجلا»[3].

ومن الاستعمالات التاريخية لهذا المصطلح ما ورد فى كتاب أهل العراق سنة (٥٠هـ) إلى الإمام الحسين بن على قال اليعقوبى:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن على من شيعته المؤمنين والمسلمين، أما بعد فحيهاد، فإن الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثم العجل والسلام»[4].

وتحدث ابن الأثير عن تلك الأحداث فقال:

«ولما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة

---

(١) مقاتل الطالبيين. أبو الفرج الاصفهانى ص ٧٥ السيد صقر.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٣١.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٣٥.
(٤) المصدر السابق ص ٢٤٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرجفوا بيزيد، واجتمعت الشيعة فى منزل سليمان بن صرد الخزاعى فذكروا مسير الحسين إلى مكة وكتبوا إليه عن نفر، منهم: سليمان بن صرد الخزاعى والمسيب بن نجية ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وغيرهم»[1].

وفى كتاب عبد الله بن مسلم الذى كتبه إلى يزيد بن معاوية، وهو من أنصار بنى أمية، نقرأ فى هذا الكتاب استعمال مصطلح (شيعة)، وهو يطلقه على ذلك الكيان والتكتل الذى بايع الحسين، جاء فى الكتاب:

«أما بعد.. فإن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة، وبايعته الشيعة للحسين بن على ابن أبى طالب فإن يك لك فى الكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قويا...»[2].

وهذا معاوية بن أبى سفيان يستعمل كلمة (شيعة) ويصف أتباع عثمان بأنهم شيعته، عندما أوصى المغيرة بن شعبة يوم ولاه الكوفة سنة (٤١هـ)، جاء فى تلك الوصية:

«... ولست تاركا إيساءك بخصلة: لا تتحام عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب على، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان (رضوان الله عليه) والإدناء لهم، والاستماع منهم»[3].

وهذا يزيد بن معاوية عندما كتب إلى عبيد الله بن زياد، وعينه واليا على الكوفة نجده يستعمل كلمة (شيعة) معبرا بها عن أتباعه وشيعته (شيعة بنى أمية)، مما يؤيد استعمال هذا المصطلح فى تلك الفترة بمعنى التكتل السياسى والأنصار العقائديين، جاء فى هذا الكتاب:

«أما بعد فإنه كتب إلىَّ شعيتى من أهل الكوفة، يخبرونني أن ابن عقيل فيها يجمع الجموع...».

من طلائع شيعة علي (عليه السلام) الذين كانوا من أفضل الصحابة والتابعين، نذكر منهم حجر بن عدى وستة معه من أصحابه، عمرو بن الحمق الخزاعى وعبد الله بن يحيى الحضرمى ورشيد الهجرى، وجويرية بن مهر العبدى وأوفر بن حصين، وكثير غيرهم.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢: ٥٣٣.

(٢) الشيخ المفيد: الإرشاد: ص ٢٠٥.

(٣) تاريخ الطبرى ٤: ١٨٨ حوادث سنة ٥١ هـ. التشيع نشأته معالمه ص ٣٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما بدأ الحزب الأموى يسلط الإهاب على شيعة آل البيت فى عهد الحسن والحسين كان الاحتجاج يصدر من السبطين، ولكن دون جدوى. . . فلما استشهد الحسن بن على (عليهما السلام) مسموما على يد معاوية بن أبى سفيان، تجمع الشيعة حول الإمام الحسين، وطالبوه بالثورة على معاوية، إلا أنه رفض ذلك، وطلب منهم الالتزام بعهد الصلح حتى موت معاوية، غير أن معاوية خالف ميثاق الصلح، وعقد البيعة لابنه يزيد وحول الحكم الإسلامى إلى حكم ملكى وراثى فى الحزب الأموى، فرفض الحسين ووجوه الصحابة والتابعين بيعة يزيد.

وبدأت المواجهة المسلحة، وأعلن الحسين بن علي (عليهما السلام) الثورة على حكومة يزيد بعد موت معاوية، وقاد الكفاح كإمام للمسلمين ومسئول عن حفظ الأمة والرسالة.

ونشاهد مصطلح الشيعة يتكرر فى هذه الحقبة يبرز التشيع كتكتل سياسى وخط فكرى معارض من حول الإمام الحسين بن على، كما كان يتحرك من حول أبيه على وأخيه الحسن (عليهم السلام)، ويجسد هذا الوجود السياسى الكتاب الذى وجهه أهل العراق إلى الإمام الحسين بن على، فقد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن على أمير المؤمنين، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، فإن الناس ينتظرونك، لا رأى لهم غيرك، فالعجل يا ابن رسول الله ﷺ، فقد اخضر الجناب، وأينعت الثمار، وأعشبت الأرض، وأورقت الأشجار، فاقدم علينا إذا شئت فإنما تقدم على جند مجندة لك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك»[1].

فتوجه الحسين من المدينة المنورة إلى العراق، ووقعت المواجهة بينه وبين الجيش الأموى، واستشهد الإمام الحسين وثمانية وسبعون من أصحابه وأهل بيته، وحلت الفاجعة بآل البيت النبوى، ونشبت الفتن أنيابها وانطوت مرحلة قيادة المواجهة المسلحة من جانب أئمة أهل البيت بعد على والحسن والحسين.

وباستقراء وقائع الكفاح السياسى والفكرى الذى استمر طيلة حياة الإمام على، وولديه السبطين، الحسن والحسين (عليهما السلام)، ومن تابعهم وجاهد معهم، نلاحظ أن دعوتهم تركزت حول المطالبة بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والعمل

(١) السيد ابن طاووس: مقتل الإمام الحسين: ص ١٥ ــ ١٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بهما، لإيضاح هوية التشيع لأهل البيت (عليهم السلام)، وجوهر حركتهم الفكرية، ويتجسد ذلك واضحا فى المواقف والتصريحات التى صدرت عن الأئمة وآبائهم. من ذلك ما ورد فى كتاب الصلح الذى ثبت فيه الحسن بن على (عليهما السلام) واشترط على معاوية: «أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة نبيه»، ويظهر ذلك واضحا فى الرسالة التى كتبها الإمام الحسين (عليه السلام) لأهل العراق: «... وقد بعثت رسولى إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى أهديكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١).

وهكذا يتضح لدينا ظهور شيعتين متواجهتين شيعة آل البيت بقيادة علي والحسن والحسين، وشيعة بنى أمية خلال حكومة معاوية وابنه يزيد وما تلاها من فترة الحكم الأموى.

وجاء فى نص اليعقوبى: «وخاف أهل الشام عبد الملك، فأقبل مسرعا إلى دمشق خوفا من وثوب عمرو بن سعيد، واجتمع الناس عليه، فقال لهم: إنى أخاف أن يكون فى أنفسكم منى شىء، فقام جماعة من شيعة مروان، فقالوا: والله لتقومن إلى المنبر، أو لنضربن عنقك، فصعد المنبر وبايعوه»(٢).

وهكذا يتضح لنا أن معنى التشيع هو متابعة أهل البيت (على وبنيه) وأن بذرته الأولى قد ولت على عهد رسول الله ﷺ، ثم ظهر فى المدينة المنورة فى صفوف الصحابة الأوائل حول على وفاطمة بنت رسول الله ﷺ كتكتل يدعو إلى أحقية على بالخلافة بعد أن كان حبا وولاء لشخصه فى عهد رسول الله ﷺ ثم امتد مذهبا عقديا وفقهيا وسياسيا نتيجة لما يحمل من فهم ووعى متميز للإسلام استمده من فهم ووعى الإمام على وبنيه (عليهم السلام) فتبلور هذا المنهج العقدى والفقهى، على يد الإمامين محمد الباقر وولده جعفر الصادق (عليهما السلام) المعاصرين لأبى حنيفة ومالك بن أنس وغيرهما من أصحاب المذاهب الفقهية.

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢: ٢٥٨ التشيع نشأته معالمه ص ٣٨ هاشم الموسوى.

(٢) انظر حول ذلك البلاذرى أنساب ج٢ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ (أبو مخنف) اليعقوبى تاريخ ج٢ ص ١٨٢ : الإمامة، ج١ ص ٦٠ (ذكروا)، ج١ ص ٦١ (ذكروا) الطبرى، تاريخ ج٤ ص ٤٥٢ (الزهرى) ج٤ ص٤٧٨ (المدائنى) ج٤ ص ٤٨١ (سيف) ج ٤ ص٥١٤ (سيف، ج٢ص٥١٥ (سيف، ج٤ ص ٥٢١ (أبو مخنف) ج٤ ص ٥٢٨ (سيف)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينبغى أن نشيـر هنا إلى أن المذهب هو عبارة عن طريقة ومـنهج لفهم الإسلام، والكشف عن محتواه فى المجالات العقدية والتشريعية والسياسية.

وعندما تبلور هذا الـكيان الشيعى، واتـسع عند اشتداد الصـراع بين على ـ عليه السلام ـ ومعاوية انضم إلى صفوف علي البدريون والمهاجرون والأنصار، وأصحاب بيعة الرضوان، وقاتلوا مـعه معاوية بن أبى سـفيان فى معركـة صفين. ذكر اليـعقوبى ذلك بقوله: «وكان مع علي يوم صـفين من أهل بدر سبعون رجـلا، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجـرين والأنصار أربعمائة رجل، ولم يكن مع معاوية من الأنصار إلا النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد...».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

القبائل المنتصرة للإمام علي

لم تكن غالبية شيعة الإمام على من عرب ـ مكة والمدينة وحسب، إنما كانوا من خارجها أشتاتا وأخلاطا من قبائل عرب البوادى قال فيهم القرآن: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... (٩٧)﴾ [التوبة] وكان أكثرهم من الذين خرجوا على أبى بكر معرضين عن دفع الزكاة.

يقول آدم متز: ولقد نالنا العجب حين رأينا خلافا وقع بين المستشرقين ومن يذهب مذهبهم حول نشأة أصل الشيعة وكأن الأمر غير واضح. بينما الأمر من الوضوح الواضح الذى لا يحتاج البحث فيه إلى دليل لكن درج المستشرقون على تكوين أحكام مسبقة ثم يبحثون عن شهود تقف بجانبها، من ذلك قضية أصل نشأة الشيعة.

لذلك رأينا قدم تطور نزوع القوى المضادة وكيف كانت عربية صرفة.

فمن هنا ذهب فلهاوزن وآدم متز ومن دار فى مدرستهم من المستشرقين إلى أن الشيعة عربية الأصل.

يقول آدم متز: ولقد أبانت لنا مباحث فلهاوزن بصورة أدنى إلى الصواب أن مذهب الشيعة ليس ـ كما كان يعتقد البعض ـ رد فعل من جانب الروح الإيرانية يخالف الإسلام[1]. ومما يؤيد أبحاث فلهاوزن التوزيع الجغرافى للشيعة فى القرن الرابع، وقد

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ آدم متز، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألمح الخوارزمى فى أواخر القرن الرابع إلى أن العراق الموطن الأول للتشيع. وكانت الكوفة وبها قبر علي ـ رضى الله عنه ـ أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد.

ويقول آدم متز: ومن الآراء الخاطئة القول بأن منشأ التشيع يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها فى الإسلام، وهذا ناشئ عن خطأ تاريخى، وقد رفضه فلهاوزن فى بحث له هو: Wellhausen. Die Rellgios- Politischen Oppositionsparteien im Aiten Islam؛ وذلك أن حركة التشيع نشأت على تربة عربية خالصة، ولم تنتشر بين غير الساميين إلا بعد ظهور المختار. هذا إلى أن أصول النظرية الإمامية بما تتضمنه من النظر إلى الدولة نظرة دينية، ومن القول بالمهدى ونحوه يمكن أن نرده إلى الأثر اليهودى والمسيحى، بل إن ما ذهب إليه الشيعة الغالية من تأليه علي كان أول من أتى به عبد الله ابن سبأ قبل تأثير المذاهب الآرية، وكذلك التجسيم عند الشيعة، يرجع بعضه إلى أصل عربى.

وقد ذهب إلى قول الشيعة أهل النظر العقلى بين العرب، وكذلك الفرس، وقد رحب الفرس بمعارضة الشيعة لأهل السنة وأخذوا بمذهب الشيعة، ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند الفرس من تأليه الملوك، ولكن الأصول الأولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أجنبى، بل هى عربية فى صميمها.

١ - مع النشأة النصية:

يذهب الشيعة وهم يستعرضون آراء الشيعة إلى القول بالنص على خلافة الإمام علي بالتعيين وأوردنا رأيهم كما عرضه العالم المحقق محمد جواد مغنية فى كتابه: (التشيع). وهو رأى يمثل عقيدة التشيع فى الخلافة وحق الإمام علي فيها فهو لديهم أصل من أصول الدين. من هنا تكتنف المناقشة عدة صعوبات منها:

* قيام بنائه على أدلة نصية.
* دخوله فى الكيان العقدى فى أصول الدين.
* يلزم القول بالوصية: القول بعصمة الإمام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالقول بالتعيين ـ الإمام ـ وإحاطته بسياج مقدس يدخله فى باب يصعب ولوجه بالعقل الجدلى فهو غير قائم على قواعد من العقل، وإنما يصح النظر إليه من زاوية واحدة وهى زاوية النص وتأويله.

نرى أن النصوص التى ساقوها من القرآن الكريم شاهدة على إمامة علي بالتعيين تكلفوا تأويلها حين حملوها معنى خاصا وكأنها نزلت للقول بتعيين على فبانت عن عسر المخاض.

وأما الأحاديث التى ساقوها من الممكن قبولها لو سيقت فى مقام ذكر فضائل الأعمال، لكنهم أوردوها تأسيسا لعقيدة أصولية فلها شروطها الخاصة. وإليك ما ذكره صاحب كتاب (التشيع).

رأى هاشم الموسوى:

لقد تجنى كثير من الباحثين على نشأة التشيع وبدء ولادته، حتى قاد البعض هذا التجنى إلى اتهام الشيعة بأنهم فرقة أسست بأفكار عبد الله بن سبأ اليهودى الأصل والمحتوى، بينما ذهب بعض الباحثين إلى أن التشيع نشأ فى خلافة الإمام علي بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ، وذهب فريق آخر إلى أن التشيع ولد بعد وفاة رسول الله ﷺ يوم انعقاد السقيفة حيث اجتمع عدد بارز من الصحابة فى بيت علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، تؤيدهم فاطمة بنت محمد، والعباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فكان هذا الاجتماع أول تشيع ظهر حول علي وأهل بيته.

ويذهب فريق آخر إلى أن التشيع نشأ حول علي فى عهد رسول الله ﷺ، وأن الرسول ﷺ هو الذى أطلق هذا الاسم على مؤيدى علي وأتباعه.

نذكر من تلك الآراء ما نقله السيد محسن الأمين عن أبى محمد الحسن بن موسى النوبختى فى كتابه الفرق والمقالات: (الشيعة هم فرقة علي بن أبى طالب، المسمون بشيعة على فى زمان النبى ﷺ وما بعده بانقطاعهم إليه القول بإمامته)[1].

أما أبو حاتم السجستانى فيقول: «إن لفظ الشيعة كان على عهد رسول الله ﷺ، لقب لأربعة من الصحابة: سلمان وأبى ذر والمقداد وعمار»[2].

---

(١) السيد محسن الأمين: الشيعة بين الحقائق والأوهام: ص٤١.

(٢) التشيع نشأته معالمه ـ هاشم الموسوى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - غدير خم والوصية:

أما بيعة (غدير خم) فقد ذكرها اليعقوبى، وبين أن النبى ﷺ أوصى فيها لعلى بالإمامة[١]، وقد تناول الشيخ الأمين[٢] البحث عن عدم اشتهار بيعة الغدير. أما القول بالتواتر فقد جاء عن الشيعة أن النبى ﷺ «نص على أمير المؤمنين - عليه السلام - بالإمامة بعده واستخلفه على أمته بألفاظ مخصوصة نقلوها: منها قوله ﷺ سلم على علي بإمرة المؤمنين. وقوله ﷺ مشيرا إليه - رضى الله عنه - وآخذا بيده: هذا خليفتى فيكم من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا»[٣].

وألف الشيعة عشرات الكتب فى وصية النبى ﷺ لعلي، فالمسعودى ألف كتابه الموسوم بـ (الوصية)[٤] وذكر فيه كيفية اتصال الحجج والأوصياء من لدن آدم إلى القائم صاحب الزمان. وكتب العلامة الحلى كتابه الموسوم (إثبات الوصية) وذكر الحلى طائفة من الكتب فى الوصية يزيد عددها على الثلاثين كتابا من بينها كتاب المسعودى المذكور سابقا[٥].

رأى جواد مغنية:

واتفق المسلمون بكلمة واحدة على أن السلطة الزمنية والدينية كانت للرسول ﷺ تعطى لخليفته، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل يعين الخليفة بالنص من النبى ﷺ، أو يترك الأمر فيه إلى اختيار الأمة؟ قال الشيعة: إن الخليفة يتعين بالنص لا بالانتخاب، أى أن الله سبحانه يأمر النبى ﷺ أن يبلغ المسلمين بأنه قد اختار (فأنا) خليفة بعده، وأن عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا. وقد صدر هذا النص بالفعل من النبى ﷺ على علي بن أبى طالب.

هذا هو التشيع، وهكذا ابتدأ ونشأ دون أن يضاف إليه أى شىء آخر... أما المغالاة فى علي وصفاته أو تكفير خصومه السياسيين وما إلى ذلك فلا يمت إلى التشيع بسبب... والذى يدلنا على أن لفظ الشيعة علم على من يؤمن بأن عليا هو الخليفة بنص النبى ﷺ ما قاله فقهاء الإمامية فى كتب التشريع من أنه إذا أوصى رجال بمال للشيعة، أو

---

(١) طبع كتاب الأمينى بيروت، تحت عنوان «الغدير فى الكتاب والسنة والآداب».

(٢) تلخيص الشافى م، جـ ٢ ص ٥٦ - ٧٠.

(٣) طبع الكتاب المذكور فى النجف دون أن يذكر تاريخ الطبع.

(٤) إثبات الوصية فى النجف دون أن يذكر تاريخ الطبع

(٥) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٣٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقف عقـارا عليهم يعطى لمن قـدم عليا فى الإمامـة على غيـره بعد النبىﷺ ولا يعطى للمغالين (كتاب المسالك للشهيد الثانى ج١ باب الوقف).

بالتالى، فإن التشيع فى حقيقته وجوهره يتلخص بهذه الكلمة، وهى الإيمان بأن الإمام المنـصوص عليه يـتولى الحكم، ويحكم بإرادة الله لا بإرادة الناس، وقـد أنكرت السنة عليهم ذلك، وبالغوا فى الإنكار، حتى قال بعض المـؤلفين: إن هذه العقيدة نزعة فارسية استقاها الشيعة من الفرس[1].

ونجيب بأنها إسلامية بحتة، لا شائبة فيها لغير الإسلام وقد أخذت من كتاب الله وسنة نبـيـه ﷺ، كمـا يظهـر من الأدلة الآتيـة. وإذا أخـذ الشـيعـة هذه النزعـة من الفرس. فمن أين أخذ عثمان بن عفان قوله ـ حين طلب إليه أن يتخلى عن الخلافة ـ «ما كنت لأخلع قميصـا قمصنيه الله». وقال أيضا: «لأن أقـدم فتضرب عنقى أحب من أن أنزع سِرْبالا سَرْبَلَنِيه الله».

٣ - من أدلة الشيعة:

استدل الشيعة على أن الخلافة تكون بالنص لا بالانتخاب بأدلة:

منها: أن الخليفـة يحكم باسم الله لا باسم الشعـب، فيجب والحـال كذلك أن يُختار من الله بلسان نبيه ﷺ، لا من الشعب بطريق الانتخاب.

ومنها: قوله تعـالى فى الآية ٦٨ من سورة الـقصص: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ... ﴿٦٨﴾ ﴾. فالله سبـحانه حصر الاختـيار به، ونفاه عن جميع الناس. (دلائل الصدق جـ ٣ ص ٢١ طبعة ١٩٥٣).

ومنها: أن الأكثرية غير معصومة عن الخطأ، فمن الجائز أن تختار رجلا لا تتوافر فيه صفات الإمام من العلم والخلق فتعم الفوضى والفساد. وقد نص القرآن الكريم على سقوط رأى الأكثـرية فى الآية ١١٦ من سورة الأنعام: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿١١٦﴾ ﴾. وفى الآية ١٠٣ من سورة المائدة ﴿ ...وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ وفى الآية ٧٠ من سورة المؤمنون: ﴿ ...وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾. وغيرها من الآيات.

---

(١) الشيعة فى الميزان. ص ١٤، ١٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب (فدك للصدر) ص ١٣ طبعة ١٩٥٥. وجـ ٤ من كتاب (الميزان فى تفسير القرآن) للطباطبائى، ١٣٧٦ هـ، ص ١٠٩).

وجاء فى الحديث النبوى أن محمدا ﷺ يرى يوم القيامة أكثر أمته تدخل النار. وحين يسأل عن السبب يقال له: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى (كتاب الجمع بين الصحيحين. الحديث ٢٦٧)[1].

وأهل السنة الذين قالوا: إن الخليفة يكون بالانتخاب لا بالنص يعترفون بأن الأكثرية قد تخطئ، وتختار غير الكفء، لكن بعضهم قال: إذا انحرف الخليفة، عزلناه، وأتينا بالأصلح... وأعلن أبو بكر من على المنبر قائلا: «إن استعنت فأعينونى، وإذا زغت فقومونى». وأجاب الشيعة عن ذلك بأن وظيفة الإمام أن يقوم المعوج من رعيته، فإذا قومته الرعية انعكست الآية، وأصبح محكوما، والرعية هى الحاكمة، قال الشاعر الشيعى:

وقالوا: رسول الله ما اختار بعده	إماما ولكنا لأنفسنا اخترناه
أقمنا إماما إن أقام على الهدى	أطعنا وإن ضل الهداية قومناه
فقلنا إذن أنتم أمام إمامكم	بحمد من الرحمن تهتم وما تهنا
ولكننا اخترنا الذى اختار ربنا	لنا يوم خطتنا ما اعتدينا ولا حلنا

يسخر الشاعر من قولهم: إنم يطيعون الإمام إن استقام، ويقومونه إن اعوج رد عليهم بأنهم أصبحوا هم الإمام، وهو المأموم.

٤ - أصل التشيع النصى:

من الذى جاء بالتشيع، وحمل الناس عليه؟ يرجع إلى أصل من أصول الإسلام، ومصدر من مصادره كآية من كتاب الله، أو رواية من السنة النبوية؟

وقد أجاب الشيعة عن ذلك إجابة حاسمة وواضحة، وأثبتوا بالأرقام من أقوال أهل السنة، وكتبهم الصحاح أن النبى ﷺ هو الذى بعث عقيدة التشيع، وأوجدها،

---

(١) دلائل الصدق جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ١٩٥٣. وهذا الشاعر هو سفيان بن مصعب العبد. قال السيد محسن الأمين: كان من أصحاب الإمام جعفر الصادق، وتوفى فى حدود سنة ١٢٠ هـ (أعيان الشيعة، القسم الثانى من الجزء الأول ص ١٦٦ طبعة ١٩٦٠).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودعا إلى حب علي وولائه، وأول من أطلق لفظ الشيعة على أتباعه ومريديه، ولولاه لم يكن للشيعة عين ولا أثر.

قال العلامة الحلى فى كتاب «نهج الحق»: ذكر الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، والثعالبى فى تفسيره أنه لما نزلت الآية ٢١٤ من سورة الشعراء: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ جمع النبى ﷺ من أهل بيته ثلاثين، فأكلوا وشربوا، ثم قال لهم: من يضمن عنى دينى ومواعيدى، ويكون خليفتى، ومعى فى الجنة؟ قال علي: أنا. فقال له: أنت.

ونقل الشيخ حسن المظفر فى كتاب (دلائل الصدق جـ ٢ ص ٢٢٣) عن كتاب كنز العمال جـ ٦ ص ٣٩٧ أن النبى ﷺ قال لعشيرته: قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على أمرى هذا؟ قال علي: أنا يانبى الله أكون وزيرك عنده فأخذ النبى ﷺ برقبته، وقال: إن هذا أخى، ووصيى، وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لولدك علي[1].

وبهذه المناسبة ننقل ما ذكره الأديب المصرى عبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه «محمد رسول الحرية، قال فى ص ٨٠ الطبعة الأولى» ورأى محمد ﷺ أن يجمع أسرته من بنى عبد المطلب، ويدعوهم إلى الإيمان بما جاء به، ليس أحب إليه من عشيرته وأولهم فى بيته، وبدأ يتكلم. وبدأوا يسمعون لمحمد، وهو يحدثهم عما جاء به. ولكن أحدا لم يستجب إليه: إلا علي بن أبى طالب[2] وحده الذى انتفض يؤكد أنه سينصر محمدا بسيفه. وضحك من الاستخفاف بعض الكبار، فقد كان علي هذا أصغر الحاضرين، كان إذ ذاك ما يزال فتى صغير السن، تتقدم به سنه إلى أول الشباب.

ولكن محمدا لم يستخف بحماسة علي، فقد قام إليه، وعانقه وبكى .

وقال الأمينى: فى الجزء الأول من كتاب «الغديرى»[3] ص ٩ طبعة ١٣٧٢هـ: بعد أن رجع النبى ﷺ من حجة الوداع، وهى الحجة التى لم يلبث بعدها إلا قليلا، وصل إلى غدير ثم جمع الناس، وخطبهم وقال فيما قال:

---

(١) دلائل الصدق جـ ٢ ص ٢٢٣. (٢) نفس المصدر ص ١٨.

(٣) هذا الكتاب للشيخ عبد المحسن الأمينى، وقد بلغ ١٢ مجلدا ضخما، جمع فيه النصوص على خلافة علي من طريق السنة ورواياتهم عن النبى ﷺ، وقد بلغت المئات، وطبع الكتاب أكثرمن مرة فى طهران... من علماء الشيعة فى هذا العصر ومحل ثقة الجميع واحترامهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه يقولها ثلاث مرات، . ثم قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من بغضه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأظهر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب[1].

ثم ذكر الأميني أنه روى هذا الحديث ١٢٠ صحابيا، و٨٤ تابعيا، أما طبقات رواته من أئمة الحديث وأساتذته فقد بلغوا ٣٦٠، وبلغ المؤلفون فى حديث الغدير من السنة والشيعة ٢٦ مؤلفا.

وقد اعتبر الشيعة حديث الغدير هذا نصا بخلافة علي بعد النبى ﷺ، ومن هنا اهتموا به هذا الاهتمام البالغ، وأهل السنة يعترفون بصحة هذا الحديث، يقولون بصدوره عن النبى ﷺ، ولكنهم أوّلوا الولاء بالحب والإخلاص، لا بالحكم والسلطان، فحديث «من كنت مولاه فعلى مولاه» أشبه عندهم بحديث «يا علي لا يحبك إلا منصف، ولايبغضك إلا منافق» وغيره من الأحاديث الدالة على مكانة أهل البيت وعلو شأنهم، والحب وعلو الشأن شيء، والنص عليه. . . . . شيء آخر.

وأجاب الشيعة عن ذلك بأن قول النبىﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلى مولاه» يدل صراحة على أن نفس ولاية النبىﷺ الدينية والدنيوية هى بعينها قد جعلها النبى ﷺ لعلي بعده، إذ جعل عليا نظير نفسه فى أنه أولى بهم من أنفسهم، ولا شيء مثل ذلك، وإلا كان للفظ المولى ألف معنى ومعنى.

٥ - لفظ الشيعة:

وكما أثبت الشيعة من كتب السنة وأقوالهم أن النبىﷺ هو الذى بعث عقيدة التشيع ودعا إليها أثبتوا أيضا من طرق السنة أن النبى ﷺ أول من أطلق لفظ الشيعة على من أحب عليا وتابعه، قال الشيخ محمد حسين المظفر فى كتاب «تاريخ الشيعة» ص ٥ طبع النجف:

جاء فى كتاب (الصواعق المحرقة) لابن حجر وفى كتاب (النهاية) لابن الأثير أن النبى ﷺ قال: يا علي إنك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين.

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجـاء فى الدر المنثور للـسيـوطى أن النبى ﷺ قال: إن هذا ـ وأشـار إلى علي وشيعته ـ لهم الفائزون يوم القيامة.

ثم قال صاحب «تاريخ الشـيعة»: فكانت الدعوة إلى التشيع لعلـي من محمد ﷺ تمشى منه جنبا لجنب مع الدعوة إلى شـهادة لاإله إلا الله محمد رسول الله. وبـهذا يتبين معنا أن المصدر الأول والأخير لشيعة علي والتشيع هو النبى ﷺ دون سواه[1].

رأى محمد باقر الصدر:

أما الشـهيد الصدر فيتحدث عن نشأة التشـيع وظـهور الشـيعة ككيان حـول على ـ عليه الســلام ـ فيوضح أن هناك اتجـاهين نشآ فى صفوف الـصحابة فى عهـد الرسول الكريم ﷺ:

الأول: اتجاه يتـقيد بالنص فى كل مـجال من مجـالات الحياة ولا رأى فيـه بعد البيان النبوى بالاجتهاد مقابل النص، سواء فى مجال العبادة أو السياسة أو شئون الحرب ... إلخ.

الثانى: اتجاه يؤمن بإمكانية الاجتهاد مقابل النص فى بعض المجالات.

وهذان الاتجاهان قد تجسدا بشكل تيارين عندما واجها النص النبوى على أطروحة إمامـة علي ـ عليه السلام ـ، فاجـتهد ذلك الفـريق مقابل النص، والتزم الفـريق الآخر بالنص، وبذا ولد الكيان النص من حول الإمام علي ـ عليه السلام ـ.

ثم يوضح ذلك بنص قوله: «وهذان الاتجاهان اللذان بدأ الصراع بـينهما فى حياة النبى ﷺ قـد انعكسا على مـوقف المسلمـين من أطروحـة زعامـة الإمام علي -عليـه السلام- للدعوة بعد النبى ﷺ، فالممثلون للاتجاه التعبدى وجدوا فى النص النبوى على هذه الأطروحة سببا ملزما لقبولها دون توقف أو تعديل، وأما الاتجاه الثانى فقد رأى أنه بإمكانه أن يتحـرر من الصيغة المطروحـة من قبل النبى ﷺ إذا أدى اجتهاده إلـى صيغة أخرى أكثر انسـجاما فى تصوره مع الظروف[2]. وهكذا نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول ﷺ مباشرة متـمثلين فى المسلمين الذين خضعوا عمليـا لأطروحة زعامة الإمام

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٨٩.

(٢) التشيع نشأته معالله هاشم الموسوى. ص ١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علي ـ عليه السلام ـ وقيادته التى فرض النبى ﷺ الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة. وقد تجسد الاتجاه الشيعى منذ اللحظة الأولى فى إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي ـ عليه السلام ـ وإسناد السلطة إلى غيره».

تعقيب وتحرير:

يقدم السيد محمد باقر الصدر لرأيه بمقدمة أوضح ما فيها خطؤها، وإن كانت تخضع لتقسيمات عقلية واضحة وتحمل فى ثناياها عناصر الحقيقة، وخطؤها هو أنه جعل النص فى مقابل العقل، وهناك العقليون وهناك النصيون لكن مع القضايا الدينية يختلف مفهوم النظر العقلى عن غيره والنص فى الشرع مقدم على العقل وإذا وجد النص فلا اجتهاد ـ إلا تفسيرا أو تأويلا وتوفيقا كل ذلك خدمة له. لا اجتهاد مع النص ـ وحين لا يكون نص يبدأ الاجتهاد. ويقول بعض الأئمة: «إن صح الحديث فهو مذهبى» فالنص فى القضايا الدينية ليس مقابلا للاجتهاد وإنما هو مكمل. وهذا ولا شك قضية تثير الجدل لا تحسمه.

وكان هدف السيد محمد باقر الصدر ـ رحمه الله ـ من وراء هذا التمهيد الجدلى هو بيان أن النبى ﷺ عهد إلى علي فوقع خلاف جوهرى بين أصحاب الاتجاه الاجتهادى وبين الاتجاه النصى فغلب الاتجاه الاجتهادى الاتجاه النصى فكانت النتيجة كما يقول باقر الصدر: أن تجسد الاتجاه الشيعى منذ اللحظة الأولى فى إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي وإسناد السلطة إلى غيره... لا شك أننا نقدر حق الإمام علي حق قدره ونتولى آل البيت ولا نبخس حق الصحابة وكلهم كملة لهم التحية والتبجيل، وذلك ما يؤكد غديرخم وتلك هى الولاية الأدبية، أما الولاية السياسية فغدير خم يتضمنها تأويلا ولا يقصدها تصريحا لذلك كان من رأى الإمام زيد ابن علي زين العابدين وفق قوله:

إنه «لا مانع من ولاية الفاضل مع وجود الأفضل ولا تفاضل بين العشرة المبشرين بالجنة، وهذا هو التاريخ. وما نظن عليا نبذ بيعة أبى بكر ولا نظنه خرج عليه كما خرجت عليه عائشة وطلحة والزبير، ولا نظن أبا بكر قد خرج على عهد النبى لعلي». يقول الشهرستانى فى كتابه (نهاية الأقدام)[1] فى الإمام والخلافة: «فإن قيل قد أظهر

(١) نهاية الأقدام ص ٤٩٣ تحقيق جيوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النبى ﷺ ذلك يوم غدير خم، حيث أمر الناس بالدرجات. وخاطب الناس، وأخذ بيد علي وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار» وهذا حين نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... (٦٧)﴾ [المائدة] وقد فهم الجماعة من قوله: «من كنت مولاه فعلى مولاه» الخلافة، حيث هنأه عمر، فقال: بخ بخ يا علي أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة» وقال ﷺ: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى وقد قال ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» إلى غير ذلك من الأخبار.

قيل: إن اقتنعتم بمثل هذه الأخبار فخذوا منا فى حق أبى بكر كذلك حيث روى مسلم فى صحيحه أنه قال: ائتونى بدواة وكتف أكتب لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه اثنان، وقال: ليصل بالناس أبو بكر...).

يصعب على الذين يتولون الإمام عليا الاستكانة إلى هذا الرأى ـ وهو وإن كان يخدم الشيعة فى مراحلها التاريخية وهى مناصرة أولوية علي فى البيعة، إلا أنها تشوه تاريخ الإمام علي من حيث أرادت تزكيته. فقد جعلته صاحب فرقة وكتلة سياسية. وتدعيم هذا الرأى هو تدعيم لفكرة الخوارج على الشرعية ويكون علي أول الناكثين.

أما روايات إضرام النار على بيت فاطمة من أبى بكر ومن أبى بكر بالذات لما يطعن فى روايات التاريخ التى لا تتحرى ذكر تقدير أقدار الرجال، فلا يجدر بأبى بكر أن يقوم محرقا ببيت فاطمة... ولا بيت فاطمة هو الذى يعتدى عليه ظلما ولا المجتمعون فيه لإجبار علي على البيعة.

أما موقف علي من بيعة أبى بكر كما ذكرها البلاذرى والطبرى فى السقيفة.

يرى صاحب أنساب الأشراف أنه لما قبض رسول الله ﷺ:

* انحاز الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى سعد.

* واعتزل علي والزبير وطلحة فى بيت فاطمة.

* وانحاز المهاجرون إلى أبى بكر، ومعهم أسيد بن حضير فى بنى عبد الأشهل. ورسول الله ﷺ فى بيته لم يُفْرَغْ من أمره بعد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأتى أبا بكر آت فقال: أدرك الناس قبل أن يتفاقم الأمر وتكون فتنة مالم يغلقها الله بك فلن تغلق أبدا، وعلي بن أبى طالب والعباس متشاغلان به.

٦ - علي يعاتب أبا بكر:

مضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاءوا السقيفة، وإذا «سعد» على طنفسة متكئا على وسادة وعليه الحمى، فقال له أبو بكر: ما ترى أبا ثابت؟

فقال: أنا رجل منكم، فقال الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير.

قال أبو بكر: «نحن أول الناس إسلاما وأوسطهم دارا وأكرمهم أنسابا. وأمسهم برسول الله ﷺ رحما. وأنتم إخواننا فى الإسلام وشركاؤنا فى الدين، نصرتم وآويتم وآسيتم، فجزاكم الله خير الجزاء. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. ولن تدين العرب إلا لهذ الحى من قريش. فقد يعلم ملأ منكم أن رسول الله ﷺ قال: الأئمة من قريش فأنتم أحق أن لا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم».

فقال الحباب، صاحب رأى منا أمير ومنكم أمير: ما نحسدك ولا أصحابك، ولكنا نخشى أن يكون الأمر فى أيدى قوم قتلناهم فحقدوا علينا.

فقال أبو بكر: إن تطيعوا أمرى تبايعوا أحد هذين الرجلين: أبا عبيدة بن الجراح وكان عن يمينه وعمر بن الخطاب وكان عن يساره.

فقال عمر: وأنت حى؟ ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذى أقامك فيه رسول الله فابسط يدك لله فبسط يده، فبايعه عمر، وبايعه أسيد بن حضير وبايع الناس وازدحموا على أبى بكر[1].

فقالت الأنصار: قتلتم سعدا وقد كادوا يطؤونه. فقال عمر: اقتلوه إنه صاحب فتنة فبايع الناس أبا بكر إلا سعدا فإنه راغ ثم أتى الشام.

يقدم العباس عليا:

وسمع العباس وعلي التكبير فى المسجد، ولم يفرغوا من غسل رسول الله ﷺ فقال علي: ما هذا؟ فقال العباس: ما قدمتك إلى شيء إلا وتأخرت عنه وكان قد قال

(١) أنساب الأشراف، البلاذرى جـ ٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

له لما قبض رسول الله ﷺ: اخرج حتى أبايعك على أعين الناس، فلا يختلف عليك اثنان فأبى، وقال: أو منهم من ينكر حقنا ويستبد علينا؟ فقال العباس: سترى أن ذلك سيكون فلما بويع أبو بكر قال العباس: ألم أقل لك يا علي!

فخرج علي فقال: يا أبا بكر ألم تر لنا حقا فى هذا الأمر؟ قال: بلى، ولكن خشيت الفتنة وقد قلدت أمرا عظيما. فقال علي: قد علمت أن رسول الله أمرك بالصلاة وأنك ثانى اثنين فى الغار وكان لنا حق ولم تستشر، والله يغفر لك وبايعه.

لم يتخلف علي ـ رضى الله عنه ـ عن مبايعة أبى بكر ولم يتأخر كما تذهب روايات أخرى ولم يخش فاطمة فلم يبايع حتى وافاها الأجل فلما خرج حين سمع تكبير المسلمين وأشاح وجهه عن رأى العباس الذى أراد أن يقدمه على أبى بكر... غير أن عليا ـ وهو يبايع أبا بكر ـ ذكره بأنه لم يطب خاطره دون رد الخاطر كالتى قالها للأنصار أو التى قالها لعمر وأبى عبيدة حين قدمهما للمبايعة. فلم يكن علي مجانبا للصواب حين عاتب أبا بكر وهو يبايعه قائلا: يا أبا بكر ألم تر لنا حقا فى هذا الأمر... وهذا الحق الذى يذكر به أبا بكر هو الحق الأدبى.. وليس الحق الشرعى الذى نحلته الشيعة له. والحق الأدبى يتمثل فى تقديم أبى بكر لعمر وتقديم عمر لأبى عبيدة بن الجراح كما تشير بعض روايات المؤرخين: كان علي يود أن يعرضوا عليه الأمر تجملا.

٧ - علي ينفى الحق الشرعى:

يقول أبو مخنف: لما استخلف عثمان دخل العباس على «علي» فقال: ما قدمتك قط إلا تأخرت، قلت لك وقد اضطر النبى ﷺ فاسأله عن هذا الأمر لمن هو بعده. فقلت: أكره أن لايقول لكم، لا تستخلف أبدا ثم توفى، فقلت أبايعك فلا يختلف عليك اثنان فأبيت، ثم توفى عمر، فقلت لك: قد أطلق الله يدك وليس عليك نصير، فلا يدخل فى الشورى فأبيت فما الحيلة؟

وينفى أن يكون حقا بالغلبة:

قدم خالد بن سعيد بن العامل من ناحية اليمن بعد وفاة النبى ﷺ فأتى عليا وعثمان فقال: أنتما الشعار دون الدثار. أرضيتم يابنى عبد مناف أن يلى أمركم غيركم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال علـي: أو غلبة تراها؟ إنما هو أمر الله يضعـه حيث يشاء. . . وقال غـير المدائنى: بايع خالد أبا بكر بعد شهرين.

٨ - علي وأبو سفيان وأحقية أبي بكر:

فى حوار جـرى بين أبى سفيان وعلي: قـال أبو سفيـان لعلي: أترضون أن يلى أمركم ابن أبى قحافة، أما والله لإن شئتم لأملأنها عليه خيلا ورجالا، فقال لست أشاء ذلك، ويحك يا أبا سـفـيان «إن المسلمـين نصـحـةٌ بعضـهم لبـعض وإن نأت ديارهم وأرحامهم، وإن المنافقين غششةٌ بعضهم لبعض وإن دنت ديارهم وأرحامهم ولو لم يكن أبو بكر لها أهلا رأينا أبا بكر لها أهلا ما خليناه وإياها.

ويروى المدائنى أن أبا سفـيان جاء إلى علـي فقال: يا علي بايعـتم رجلا من أذل قبيلة من قـريش، أما والله لئن شئت لأخرمنهـا عليه من أقطارها ولأملأنها عليـه خيلا ورجالا، فقال له علي: إنك طالمـا غششت الله ورسولهﷺ والإسلام فلم ينقصه ذلك شيـئا، إن المؤمنين وإن نأت ديارهم وأبدانهم نصحـة بعضهم لبـعض. وإنا قد بايعنا أبا بكر وكان والله لها أهلا. ثم قال: إنى لأرى مقالتك بوتقة لها الدم.

وذلك ما قام به معاوية حين أشعل نار الفتنة فى صفين. وفى مقالة أبى سفيان.

رأى فلهاوزن والشيبى:

ويلخص الشيبـى وجهة نظر فلهاوزن التى بثهـا فى كتابه: الخوارج والشـيعة فى تطور التشيع منذ ظهوره حتى مقتل الحسين بقوله: «إن التشيع كان تكتلا إسلاميا ظهرت نزعته أيام النبى ﷺ وتبلور اتجاهه السياسى بعد قـتل عثمان، واستقل الاصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين»[1]. إن ماذكره الشيبى ملخـصا نلاحظه فى وجهة نظر فلهاوزن وهو يرسم منحنى بيانيا للخط الشيعى فيقول:

أما معـاوية فكان معه أهل الشام وكان يحـكم الشام منذ عهد طويل، فاسـتحال الكفاح بينه وبين علي إلى كفاح بين أهل الشام وأهل العراق.

وانتهى الكفاح بقتل علي إلى غيـر صالح أهل العراق، ولكن هؤلاء لم يندمجوا فى وحدة الدولة الإسلاميـة التى التأمت من جديد بفضل معاوية إلا كـارهين مرغمين،

(١) الشيبى، كامل الصلة بين التصوف والتشيع (بغداد ١٩٦٣ ص ١٧).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبظواهرهم لا بقلوبهم ومن ثم أصبح على راية كفاحهم ضد نير أهل الشام، كانوا ينظرون إلى الفترة القصيرة التى كانت فيها الكوفة، لا دمشق حاضرة الإسلام وفيها بيت مال المسلمين - على أنها المثل الأعلى. فتمكن الشيعة أولا فى العراق. ولم يكونوا فى الأصل فرقة دينية، بل تعبيرا عن الرأى السياسى فى هذا الإقليم كله فكان جميع سكان العراق وبخاصة أهل الكوفة، شيعة علي تفاوتوا فيما بينهم، ولم يقتصر هذا على الأفراد بل شمل أيضا القبائل ورؤساء القبائل[1]. ولا يلاحظ بينهم إلا درجات فى التشيع، لقد كان علي فى نظرهم رمزا لسيادة بلدهم المفقودة. ومن هنا نشأ تمجيد شخصيته وآل بيته، تمجيدا لم يرتح له فى أثناء حياته، على أنه ما لبث أن تكونت فى أحضان مذهب سرى عبادة حقيقية لشخصه.

بعد أن استتب الأمر لمعاوية فى العراق بعث المغيرة بن شعبة الثقفى واليا على الكوفة، وأطلق يده فى كل شيء ولكنه أوصاه بشتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي وإقصائهم وترك الاستماع منهم وألا يدع ذم علي والوقوع فيه واللعن لقتلة عثمان من فوق المنبر فى صلاة الجمعة وأن يرغم بعض أنصار علي المتحمسين، وقد ذكر له أسماؤهم على شهود هذا اللعن. ومن بين أنصار علي حجر بن عدى، وهو من أبرز رجال كندة (وإن لم يكن رئيسهم)، شهد المواقع مع علي فى صفين وغيرها. فكان حجر إذا سمع ذلك قال: بل إياكم ذم الله ولعن. فكان المغيرة يحذره ولكن لا يؤذيه. وفى أواخر أيامه حدث ذات يوم أن قام المغيرة على عادته بذم علي، فنهض حجر بن عدى «فنعر نعرة فى المغيرة سمعها كل من كان فى المسجد وخارجا منه، وقال: إنك لا تدرس بمن تولع فى هرمك أيها الإنسان! مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا قد حبستها عنا، وليس ذلك لك، لم يكن يطمع فى ذلك من كان قبلك.

وقد أصبحت مولعا بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين.

فقام معه أكثرمن ثلثى الناس يقولون: صدق والله حجر وبر. مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا. فإنا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدى علينا شيئا»[2].

فنزل المغيرة من المنبر وذهب إلى بيته، فدخل عليه القوم من بنى ثقيف وحدثوه

(١) الخوارج والشيعة، فلهاوزن، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوى.
(٢) الطبرى جـ ٢ ص ١١٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الأمر، فقال لهم المغيرة: «إنى قد قتلته! إنه سيأتى أمير بعدى فيحسبه مثلى، فيصنع به شبيها بما ترونه يصنع بى، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة. إنه قد اقترب أجلى وضعف عملى ولا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز فى الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة»[1].

وكان مصير حجر عن خلف المغيرة أشد نكرا، فقد خلفه على الكوفة فى سنة ٥١ زياد بن أبيه والى البصرة فجمع له المصرين: الكوفة والبصرة.

وليس فيما يورده أبو مخنف نبأ عن قدومه الأول إلى الكوفة، أما المدائنى فيذكر أنه ورد فى عدد قليل من الرجال وصعد المنبر وقال فيما قال: إنه وجد الهدوء والنظام يسودان الكوفة وليس بحاجة إلى أن يبدأ عمله بإقرارهما كما فعل فى البصرة. فشكر له الحاضرون مدحه بأن رجموه بالحجارة! فاحتل مداخل المسجد ولم يسمح لأحد بالخروج إلا إذا أقسم أنه لم يرم حجرا، فأبى عدد قليل منهم أن يقسم فقطع أيديهم.

وهذه القصة من الجمال بحيث تمنع من الاستمرار فى سردها. إذ يبدو أنها غير حقيقية. أما عوانة[2] فيرى غير هذا. فلا يذكر حدوث شىء حينما صعد زياد على منبر الكوفة لأول مرة. وحينما أخذ فى ختام خطبته يلعن عليا ويقرظ عثمان، لم يرتفع صوت بالرد عليه[3].

ويرجع زياد هادئا إلى البصرة وولى عمرو بن الحريث نائبا عنه باستمرار. وإنما تجاسر الشيعة - وقد استفحل أمرهم بسبب رفق المغيرة بهم. وعلى رأسهم حجر بن عدى - تجاسروا على عمرو بن الحريث وحصبوه بالحجارة فى أثناء الصلاة. فأسرع زياد قادما من البصرة إلى الكوفة وصعد المنبر «وعليه قباء سندس ومطرف خز أخضر قد فرق شعره» وأبرز للحاضرين خطورة الموقف وهدد حجرا، وكان حجر جالسا فى المسجد حوله أصحابه. فانسحب من المسجد مع أصحابه[4].

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١١٤.

(٢) انظر فيما نقل الطبرى جـ ٢ ص ١١٤.

(٣) كذا يقول المؤلف، بينما الذى ورد فى الطبرى فى الموضوع المشار إليه جـ ٢ ص١١٤، ١١٥ فى رواية عوانة نفسه مانصه: «ثم صعد المنبر (أى زياد» ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرظهم، وذكر قتلته ولعنهم، فقام حجر ففعل مثل الذى كان يفعل بالمغيرة»، فلسنا ندرى من أين للمؤلف أن يقول: إن صوتا لم يرتفع بالرد على زيادا).

(٤) وتبعا لهذا تكون حركة حجر قد وقعت فى السنة التى تولى فيها زياد إمارة الكوفة أى سنة ٥١ هـ، بينما الطبرى فى رواية المدائنى (جـ ٢ ص ١٦٢) وإيليا النصيبى يذكران أن تلك الحركة وقعت فى السنة التى مات فيها زياد، أى سنة ٥٣هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول فلهاوزن: وعند هذه النقطة يستأنف أبو مخنف ـ فى نقل الطبرى ـ روايته، فيقول: إن زيادا قد اتخذ إجراءاته من المسجد. فبدأ بأن وثب بأشراف أهل الكوفة وصاح فيهم: أنتم معى، بينما إخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر، فإن لم تظهروا لى براءتكم بالأفعال. فسآتيكم بأهل الشام. وأثر كلامه هذا فيهم، فأسرع كل منهم يبحث عن قريبه، حتى أقاموا جل من كان مع حجر بن عدى فى السوق (عند المسجد)، وأقبل الشرطة بالعمد فاشتدوا على أصحاب حجر وزياد يشهد هذا وينظر إليهم وهو على المنبر. أما حجر نفسه فقد خلصه أبو العمر طه الكندى وكان وحده ألين معه سيف ضرب به أحد الذين طاردوا حجرا، ولكن لم يقتله. فاستطاع حجر بن عدى أن يبلغ قومه فاجتمع حوله منهم عدد غير قليل. فلما رأى زياد أن الشرطة غير كافية استدعى كل المحاربين فى الكوفة. ولكنه احتفظ بمضر معه فى الميدان المواجه للمسجد، وأرسل أهل اليمن[1] ـ وكان حجر منهم ـ ضد حجر حتى لا يقع شر واختلاف بين مضر وأهل اليمن فى هذه المناسبة الحرجة وحتى يخضعهم وذلك بأن يكونوا شرطة ضد قبيلتهم وصاحبهم فى الرأى ـ لأنهم كانوا بقلوبهم شيعة. ولكن كندة وأقرباءهم من حضرموت لم يذعنوا لأمر زياد؛ لأنه كان موجها ضدهم أيضا أو على الأقل ضد واحد من بنى قومهم. كذلك فعل الأزد فى الظاهر، وكانوا يعتذرون من بيت إلى بيت لما أن جاءوا حتى كندة، وتركوا لمذحج وهمدان أن يتقدموا، فتقدموا دون عائق حتى بلغوا بيت حجر، وهناك قوبلوا بمقاومة: إذ جاء بنو جبلة، لما هوجم بيته، وهم بنو قرابة، وعفوا عنه، كذلك انتصر له حينئذ أولئك الذين لم يكونوا على وفاق معه. ويقال: إنه رجاهم أن يغمدوا سلاحهم وأن يتفرقوا على أن هذا كان سيحدث دون رجائه هذا.

(١) من الغريب أنه لم يرد ذكر لربيعة، ومن مضر بكر، تميم، هوازن، باهلة (أعصر)، أسد وغطفان. ومناهل اليمن: (أ) مذحج وهمدان، (ب) والأزد، وبجيلة وخثعم، والأنصار، وخزاعة وقضاعة، ويضاف إليهم أيضا كندة حضرموت، ويجب أن لا يخلط بين الأنصار المذمورين من أهل اليمن، وبين الأنصار فى المدينة أهل العالية، الطبرى (ج٢ ص ١٣٨٢) فهم من المدينة وينتسبون إلى مضر. وفى عهد عمر الأول قسم أهل الكوفة إلى سبعة أقسام، لم يذكر الطبرى ج١ ص ٢٤٩٥ غير ستة: (١) كنانة والأحابش، وجديلة، (٢) قضاعة (غسان بن شبام)، بجيلة، خثعم، كندة، حضرموت، الأزد، (٣) مذحج، حمير، همدان، (٤) تميم والرباب، وهوازن، (٥) أسد غطفان ومحارب، نمر ضبيعة (بكر) وتغلب، (٦) إياد، عك، عبد القيس، أهل هجر الحمراء (من الفرس). أما زياد فقد قسم الكوفة إلى أربعة: ١ـ أهل المدينة ٢ ـ تميم وهمدان ـ ٣ ـ وربيعة وكندة ـ ٤ ـ مذحج وأسد. وفى كل ربع من هذه الأرباع اختلطت القبائل بعناصر، فكانت وحدات صناعية (حددت ١٩ الأوضاع المكانية؟) متساوية القوى تقريبا لم يكن على رأسها رؤساء قبائل، بل كان على رأسها حكام يعينهم الوالى. وكان أقوى القبائل فيهم قبيلتى مذحج وهمدان المتحالفتين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستطاع حجر الفرار، فأمر زياد الشرطة بمطاردته. فتنقل من حى إلى حى ومن شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل[1]، يقوده أدلاء نجباء خلال هذه المساكن؛ لأن العطف العام كان فى جانبه فوجد ملجأه حيثما سعى، ولكنه لم يشأ جلب الضرر على من يلوذ بهم، فكان يترك ملجأه كلما اقتربت الشرطة منه، وأخيرا وجد الأمن فى منزل أحد الأزديين، فقد فقدت الشرطة أثره فتوقفوا عن مطاردتهم غير المثمرة. هناك ألقى زياد المسئولية كلها على قبيلة كندة وهدد رئيسها، محمد بن الأشعث، بالعقاب الشديد إن لم يسلم معسكر الأمن (أى حجر) فى ظرف ثلاثة أيام.

فنهض حجر بنفسه وتقدم إلى زياد بعد أن أخذ منه وعدا بأنه لن يحكم فى أمره بل سيرسله إلى الخليفة ليتصرف فى شأنه. وأقبل على زياد فى غداة باردة وعليه برنس، فحبس، وعبثا حاول أن يحتج على هذه المعاملة، وبقى فى السجن خمسة عشر يوما[2]، فى أثنائها لم يكن لزياد عمل إلا طلب رؤساء أصحاب حجر فأتى منهم باثنى عشر رجلا تقريبا، وكانوا من قبائل مختلفة، وقد أخبر عنهم أهلهم أو كشفا بأنفسهم عن أنفسهم. ولكن أحدا منهم لم ينكر تشيعه لعلي ليخلص من عقاب زياد.

وراح زياد يؤلف صيغة اتهام لحجر وأصحابه بأن حجرا جمع إليه الجموع وأظهر ختم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين.

وتزاحم رءوس الأرباع فى الكوفة ليوقعوا بالشهادة على صحة هذا الاتهام، حتى اضطر إلى رفض كثيرين. إذ كان يكفيه سبعون شاهدا. قد اعتذر بعضهم فيما بعد عن توقيعه كما أنكر بعضهم الآخر أنه وقع[3].

وتنصل القاضى شريح بن هانئ الحارثى من التوقيع (وكان يقول: ما شهدت، ولقد بلغنى أنه قد كتبت شهادتى). ثم أعطيت صيغة الاتهام للشرطيين اللذين سيأخذان المسجونين إلى معاوية فى الشام.

وذات مساء[4] سار هذا الموكب الحزين، ولما انتهوا إلى جبانة عرزم نظر قبيصة

---

(١) كانت القبائل تسكن فى أحياء، والبطون فى شوارع، والأسر فى منازل، كانت الأحياء تحمل أسماء القبائل (هرب حجر من كندة إلى نخع ومنها إلى الأزد) والشوارع تحمل أسماء البطون. وهكذا يعطينا تخطيط الكوفة صورة عن أنساب العرب. ولم يكن الأمر فى البصرة مختلفا عن هذا.

(٢) المترجم: فى الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧ س ٧: «فحبس عشر ليال».

(٣) لم يكن التوقيع بأيدى الشهود أو على الأقل بأيدى جميع الشهود.

(٤) غالبا ما تذكر أوقات النهار، دون بيان تواريخ الأيام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن ضبيعة العبسى إلى داره فإذا بناته مشرفات، فقال للشرطيين ائذنا لى فأوصى أهلى. فأذنا له فأوصاهن بالصبر. ولم يتقدم أحد لتخليص هؤلاء المساجين رغم سهولة هذا الأمر، فكان خوف القبائل هذا من سلطان زياد ممثلا فى شرطيين أشد وقعا عليهم من خطر الموت. فقالوا: إن هذا هو نهاية شعبهم. وتوقف الجميع فى موضع قبل دمشق يدعى مرج عذراء (وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلا). فبقى المسجونون هناك موثقين بالقيود. وتسلم معاوية كتاب اتهامهم فصدق ما فيه ولم يصدق ما قاله حجر وكلف رسله تبليغه لمعاوية، على أنه سيسأل زيادا عن حقيقة الأمر فتأيد لديه ما قاله زياد فى كتاب الاتهام. وأمر معاوية بإخلاء سبيل كل منهم.

ولكنه رفض شفاعة مالك بن هبيرة السكونى فى حجر بن عدى، على أنه شاء مع ذلك أن يعفو عنه وعن الباقين بشرط أن يبرأوا من علي، قبل أن يفعل ذلك منهم اثنان، فنجوا بحياتهم، وإن كانا بعد ذلك قد نقضا تبرؤهما من علي، أما الستة الباقون فقتلوا. وقد أرعدت خصائل حجر فنكأ أبط الكفن معمدا والقبر قد حفر والسيف قد شهر، ولكنه ثبت مع ذلك على موقفه. وجاء مالك بن هبيرة بعد فوات الأجل والسيف؛ ذلك أنه قد غضب؛ لأن معاوية لم يستجب لشفاعته فى حجر، فجاء مع جماعة من كندة وسكون إلى مرج عذراء ليخلص المسجونين بالقوة. ولكنهم كانوا قد قتلوا. ولكن غضبه على الخليفة (معاوية) زال لما أن أرسل إليه هذا بمائة ألف درهم وقال للرسول أن يذكر له أن قتل حجر وفر على معاوية القيام بحملة ثانية ضد العراق - بعد الحملة الأولى فى عهد علي وبعد وفاة علي - ذلك أن حجرا كان يستثير الفتنة فى العراق. وكفن المقتولون وصلى عليهم ودفنوا كأشراف المسلمين[1].

وفى رواية قصيرة نقلها الطبرى. (ج٢ ص ١١٥ وما يليها عن ابن الكلبى عن محمد بن سيرين يصور لنا حجر بن عدى فى صورة الحمل البرىء الذى اقتيد إلى المجزرة. وقد أراد أهله وأصحابه حمايته، ولكنه أسلم نفسه ليبعثوا به إلى الشام. فلما دخل على معاوية حياه تحية صادقة فقال معاوية: «أما والله لا أقبلك ولا أستبقيك!

(١) راجع أبيات عبد الله بن خليفة التى أوردها الطبرى جـ ٢ ص ١٤٨ - ص ١٥٤، ومنها يبدو أنه يشير إلى أن عدد الذين قتلوا كانوا ثمانية، ولعل السبب فى ذلك أن الاثنين اللّذَيْن تبرآ من علي قد أدخلا فى الحساب. وكان معاوية قد أبقى عليهما، على أنهما قد قتلا أيضا فيما بعد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخرجوه فاضربوا عنقه»[1] ولم يشترك معه أحد فى حركته. وأشد من هذا سذاجة ما نراه ورد عند اليعقوبى[2] ممثلا رأى الشيعة. حقا، إن ميل أبى مخنف مع حجر: فحجر لم يشأ من أصحابه أن يردوا على القوة بالقوة، بيد أنه مهد السبيل لذلك. ولكن واقع الحال الحقيقى يظهر لديه بوضوح. فأبو عمر طه الشيعى هو أول من استل سيفه وأسال الدم، بينما كان الشرطة لا يستخدمون غير العصى، كذلك حارب عبد الله بن خليفة الطائى إلى جانب حجر بشجاعة[3].

وليس من شك فى أن حجرا كان ثائرا على السلطة وأنه كان يريد أن يجتذب إلى حكمه أهل الكوفة؛ ولهذا فإن زيادا حسب تقديرنا كان على صواب ومعاوية قد استعصم الحلم. لكن الأمر فى ذلك العهد كان على خلاف تقديرنا الحالى. فإن قتل مسلم لا يحل إلا إذ قتل مسلما آخر أى أن النفس بالنفس، وكان الجارى أن يقتص صاحب الثأر بنفسه وكانت السلطة العامة إنما تساعده على ذلك وتهيئه له[4]، والجريمة ضد الدولة تنحصر فى الخروج عن الإسلام، لا فى الخيانة العظمى، مادام لم يصبها فى مقتل، أما أن يقتل شخص بسبب خروجه على الدولة ـ مهما يكن ما يبرر هذا القتل ـ فهذا أمر كان يثير ثائرة الناس، وبخاصة فى مثل هذه الحالة الأولى التى شمل الأمر فيها رجالا بارزين جدا، حتى إن أهل الكوفة بعامة قد شعروا بالخزى، وإن والى خراسان ربيع بن زياد. قد مزق قلبه الأسى وإن كان غير رقيق القلب. وأظهرت عائشة غضبها الشديد. وكذلك فعل الحسن البصرى بعد ذلك بزمان ولم يكن يخضع فى ذلك ـ كما خضعت عائشة أم المؤمنين ـ لدافع شخصية خاصة. ويقال: إن معاوية لما حضرته الوفاة شعر بتأنيب ضمير عنيف لقتله حجر بن عدى. ولكنه تبرأ من ذلك قائلا: إنه لما انحشر عنه قريش استسلم لتأثير زياد. وطبعا كان عصب القبائل، وبخاصة اليمانية القوية. على السلطة بالغا؛ إذ شعرت بأنه من العار ألا تخلص أبناءها من بطش السلطان.

واتحدت معارضة القبائل مع المعارضة الدينية. واشتد غضب الشيعة وخاصة لقتل حجر، وكان استشهاده مقدمة لاستشهاد سيد الشهداء الحسين بن على[4].

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١١٦ س٩ ١٠.

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٢٧٣ وما يليها.

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ١٢١، ص ١٢٩.

(٤) الخوارج والشيعة فلهاوزن، ترجمة عبد الرحمن بدوى جـ ١ ص ١١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

الشيعة العربية
الحسن والحسين

الفصل الأول
نشأة الشيعة وأصولها

الفصل الثانى
شيعة الحسن والحسين

الفصل الثالث
الشهيد الإمام الحسين وحق العدل السياسى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

نشأة الشيعة وأصولها

١ - عروبة الفرق والطموح السياسى:

إن الفرق أو الطوائف التى حرك ظهورها التحكيم أو نشأت بعيده أو قبيله أو معه هى طوائف عربية كانت ترمى بادئ ذى بدء إلى غرض سياسى محض، على الرغم من ظهورها بالمظهر الدينى لكنها ليست بالعربية الخالصة إنما كان يقف فى صفوفها مواليها يسعون وراء أهدافهم من وراء مبادئ الإسلام التى تقر المساواة والعدالة والحرية، وكان يستعملهم العرب فى تصفية حسابهم.

يرى المؤرخون كما قدمنا أن الرمامة - وهى القيادة العليا للمسلمين - أولى المسائل التى فرقت المسلمين ومزقتهم شيعا وأحزابا:

- حزب بنى أمية.
- حزب أهل المدينة.
- حزب الشيعة.
- حزب الخوارج.
- حزب المرجئة.

أما حزب بنى أمية ومركزه بلاد الشام الذى كان له النفوذ فى ذلك الحين فكان يدافع عن عرش الأمويين، إذ كان يرى أن أمراء هذا البيت أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبو بكر وعمر وعثمان)، وأنهم أصحاب الحق فى الأخذ بثأر عثمان والمطالبين بدمه كما كانت تربطهم به أواصر القربى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يناوش بنى أمية حزب أهل المدينة الأنصار الذين كانوا يرون أن وصول بنى أمية إلى الحكم إنما هو انتصار أعدائهم القدامى من مشركى مكة.

أما حزب أهل الشيعة فإنهم يشاركون الأنصار فى عدائهم لبنى أمية؛ لأنهم غاصبون للخلافة، ويرون أنهم مع أهل البيت المتحمسين للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ولا سيما حق علي.

وحزب الخوارج كان يشارك حزب المدينة والأنصار وحزب الشيعة فى عدم اعترافه بحكم بنى أمية ويرى أن الخلافة حق الأكفاء من الأمة بالاختيار والشورى، كما كانوا يرمون أعداءهم السياسيين بالكفر ويعاملونهم معاملة الكفار، وكان شعارهم «لا حكم إلا لله» تلك العبارة التى لم يكن يقصد بها إلا حكم السيف. كانت تلك الأحزاب ترى أن جهادها لحزب بنى أمية الحاكم جهاد دينى لا يكاد يختلف فيه عن جهاد الكفار، وكانوا يستندون فى ذلك إلى سيرة يزيد الأول والثانى.. إلى. وإلى هتك يزيد الأول حرمة الحرم المكى بعد استيلاء عبد الملك على مكة. واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس وإلقائهم خطبة الجمعة قبل الصلاة وقتلهم الحسين بن علي، ولسبهم الإمام عليا جهارا لإنكاره حق معاوية فى الخلافة.

على أن الأمويين لم يستطيعوا القضاء على تلك الأحزاب واستئصال شأفتها. فالخوارج والشيعة الذين مزق جند بنى أمية أوصالهم وأفقدوهم خيرة رجالهم، وإن لم يبق لهم من القوة ما يمكنهم من مقاومة الأمويين وإعلان الحرب عليهم جهاراً، فإن مبادئهم ما فتئت أن انتشرت، وذلك لملاءمتها لتلك الحالات الاجتماعية الجديدة التى نشأت فى الدولة العربية فى الشرق. وهكذا تطور هذا النزاع السياسى للأحزاب العربية إلى جهاد اجتماعى دينى.

وبعد استشهاد علي ـ عليه السلام ـ استمر التشيع كحزب سياسى، وخط فكرى حول الحسن بن علي ـ عليه السلام ـ فبايعه المسلمون، وتجمعوا حوله، غير أن الظروف السياسية اضطرت الإمام الحسن إلى مصالحة معاوية، والتنازل عن الخلافة له[1]، وفق شروط ومبادئ اتفق عليها الطرفان، فنكث معاوية عهده هذا، ونصب ابنه يزيد خليفة

---

(١) جلال الدين السيوطى/ تاريخ الخلفاء، اشترط الإمام الحسن على معاوية «على أن تكون له الخلافة بعده.... فأجابه معاوية الى ما طلب»: ص١٧٩، التشيع تاريخه، معالمه، هاشم الموسوى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للمسلمين، خلافًا للعهد الذى أبرمه مع الإمام الحسن ـ عليه السلام ـ، وخلافًا لمبدأ الحكم الذى نصت عليه الشريعة الإسلامية وجرى عليه عرف الخلفاء السياسى.

ونقرأ فى كتاب الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبى سفيان شرطًا اشترطه الحسن لحماية شيعة آل البيت ودفع التسلط الأموى عنهم، ويكشف هذا الكتاب امتداد كتلة التشيع، كقوة سياسية وفكرية يحرص أهل البيت على حمايتها، والحفاظ عليها؛ لأنها كانت قوة المعارضة المستهدفة من قبل الحزب الأموى.

غير أن معاوية لم يف بذلك وعانت شيعة أهل البيت أشد المعاناة من الإهانة والقتل والتعذيب والملاحقة والحرمان ما ضج به التاريخ.

من هنا كان الخوارج والشيعة هما أقدم الفرق السياسية والدينية فى الإسلام، وأبرزهما وأبعدهما أثرا فى تاريخه الحى المضطرب، نشأتا فى حضن حزب واحد هو حزب أنصار الإمام علي، فتعاديا فيما بينهما، ثم شاءت ظروف الخصومة المشتركة ضدهما أن يتحالفا معا على مضض، ولكن مبادئ كل منهما كانت منذ البداية فى تعارض تام مع مبادئ الآخرين.

٢ - نشأة الشيعة فى الوضع اللغوى والتاريخى والاصطلاحى:

١- الوضع اللغوى:

الشيعة فى اللغة: الأنصار والأتباع، أما فى الاصطلاح، فإن الكلمة المذكورة تطلق على كل من يوالى عليا وأهل بيته ـ رضى الله عنه ـ قال الفيروزآبادى: «وشيعة الرجل، بالكسر، أتباعه وأنصاره، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد، والاثنين، والجمع المذكر والمؤنث. وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار اسما لها بخاصة»(١).

٢- فى العرف التاريخى والاصطلاحى:

أ - رأى الشهرستانى:

الشيعة هم: الذين شايعوا عليا ـ رضى الله عنه ـ على الخصوص، وقالوا بإمامته

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادى ـ لسان العرب، ابن منظور - مختار الصحاح، الفيومى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخلافته: نصا ووصية؛ إما جليا وإما خفيا. اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده؛ وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ينصب الإمام بنصبهم؛ بل هى قضية أصولية، وهى ركن الدين؛ لا يجوز للرسل ـ عليهم السلام ـ إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله،ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولى لتبرى: قولا، وفعلا، وعقدا؛ إلا فى حال التقية. ويخالفهم بعض الزيدية فى ذلك. ولهم فى تعدية الإمامة: كلام، وخلاف أثير؛ وعند كل تعدية، وتوقف: مقالة ومذهب، وخبط. وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية.

بعضهم يميل فى الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه.

ب - النوبختى وزمن النبوة:

أما النوبختى (ت ٣٠٠هـ) فيقول: إن أول فرق الشيعة هم فرقة علي بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ، المسمون شيعة علي ـ رضى الله عنه ـ فى زمان النبى ﷺ وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته[1]، روى الصدوق (ت ٣٨١هـ) أن ابن عباس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعد الله تبارك وتعالى لشيعة علي من الثواب زلفى وكرامة[2]. وقال رسول الله ﷺ أيضا: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب، ثم التفت إلى علي ـ رضى الله عنه ـ وقال: هم شيعتك يا علي وأنت إمامهم»[3].

٣ - مع السقيفة وظهور فكرة التشيع:

أما الرأى الثانى فيجعل ظهور التشيع يوم السقيفة ويستند أصحاب هذا الرأى إلى

---

(١) فرق الشيعة (إستانبول، ١٩٣١) ص١٥.

(٢) علل الشرائع (النجف، ١٩٦٣) ص١٥٦.

(٣) الديلمى، محمد، إرشاد القلوب، ج١ (بيروت، ١٣٨١) ص١٩٣. الإمامية ومن سلف من الشيعة، د.عبد الله فياض.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصريح جماعة من الصحابة يوم السقيفة بوجوب تقديم علي. روى الطبرى أن الزبير اخترط سيفه وقال: «لا أغمده حتى يبايع علي...»[1].

ويبين اليعقوبى أن جماعة من المهاجرين والأنصار تخلفوا عن بيعة أبى بكر «ومالوا مع علي بن أبى طالب منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب...»[2].

٤ - تاريخ ظهور الشيعة يوم الجمل:

أما الرأى الثالث فيجعل تاريخ ظهور الشيعة يوم الجمل، قال ابن النديم: إن عليا قصد طلحة والزبير؛ ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه (و) تسمى من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول شيعتى وسماهم - عليه السلام - الأصفياء، الأولياء، شرطة الخميس، الأصحاب»[3].

٥ - مع صفين وظهور التكتل الشيعى:

أما الرأى الخامس فيجعل تأريخ ظهور الشيعة بعد رجوع علي من صفين، ومن أشهر القائلين بالرأى المذكور الأستاذ وات مونتجمرى (Watt) يقول وات: إن بداية حركة الشيعة هو أحد أيام سنة (٦٥٨م - ٣٧هـ) حين قال جماعة من أتباع علي: إننا نوالى من والاك ونعادى من عاداك. ويعنى ذلك أن هؤلاء كانوا مستعدين للقول بأنهم يقبلون بصورة مطلقة حكم علي فى القضايا المهمة. ويبدو أن وات استند برأيه المذكور على نص ورد فى الطبرى يقول فيه: «لما قدم علي الكوفة وفارقته الخوارج وثبت إلى الشيعة فقالوا: فى أعناقنا بيعة ثانية نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت»[4].

يذهب بعض المؤرخين القدماء والمحدثين إلى أن التكتل الشيعى للإمام علي لم يكن وليد التحكيم كما هو الرأى الشائع والمشهور إنما يرون ظهوره منذ اجتماع السقيفة وهو رأى تميل إليه الشيعة، كما أن الخوارج يوصلون فرقتهم منذ الرسول ﷺ. والرأى كما يسوقونه:

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ج٢ (القاهرة، ١٩٣٨) ص٤٤٤.

(٢) التاريخ، ج٢ (النجف، ١٣٥٨) ص١٠٣.

(٣) الفهرست (القاهرة، لا. ت) ص٢٦٣. تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة، د. عبد الله فياض.

(٤) المصدر السابق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدأ اسم علي يظهر خارج السقيفة كمرشح للخلافة، وكأحق شخص بها، كما ظهر في داخل السقيفة وفي وسط المتحاورين، فبعد أن خرج المهاجرون والأنصار المجتمعين في دار رسول الله ﷺ، لانتشار خبر السقيفة، قام الفضل بن العباس فخطب الناس المجتمعين هناك قائلا: «يا معشر قريش، إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم وصاحبنا[1] أولى بها منكم»[2].

وهكذا بدأ التكتل حول علي والمناداة بإمامته في اليوم الأول من وفاة رسول الله ﷺ، وبدأ التشيع الفكرى والسياسى يظهر ككتلة وكيان، يحدثنا اليعقوبى عن ذلك بقوله:

«وتخلف عن بيعة أبى بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبى طالب، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب»[3].

ويبدأ هذا التكتل المتشيع لعلي يواصل مساعيه السياسية واجتماعاته، ويطالب بإعادة النظر فيما جرى في سقيفة بنى ساعدة[4]، فقد نقل اليعقوبى ذلك بقوله: «وبلغ أبا بكر وعمر أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبى طالب فى منزل فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأتوا فى جماعة حتى هجموا الدار...»[5].

أما ابن قتيبة فقد روى خبر هذا الاجتماع السياسى بالنص التالى:

«وأن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ تفقد قومًا تخلفوا عن بيعته عند علي ـ كرم الله وجهه ـ، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم، وهم فى دار علي فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال لهم: والذى نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها»[6].

وإذن، نستطيع أن نؤرخ لظهور التشيع ككيان سياسى وفكرى متميز منذ الساعات الأولى التى تلت وفاة رسول الله ﷺ حينما احتدم الجدل حول المرشح للخلافة

(١) وصاحبنا: يعنى علي بن أبى طالب ـ عليه السلام.
(٢) تاريخ اليعقوبى ٢: ١٢٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التشيع نشأته ومعالمه، هاشم الموسوى.
(٥) المصدر السابق: ص١٢٦.
(٦) ابن قتيبة الدينورى، الإمامة والسياسة ١: ١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والإمامـة، وبذا نفهم أن التـشيع ولد فى صفـوف الصحابة فى المدينـة المنورة، وحفظا لوحدة المسلمين وتماسكهم آثر علـي ـ عليه السلام ـ الانسحـاب من المواجهة السيـاسية ومال إلى العزلة أيام الخليفتين أبى بكر وعمـر، واكتفى بإبداء النصح والمشورة والمشاركة فى تسديد المسيرة الإسلامية.

ولقد سـجل له التاريخ أروع تعبـير عن التضـحية والإيثار حـين عبر عن موقـفه بقوله: «والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين»[1].

غيـر أن الاتجاه والرؤى والجـماعة المشـايعة لعلي بدأت بالظهـور كقوة سـياسـية وفكرية، وكحزب له وجهات نظر فى سياسة الدولة وجهازها الحاكم عندما تسلم عثمان الخلافة وتسلط الحزب الأموى على السلطة.

(١) نهج البلاغة/ الخطبة ٧٤. التشيع نشأته ومعالمه، هاشم الموسوى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

شيعة الحسن والحسين

١ - الحسن بن علي وحق التنازل عن البيعة:

قامت فرقة الشيعة ـ أول ما قامت ـ إثر لعبة التحكيم السياسية التى قلبت موازين القوى السياسية وحار أمامها أهل التقوى والورع، باختيار خليفة بويع بالمدينة عاصمة النبوة كما بويع فيها الخلفاء الأربع وقام على المبايعة أهل الحل والعقد.. ثم يخرجون عليه وقد حشدوا على أطراف الكوفة جيشا فيضطر كارها أن يلاقيهم بعيدا عن المدينة فى مكان خروجهم عليه.. فى موقعة الجمل وكانوا من العشرة المبشرين بالجنة، ومن أهل الحل والعقد وانتهت المعركة لكن بقى صراع الخارجين عليه فى صفين ولم تنته المعركة ولم ينته التحكيم حتى هذا اليوم.

لكن انتهت مبادئ أصول الحكم تماما: انتهت البيعة ومعها الشورى واعتبارية المواطن وضاعت قيم أخلاقية: الصدق، والإخلاص، والحفاظ على العهد.. وبقيت الرشاوى والمساومة والاستبداد وحكم الفرد والسيف والطعن والحرب والضرب وقيم النفاق والغدر والتآمر والحكم لمن غلب.

من هنا كان للإمام علي حق مشهود على التاريخ حق يتجدد مع ورثة التاريخ يتجدد بمعاذيره وتبريراته وزاد من أوار اشتعاله ما قاله الأصفهانى[1]:

---

(١) مقاتل الطالبيين. ص ٢٤، أبو الفرج الأصفهانى ٢٨٤ - ٣٥٦هـ، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر مؤسسة الأعلى للمطبوعات - بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«من احتيل فى قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه، ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه».

* فالإمام علي غدر به قومه وسلبوا بيعته بالإمامة فأعطاها من لا يملك وهو التحكيم لمن لا يستحق وهو معاوية.

* وبعث معاوية من دس السم فى العسل للحسن وقال: إن لله جنودا فى العسل.

* وأرسلت الكوفة للحسين رسائل تمتلئ خروجا عن البيعة وخرجوا مع ابن زياد.

وفى كربلاء ودائما يلقى بيت النبوة ما لقيه الإمام علي والحسين دعاة المبدأ القائم على البيعة والشورى من الذين يقيسون المبدأ بمنفعة ولهم منطقهم.

قال لقيادات الجيوش المحاربة: اختاروا واحدة من ثلاث:

١- إما أن تدعونى فأنصرفَ إلى حيث جئت.

٢- وإما أن تدعونى فأذهبَ إلى يزيد.

٣- وإما أن تدعونى فأذهبَ للجهاد فى ثغور المسلمين.

وبلغ هذه الخيارات عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد، فرفض قبول أى واحد منها وأمر بالحرب أو النزول تحت حكمه.

٢- معاوية بن يزيد يتحسر على أهل الشورى:

فلماذا لا يتحسر معاوية بن يزيد على أهل الشورى ثم يرفض الوصية لمن يخلفه ويقول كيف أوصى وأمنع أهلها.

قال المسعودى[١]: وملك معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه، فكانت أيامه أربعين يوما إلى أن مات، وقيل: شهران، وقيل غير ذلك، وكان يكنى بأبى يزيد، وكنى حين ولى الخلافة بأبى ليلى، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب، وفيه يقول الشاعر:

إنى أرى فتنة هاجت مراجلها ... والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له: اعهد إلى من رأيت من أهل

(١) مروج الذهب ج٣ للمسعودى، تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيتك، فقال: والله ماذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إنى لبرىء منها متخل عنها، اللهم إنى لا أجد نفرا كأهل الشورى فأجعلها إليهم ينصبون [لها] من يرونه أهلا لها، فقالت له أمه: ليت أنى خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام، فقال لها: وليتنى يا أماه خرقة حيض ولم أتقلد هذا الأمر، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء بوزرها ومنعها أهلها كلها! إنى لبرىء منها.

فلم يكن وجود الشيعة فى التاريخ عبثا فهم يريدون تصحيح مسيرة التاريخ كما كان يطمح إليها ذلك الخليفة التقى معاوية بن يزيد، فلم يكن انعزالهم عن مجرى التاريخ العام الإسلامى شذوذا أو نفورا إنما هو رد فعل لفعل تاريخ ظالم.. لقد صنعه الأمويون صنيعة مؤامرة وتولاه العباسيون صنيعة مؤامرة وهم جميعا يغدرون بآل البيت ويسومونهم سوء العذاب.. فانتصر الشيعة لآل البيت حبا ومودة قصد تصحيح مجرى التاريخ العام غير ظالمين لأنفسهم.

وإذا كانت الشيعة يتمسكون بمسئوليتهم أمام التاريخ فإن المسئولية التى أرقت تاريخهم هى مسئولية تاريخية شأن أى مسئولية تاريخية على الوارثين أن يصححوا من أمر مسيرتها بالبحث والدراسة والتقارب وتصحيح المجرى التاريخى العام وتقارب التلاقى بتقليص الهوة التى صنعتها الأحقاد والأطماع بين الأصول.. وهى ولاشك واحدة:

-حق الأمة السياسى فى البيعة والشورى وفق دستورها الإسلامى وتاريخ خلفائها.

٣- بيعة الحسن بن علي:

«بويع الحسن بن علي بن أبى طالب» على قول المسعودى[1] «بالكوفة بعد وفاة أبيه بيومين من شهر رمضان من سنة أربعين، ووجه عماله إلى السواد والجبل. وقتل الحسن عبد الرحمن بن ملجم على حسب ما ذكرنا. ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن علي لخمس بقين من شهر ربيع الأول فى سنة إحدى وأربعين وكانت وفاة الحسن - وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة - بالسم، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ».

(١) مروج الذهب ج ٥ ص ١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويروى أحمد بن حنبل[1] أنه بعد مقتل علي - رضى الله عنه - خطب الحسن بالناس فقال: «لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل. وقد نصبه رسول الله». وقد ناقشنا[2] صحة هذه القضية آنفا وسنضطر فى هذا الفصل ما إذا كان هناك دليل على أن الحسن قد تعين سابقا لتولى الخلافة بعد علي.

من المحتمل جدا أن فكرة الحق الإلهى التى تقضى بأن يعين كل إمام خلفه لم تبتعد بوضوح فى أول الأمر عن الآراء الأخرى بالخلافة. فإن عادة القبائل العربية أن يختاروا من يلى السابق فى الأهمية بمجتمعهم، ولا شك أن هذا المبدأ هو الذى تقرر بموجبه اختيار أو تعيين الخلفاء الثلاثة الأول أبى بكر وعمر وعثمان. ويمكن أيضا اعتبار أن عليا جاء إلى الخلافة فى الزمن الذى قدمته الظروف إلى الصف الأول دون أن يكون لذلك أية علاقة مع الإرث أو التخصيص، ويمكن أن نتوقع بصورة طبيعية أن تئول الخلافة بعد علي إلى معاوية؛ فإنه قد برهن عندما كان عاملا لعثمان فى الشام على مقدرة فائقة فى الإدارة.

٤ - الحسن بين البيعة وادعاء النور الإلهى:

ولكن الإسلام لم يعد محصورا فى جماعة عربية متحدة يحكمها العرف والعادات القديمة، فقد تعرف المسلمون الذين اشتركوا بحملات الفتح ضد الدولة البيزنطية فى الغرب بفكرة الانتخاب الإرثى وكذلك الذين ألفوا جيوش الاحتلال فى أراضى الدولة الفارسية المنقرضة. وجاءت تعاليم ابن سبأ ودعوته فى أن عليا بكونه وصى النبى ﷺ انتقل إليه النور الإلهى أو الروح الإلهى الذى تكون من توريثه من شاء. وفى خلال خلافة علي التى دامت أربع سنوات انقسمت المملكة الإسلامية. وحدثت حروب أهلية شديدة دامت عدة سنوات فوضعت حدا فاصلا بين الشرق والغرب. وكانت خطة التحكيم المرسومة لعقد هدنة بعد معركة صفين قد فشلت فى توحيد الشعور. فقد كان الخليفتان المتنافسان علي ومعاوية يلعن أحدهما الآخر علنا فى الصلاة. وكان المجتمع الإسلامى بأجمعه منهوك القوى من جراء سنوات الحرب. وبينما كان كلا الطرفين يستعيد قوته كان هناك توتر وعدم طمأنينة بصورة مستمرة جعلت إيجاد

(١) أحمد بن حنبل ج١ ص ١٩٩ المسند.

(٢) انظر الباب الأول وحديث غدير خم - عقيدة الشيعة دوايت دونلدس ص٨٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استقـرار فى الحكومة أمرا مستـحيلا[1]. ففى هذا الزمن الذى يسوده الاضطراب العام اغتيل علي - رضى الله عنه - ونعلم أن الحسن اختيـر بعد ذلك مباشرة ليخلف عليا فى الكوفة. وحسب حـديث مقبول عند الشـيعة[2] أن عليا قبل أن يـموت دفع إلى الحسن «الكتب والسلاح» بحضور أهل البيت ورؤساء الشيعة وقال له: يا بنى أمرنى رسول الله ﷺ أن أوصى إليك وأن أدفع إليك كـتبى وسـلاحى كـما أوصى إلى رسـول الله ﷺ ودفع إلى كتبه وسلاحه وأمرنى أنه إذا حضـرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين «ثم أقبل على ابنه الحسين فقال» وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى ابنك هذا ثم أخذ بيد علي بن الحسين ثم قـال لعلي بن الحسين: وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفـعها إلى ابنك محمد بن علي وأقرئه من رسول الله ﷺ ومنى السلام».

٥ - الحسن يهيئ نفسه للتنازل:

ويقول السيوطى: إن الحسن أرسل إلى معاوية يسأله تسليم الأمر إليه على أن تكون له الخلافـة من بعده. ويعـلق مترجـم كتاب السـيوطى أنه لم يقـرأ هذا الخبـر فى مكان آخر[3]. ولعل أهم كتابين اليوم فى إيران تبحث حياة الأئمـة بالتفصيل هما كتابا (جنات الخلود وروضة الشـهداء) وقرأ هذان الكتابان فى المآتم الحـسينية[4] ويذكر هذان الكتابان معلومات إضافـية على تنازل الحسن عن الخلافة. فيذكـران أن جيش الحسن كان يبلغ فى أول الأمر أربعين ألفا وجـيش معاوية ستين ألفا وقد نجح معـاوية فى إرشاء قواد الحسن. وفى الكتابين مـحاولة خالصـة لجعل الإمام علي حق فى تنازله ويلقـيان اللوم على طمع بعض القواد وغدر أهل الكوفة المتكرر.

ولا يعلم بالضبط مدة خـلافة الحسن القصيرة فـيقول المسعودى: إنها كـانت ستة أشهر وثلاثة أيام[5] ويصفه بأنه «أول خليفة خلع نفسه وتنازل لغيره».

٦ - المستشرقون والحسن:

ومن الأحاديـث التى تصف حب محـمد ﷺ لحفـيديه الحـسن والحسـين ذلك

---

(١) عقيدة الشيعة داويت م. دونلدس تعريب ع. م ص ٨٣.

(٢) أصول الكافى للكلينى ص ١١٠. (٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة جارت ص ١٩٤

(٤) جنات الخلود، الفصل التاسع، وروضة الشهـداء تاليف حسن واعظ كشفى (٩١٠هـ) الفصل ٦ص٧ ١ -١١٧، براون =.Persian Literature under Tartar Dominion ص ٤٤١، ٣-٥، ٥٠٤.

(٥) التنبيه والإشراف المسعودى (المكتبة الجغرافية العربية) ج٨ ص ٣٠٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحديث الذى يعزى معرفة حوادث المستقبل بدرجة بارزة، عندما أخذ الحسن وهو طفل وصعد به المنبر وخاطب الناس قائلا: «أتنكرون لابنى هذا.. إنه سيد وسيصلح الله به بين طائفتين من المسلمين»[1] ويذكر أن هذين الحفيدين كانا يشبهان أباهما وجدهما فى نواح مختلفة؛ فالحسن يشبه محمدا ﷺ بما فوق السرة وعليا بما تحتها بينما يشبه الحسين عليا فى أعلاه ومحمدا ﷺ فى أسفله[2].

إلا أنه مهما كانت درجة التشابه الظاهرى مع النبى ﷺ فإن الأخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والشجاعة والضبط النفسى[3] والقابلية العقلية السياسية لقيادة شعبه بنجاح. وقد عرفت دائرة المعارف الإسلامية شخصيته مختصرة بأن «الشهوات النفسية ونقص النشاط والذكاء هما الصفتان الأساسيتان لأخلاقه. وبعد وفاة فاطمة فى شرخ صباها لم تكن علاقته مع أبيه أو إخوته على أحسن ما يرام. وقد قضى زهرة شبابه فى الزواج والطلاق، حتى بلغ عدد من تزوجهن المائة، وسمى بالمطلاق وخلق لعلى أعداء خطرين. وقد برهن على كثرة تبذيره بأن خص كل امرأة من نسائه بمال كثير. فنرى بذلك كيف بذرت أموال طائلة خلال خلافة على، بالزمن الذى كانت الخلافة نفسها شديدة الافتقار».

ويعترف الشيعة أنفسهم أنه كان للحسن ستون زوجة وعدد كبير من السرايا فنقرأ أن عدد نسائه الشرعيات بلغ الستين عدا السرايا أو اللواتى تمتع بهن. وقد ذكر أن عددهن كان بين الثلثمائة والتسعمائة. وقد طلق كثيرا منهم، فسمى بالمطلاق[4].

٧ - مآخذ المستشرقين على الحسن فى الميزان:

إن موقف المستشرقين من الإمام الحسن مثل لامانس وبروكلمان داويت ودونلدس وفيليب حتى يكاد يكون رأيا واحدا يتردد بينهم كما لو كانوا أجمعوا عليه سابقا بعدم مخالفته، لخصته دائرة المعارف الإسلامية بقلم لامانس، وكنا نرى فى كتاباته عن الإسلام والرسول ﷺ وتاريخه زيفا وتحريفا متعمدا ينتميان إلى روح الرعيل الأول الذى نذر نفسه لخدمة الأغراض الاستعمارية وقراءاته تطفح بالمرارة العرقية. وسار على نهجه

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص١٩١، البخارى ٩٥، الترمذى ٤٦ - ٣٠ الطيالسى رقم ٨٧٤، «الحسن».
(٢) جنات الخلود الفصل ٩، البخارى ٦١ -٢٣ الترمذى ٤١ - ٦٠ والطيالسى رقم ١٣.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة الحسن بقلم لامنس.
(٤) عقائد الشيعة الكتاب الرابع الفصل ٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صاحب كتاب عقيدة الشيعة فى قوله السابق. والذى نراه أن دائرة المعارف الإسلامية ومن عزف على قيثارتها قد أخطأ وصف الإمام الحسن من عدة وجوه[1]:

- الوجه الأول: لقد كان الإمام الحسن بن علي عميقا فى رؤيته للأحداث التاريخية التى تجرى حوله بعيد النظر فى قراءتها وهو من الذين سبقوا عصره. من هنا جاء تنوره لتفسير أحداثها أبعد مما كان يتوقعه إدراك قواته وليس كما يدعى الاستشراق أدت سطحيته ونقص نشاطه الذهنى إلى الانسجام، قد يكون الأمر مقبولا لو لم يقدم حيثياته التاريخية: يا أهل العراق إنى سخى بنفسى عنكم لثلاث:

-قتلكم أبى وطعنكم إياى.

- وانتهابكم متاعى.

- وقد كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوما لا يثق بهم أحد إلا غلب، ليس أحد يوافق الآخر فى رأى، ولا يطمئن فى خير ولا شر وقد لقى أبى منهم أمورا عظاما؛ لذلك أدرك أنه من الصعب السيطرة على شيعة تكونت من رعاع البوادى الذين لا يستطيعون ضبط أنفسهم ولا يحتملون سيطرة قائد عليهم غير شيخ عشيرتهم ولا يفرقون بين الناقة والجمل.

- الوجه الثانى؛ عدم تكافؤ الصراع بين المعسكرين، فلا ينبغى أن نغض الطرف عن أن معاوية حاكم الشام خبير حرب ويملك جيشا منظما وتمرس بالإدارة. يعرف كيف يسوس الأعراب وشيوخ القبائل بمختلف الحيل حتى استتب له الأمر، فوقر فى ذهن الحسن أن منازلته هى الضياع.

- الوجه الثالث: وهو يخص الحسن، وصفه بالمزواج المطلاق فتلك عوائد العرب وأعرافهم ووجاهة الأشراف ومزيتهم. والذى لا شك فيه أن التنازل عن الخلافة قد تم تحت ظروف قاهرة جعلت حرية الإرادة معطلة والإكراه قائما.

٨ - أول المبايعين قيس بن سعد بن عبادة:

لما قتل علي بن أبى طالب بالكوفة، قام قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى فخطب، فحمد الله وأثنى عليه ثم وصف فضل علي وسابقته وقرابته والذى كان عليه

(١) أنساب الأشراف ج٣ البلاذرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى هديه وعدله وزهده، وقرظ الحسن ووصف حاله ومكانه من رسول الله ﷺ، والذى هو أهله فى هديه وحلمه واستحقاقه الأمر بعد أبيه ورغبهم فى بيعته ودعاهم إلى طاعته. وكان قيس أول من بايعه، ثم ابتدر الناس بيعته. وقد كان قيس عاملا على أذربيجان.

٩ - الحسن يخرج للبيعة:

وخرج عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس بعد وفاة علي ودفنه، فقال: إن أمير المؤمنين - رحمه الله تعالى - قد توفي برا تقيا عدلا مرضيا أحيا سنة نبيه ﷺ وابن عمه، وقضى بالحق فى أمته وقد ترك خلفا رضيا مباركا حليما، فإن أحببتم خرج إليكم فبايعتموه، وإن كرهتم ذلك فليس لأحدٍ سلطانٌ على أحد، فبكى الناس وقالوا: يخرج مطاعا عزيزا.

فخرج الحسن فخطبهم فقال: اتقوا الله أيها الناس حق تقاته، فإنا أمراؤكم وأضيافكم، ونحن أهل البيت الذى قال الله: ﴿ ...لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب][1] والله لو طلبتم ما بين جابلق[2] وجابرس[3] مثلى فى قرابتى وموضعى ما وجدتموه، ثم ذكر ما كان عليه أبوه من الفضل والزهد والأخذ بأحسن الهدى وخروجه من الدنيا خميصا لم يدع إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، فأراد أن يبتاع بها خادما، فبكى الناس ثم بايعوه.

وكانت بيعته التى أخذ على الناس أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم تحتمل الشك فى موقفه فقال بعض من حضر: والله ما ذكر السلم إلا ومن رأيه أن يصالح معاوية.

ثم مكث أياما ذات عدد يقال خمسين ليلة ويقال أكثر منها وهو لا يذكر حربا ولا مسيرة إلى الشام خامر ابن عبد الله بن عباس الشك فى موقف الحسن وهو الذى حضر التحكيم وكان له فيه رأى فكتب إليه كتابا يحفزه إليه حفزا وينيط به المسئولية. قال البلاذرى: وكتب إليه عبد الله بن عباس كتابا يعلمه فيه أن عليا لم يجب إلى الحكومة إلا وهو يرى أنه إذا حُكم بالكتاب يرد الأمر إليه، فلما مال القوم إلى الهوى فحكموا به

---

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٥٠٣ للمقارنة المسعودى، مروج ج ٢ ص ٤٢٥.
(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٢٩. ابن أعثم، الفتوح ج ٢ ص ٣، ابن أبى الحديد، شرح ١٥ ص ٢٦.
(٣) الإمامة ج ١ ص ١٥٨، (بم) الطبرى، تاريخ، ص ٥٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونبذوا حكم الكتاب رجع إلى أمره الأول فشمر للحرب ودعا إليها أهل طاعته، فكان رأيه الذى فارق الدنيا عليه جهاد هؤلاء القوم، ويشير عليه أن ينهض إليهم وينصب لهم ولا يعجز ولا يهن.

وتم الإعلان عن معاوية خليفة بالقدس كما تم الإعلان عن الحسن وهو الابن الأكبر لعلي بن أبى طالب خليفة فى الكوفة، إلا أن هذه الازدواجية فى الخلافة لم تستمر لفترة طويلة. وكان معاوية ـ وهو سليل عشيرة أمية التى تعتبر جزءا من الطبقة العليا الراسخة فى مجتمع الجزيرة العربية ـ يتمتع بنفوذ أكبر وقوة عسكرية أكبر من الحسن. وأرسل معاوية مندوبين عنه؛ لكى يقنعوا الحسن أن يعتزل السلطة ويعود إلى المدينة المنورة ويحصل على معاش كبير مع وعده بعودة الخلافة ـ عقب وفاة معاوية ـ إلى العشيرة الهاشمية التى ارتفعت مكانتها إلى درجة عظيمة تمتع بها أحد أفراد هذه العشيرة ألا وهو نبى الله وبسبب اهتمام أفراد هذه العشيرة بتدعيم الدين الإسلامى الجديد القوى. ومات الحسن بسبب تعرضه لحالة من التسمم فى عام ٦٦٩.

١٠ - معاوية نكث بوعده:

ثم نكث معاوية بوعده حيث قام بتعيين ابنه يزيد خليفة فى أثناء فترة حياته. وهو بذلك قد أنشأ أسلوب السلالة الحاكمة وهو أمر لا نظير له فى دار الإسلام. وقضى هذا الإجراء على التقاليد السابقة التى تنادى بضرورة اختيار أكثر المسلمين ورعا وتقوى من بين عشيرة بنى هاشم أو عشيرة بنى أمية؛ ليكون زعيما للأمة الإسلامية. ومازال الحكم من خلال أسرة ملكية يلقى معارضة شديدة من جانب الكثير من كبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين. وهى معارضة ترتكز على أسس أيديولوجية.

وبحلول الوقت الذى مات فيه معاوية فى عام ٦٨ هـ كان الأمويون قد دعموا قوتهم وسلطانهم، إلا أن الشيعة كانوا لا يزالون متشددين فى آرائهم القائلة بأن عليا قد عين تعيينا إلهيا مقدسا؛ لكى يخلف النبى محمدا ﷺ وأن الرسالة الإلهية قد استقبلها بكل وضوح علي وأسرته، ولذلك فإن المنحدرين فقط من سلالة عائلة المسلم الحقيقى الأول هم الذين يصلحون لأن يحكموا دار الإسلام. وكأنه يجعل من كتابه عهد علي إليه وإن كان علي لم يعهد قبل موته عام ٤٠هـ بالخلافة لأحد من بعده، وأنه أجاب الناس الذين سألوه عن رأيه فى مبايعتهم الحسن «ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١ - الحسن وسياسة النهج السلمى:

على أن النهج السلمى فى سياسة الحسن تجاه معاوية ظهر منذ اللحظات الأولى لمبايعته بالخلافة؛ إذ اشترط على الناس من أجل الموافقة على بيعتهم له «..إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت»[١]. هذا بينما أراد أهل العراق مبايعته على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وعلى حرب المنحلين المضلين من أهل الشام، فرفض ذلك ولم يجدوا بُدا من الموافقة على ما اشترط عليهم[٢]. فقال الناس: «ما هذا لكم بصاحب، وما يريد القتال»[٣]. وقال بعضهم: «والله ماذكر التسليم إلا ومن رأيه أن يصالح»[٤]، وعلى الرغم من ذلك استقامت للحسن بيعة أهل العراق[٥]، والمدينة[٦]، بينما بايعه أهل مكة بتثاقل.

ورفض معاوية إعطاء الحسن البيعة، ودعاه حسب ما أورد البلاذرى إلى ترك الأمر له، ووعده بإعطائه مافى بيت مال العراق، وخراج أى الكور يشاء، يستعين بها على حوائجه.

مكث الحسن خمسين ليلة وهو لايذكر حربا ولا مسيرة إلى الشام، على الرغم من دعوة زعماء معسكره له بالتحرك[٧]. وشجع ذلك معاوية على المسير إلى العراق، والوصول إلى جسر منبج[٨]، ومعه جند فلسطين بقيادة عمرو بن العاص، وجند الأردن بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[٩]، مؤكدا أن توجهه إلى العراق جاء تلبية لرغبة أهله ودعوتهم له[١٠].

---

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٥٠٣ للمقارنة المسعودى، مروج ج ٢ ص ٤٢٥.

(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٢٩. أبو مخنف بن أعثم، الفتوح ج ٢ ص ٣، ابن أبى الحديد، شرح ١٥ ص ٢٦.

(٣) الإمامة ج ١ ص ١٥٨، (بم) الطبرى، تاريخ، ص ٥٨.

(٤) البلاذرى، أنساب ج٣ ص ٣٩، تاريخ ج ٦ ص ٦٢.

(٥) الطبرى تاريخ ج ٥ ٦٢.

(٦) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٤٥٨.

(٧) البلاذرى، أنساب ج٣ ص ٢٩.

(٨) البلاذرى، أنسباب ج ٣ ص ٣٦، ٣٧، الطبرى تاريخ، ٥ ص ١٢٩.

(٩) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٣٠.

(١٠) ن.م ٣ ص ٤٩ اليعقوبى تاريخ، ج٢ ص ٢١٤. الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ٥٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحث الحسن الناس على الجهاد وقتال أهل الشام[1]، وسار من الكوفة على رأس قوة ذكر البلاذرى أنها بلغت خمسين ألف مقاتل[2]، أرسل منها اثنى عشر[3]، وقيل عشرين ألف مقاتل[4] بقيادة قيس بن سعد[5]، أو عبيد الله بن عباس[6]، ونزلوا مسكنا من أرض العراق للحيلولة دون تقدم معاوية فى أراضيهم.

وصل الحسن إلى ساباط المدائن، وهناك نهب جنده فسطاطه، وطعنه رجل يدعى الجراح بن سنان فى فخذه، وأن سبب الطعن هو إخبار الحسن لجنده برغبته فى مصالحة معاوية. واتهم اليعقوبى المعسكر الشامى صراحة بتدبير الأمر بشكل مقصود لإثارة الفتنة داخل المعسكر العراقى، وبين أن الحادث جرى بسبب إشاعة كاذبة أطلقها أنصار معاوية بين صفوف قوات الحسن حول اتفاق الطرفين على الصلح، وهى إشاعة لم يدققوها، مع أنها جاءت بعد سلسلة أكاذيب عمد معاوية إلى تسريبها بين قوات خصمه حول مصالحة كل من الحسن وقيس بن سعد له.

١٢ - الحسن يجمع أمره:

فلما شخص عبيد الله بن العباس سار الحسن بعده واستخلف على الكوفة المغيرة ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وذلك بعد شهرين ويقال ثلاثة أشهر من بيعته، ثم سار الحسن فأتى دير كعب فبات به، ثم سار حتى أتى ساباط المدائن فنزل دون جسرها ما يلى ناحية الكوفة وخطب الناس فقال:

إنى لأرجو أن أكون أنصح خلقه لخلقه، وما أنا محتمل على أحد ضغينة ولا حقدا ولا مريد به غائلة ولا سوءا، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة، ألا وإنى ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمرى، ولا تردوا علي، غفر الله لى ولكم.

---

(١) البلاذرى، أنساب ج٢ ص ٣٣، اليعقوبى تاريخ، ج ٢ ص ٢١٤.
(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٣٤، ٣٦، اليعقوبى، تاريخ ج ٢ ص ٣١٤، الطبرى تاريخ ج ٥ ص١٥٩.
(٣) الطبرى، تاريخ ج ٥، ص ١٥٩، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.
(٤) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٩.
(٥) البلاذرى، أنساب ج٣٣ ص ٣٤، ٣٦.
(٦) اليعقوبى، تاريخ ج ٢ ص ٢١٥، المقدسى، البدء ج ٥ ص ٢٣٣٦ - ٢٣٣٧، ابن أبى الحديد شرح نهج البلاغة ج ١٦٦، ص٢٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٣ - الاعتداء على الحسن:

فنظر بعض الناس إلى بعض، وقالوا: عزم والله على صلح معاوية وضعف وخار. وشدوا على فسطاطه فدخلوه وانتزعوا مصلاه من تحته وانتهبوا ثيابه، ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى جعال الأزدى فنزع مطرفه عن عاتقه فبقى متقلدا سيفه، فدهش ثم رجع ذهنه، فركب فرسه وأطاف به الناس فبعضهم يعجزه ويضعضعه، وبعضهم ينحى أولئك عنه ويمنعهم منه. وانطلق رجل من بنى أسد بن خزيمة من بنى نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد، يقال له الجراح بن سنان وكان يرى رأى الخوارج إلى مظلم ساباط فقعد له فيه ينتظره، فلما مر الحسن دنا من دابته فأخذ بلجامها، ثم أخرج معولا كان معه،وقال: أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل، وطعنه بالمعول فى أصل فخذه، فشق فى فخذه شقا كاد يصل إلى العظم وضرب الحسن وجهه ثم اعتنقا وخرا إلى الأرض، ووثب عبد بن الحصل الطائى وبعضهم يقول عبد الله بن الحصل فنزع المعول من يد الجراح، وأخذ ظبيان بن عمارة التميمى بأنفه فقطعه وضرب بيده إلى قطعة آجر فشدخ بها وجهه ورأسه حتى مات.

وحمل الحسن إلى المدائن وعليها سعد بن مسعود عمّ المختار بن أبى عبيد الثقفى، وكان علي قد ولاه إياها فأدخلوه منزله، فأشار عليه المختار أن يوثقه ويسير به إلى مهارية علي أن يطعمه خراج جوخى سنة فأبى ذلك وقال للمختار: قبّح الله رأيك أنا عامل أبيه وقد ائتمننى وشرّفنى، وهبنى نسيت بلاء أبيه هل أنسى رسول الله ﷺ ولا أحفظه فى ابن بنته وحبيبه. ثم إن سعد بن مسعود أتى الحسن بطبيب وقام عليه حتى برأ وحوّله إلى أبيض المدائن.

١٤ - العراقيون يبايعون معاوية سرا:

وتوجّه معاوية إلى العراق واستخلف الضحاك بن قيس الفهرى وجدّ فى المسير وقال: قد أتتنى كتب أهل العراق يدعوننى إلى القدوم عليهم فأؤمّن بريئهم ويدقعون إلى بغيتى، وأتتنى رسلهم فى ذلك فسيروا إليها أيها الناس فإن كدر الجماعة خير من صفو الفرقة، وكانوا يدعونه أمير المؤمنين. ولما رأى عمرو جدّ معاوية فى المسير وإخدامه إياه، قال: قد علم معاوية والله أن الليث عليا قد هلك وغالته شعوب.

قالوا: ومرّ معاوية بالرقة ثم بنصيبين وهو يسكّن الناس ويؤمّن من مرّ به، ثم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أتى الموصل ثم صار إلى الأخنونية، فنزل بإزاء عبيد الله بن العباس، وأرسل عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس إلى عبيد الله وأصحابه أن كتب الحسن قد أتتنى مع رسله تسألنى فيها الصلح وإنما جئت لذلك، وقد أمرت أصحابى بالكف عنكم فلا تعرضوا لهم حتى أفرغ مما بينى وبين الحسن، فكذبوه وشتموه. ثم بعث معاوية بعد ذلك عبد الرحمن بن سمرة إلى عبيد الله فخلا به، وحلف له أن الحسن قد سأل معاوية الصلح وجعل لعبيد الله ألف ألف درهم إن سار إليه، فلما علم عبيد الله رأى الحسن وأنه إنما قصد الصلح وحقن الدماء وسار إلى معاوية فأكرمه وبره وحفظ له مسارعته إليه.

وقام بأمر الناس بعد عبيد الله قيس بن سعد وقال فى عبيد الله قولا قبيحا، وذكر أخاه وماكان بينه وبين علي ونسب عبيد الله إلى الخيانة والغدر والضعف والجبن. فبايع قيسا أربعة آلاف على الموت، وظن معاوية أن مسير عبيد الله قد كسر الحسن، فأمر بسر بن أبى أرطأة وكان على مقدمته وناسا معه فصاحوا بالناس من جوانب العسكر، فوافوهم وهم على تعبئة فخرجوا إليهم فضاربوهم، واجتمع إلى بسر خلق فهزمهم قيس وأصحابه، وجاءهم بسر من الغد فى الدهم فاقتتلوا فكشف بسر وأصحابه وقتل من الفريقين قتلى، وعرض معاوية على قيس مثل الذى عرضه على عبيد الله، فأباه ثم بعث إليه ثانية فقال له: على ماذا تقتل نفسك وأصحاب الحسن قد اختلفوا عليه وقد جرح فى مظلم ساباط فهو لما به. فتوقف عن القتال ينتظر مايكون من أمر الحسن.

وقال الشيخ المفيد والطبرى: إن أهل العراق كتبوا إلى معاوية بالسمع والطاعة واستحثوه على السير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن إليه إذا شاء عند دنوه من معسكرهم أو الفتك[1].

١٥ - الحسن يدرك غدر العراقيين:

وجعل وجوه أهل العراق يأتون معاوية فيبايعونه، فكان أول من أتاه خالد بن مغمر فقال: أبايعك عن ربيعة كلها ففعل، وبايعه عناق بن شرحبيل بن أبى رهم التيمى، فلذلك يقول الشاعر:

معاوى أكرم خالد بن المغمر ... فإنك لولا خالد لم تؤمر

(١) سيرة الأئمة الاثنى عشر ص ٥١٧ القسم الأول هاشم معروف الحسنى، منشورات الشريف الرضى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبلغ ذلك الحسن، فقال: يا أهل العراق أنتم الذين أكرهتم أبى على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه، وقد أتانى أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية فبايعوه فحسبى منكم لاتغرونى فى دينى ونفسى. لكن الحسن لما رأى تفرق الناس عنه. أرسل إلى معاوية كتابا طلب فيه الصلح[1].

وقد دفع معاوية إلى الحسن صحيفة بيضاء ختم أسفلها؛ليكتب ما يشاء من الشروط، فاشترط الحسن أن يسلم إلى معاوية ولاية المسلمين على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين، وأن لا يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى أن لايبغى له غائلة سرا ولا علانية، وأن لا يخيف أحدا من أصحابه. وشهد على الكتاب من معسكره عبد الله بن الحارث، وعمرو بن مسلمة، وردها إلى معاوية؛ ليشهد بما فى الكتاب ويشهد عليه[2]. وأن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف وخراج دارابجرد، كما اشترط الحسن أن لايُشتم والده[3].

وخطب الحسن فى الناس، وأبلغهم قرار مصالحته معاوية، وأكد لهم «أن الله هدى أولكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وكانت لى فى رقابكم بيعة تحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت.

١٦ - حيثيات الصلح ونهاية حرب الفتنة:

سالمت معاوية وبايعته فبايعوا له ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)﴾ [الأنبياء][4]. وأضاف الطبرى إلى ذلك ماقاله الحسن لأهل العراق عن الأسباب التى دفعته إلى مصالحة معاوية: «قتلكم أبى، وطعنكم إياى، وانتهابكم متاعى»[5]، وبذلك تم الصلح بين الحسن ومعاوية فى ربيع الآخر من عام ٤١ هـ[6].

---

(١) البلاذرى، أنساب ج ٣، ص ٥٠.

(٢) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٨.

(٣) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٨.

(٤) البلاذرى، الحساب ج٣ ص ٤٣، الطبرى، تاريخ ج٥ ص ٦٣.

(٥) الجاحظ رأى أبى عثمان: عمرو بن بحر الجاحظ فى معاوية والأمويين، ص ١٤ أراضى آل ياسين،سر الموقف فى صلح الحسن، ص ٧ - ١٥. رياض عيسى، الحزبية السياسية ص ١٠١، ١٠٣ فضيل بنى حمد العراق فى خلافة معاوية ص ٥٢، ٧١ خير الدين يوجه سوى، الفكر السياسى، ص٤٤.

(٦) البلاذرى، أنساب، ٣ص ٤١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالوا: ثم قام معاوية فخطب الناس فقال فى خطبته: ألا إنى كنت شرطت فى الفتنة شروطا أردت بها الألفة ووضع الحرب ألا وإنها تحت قدمى.

١٧ - قواد الحسن يعاتبونه:

فقال المسيب بن نجبة الفزارى للحسن: بايعت معاوية ومعه أربعون ألفا ولم تأخذ لنفسك ثقة، قد سمعت كلامه والله ما أراد بما قال غيرك. وقام سفيان بن ليل الهمدانى إلى الحسن، فقال له: يامذل المؤمنين، وعاتبه حجر بن عدى الكندى، وقال: سودت وجوه المؤمنين، فقال له الحسن: ماكل أحد يحب ماتحب ولا رأيه رأيك. وإنما فعلت مافعلت إبقاء عليكم، ويُقال: إنه قال له: سمعت أبى يقول: يلى هذا الأمر رجل واسع البلعوم كثير الطعم وهو معاوية.

١٨ - مكاتبات معاوية وقيس بن سعد:

قال المدائنى: وكتب معاوية إلى قيس يدعوه إلى نفسه وهو بمسكن فى عشرة آلاف، فأبى أن يجيبه، ثم كتب إليه: إنما أنت يهودى ابن يهودى إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك، وقد كان أبوك قد أوتر غير قوسه، ورمى غير غرضه فأكثر الحز وأخطأ المفصل، فخذله قومه وأدركه يومه فهلك بحوران طريدا والسلام.

فكتب إليه قيس بن سعد بن عبادة: أما بعد يامعاوية فإنما أنت وثن ابن وثن من أوثان مكة دخلت فى الإسلام كرها وخرجت منه طوعا لم يقدم إيمانك ولم يُحدث نفاقك، وقد كان أبى أوتر قوسه ورمى غرضه فاعترض عليه من لم يبلغ كعبه ولم تشق غباره وكان أمرا مرغوبا عنه مزهودا فيه، ونحن أنصار الدين الذى خرجت منه وأعداء الدين الذى صرت إليه.

فقال له عمرو: أجبه، فقال: أخاف أن يجيبنى بما هو شر من هذا.

١٩ - رجوع أهل العراق لقتال معاوية:

حدثنى عباس بن هشام عن أبيه عن أبى مخنف عن أبى الكنود عبد الرحمن بن عبيد قال:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لما بايع الحسن بن علي معاوية أقبلت الشيعة تتلاقى بإظهار الأسف والحسرة على ترك القتال فخرجوا إليه بعد سنتين من يوم بايع معاوية، فقال له سليمان بن صرد الخزاعي: ماينقضي تعبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء وهم على أبواب منازلهم ومنهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العقد ولا حظا من العطية، فلو كنت إذا فعلت مافعلت أشهدت على معاوية وجوه أهل المشرق والمغرب، وكتبت عليه كتابا بأن الأمر لك بعده، كان الأمر علينا أيسر ولكنه أعطاك شيئا بينك وبينه، ثم لم يف به ثم لم يلبث أن قال على رءوس الناس: إني كنت شرط شروطا ووعدت عدة إرادة لإطفاء نار الحرب ومداراة لقطع هذه الفتنة، فأما إذا مَنَّ الله علينا الكلمة والألفة وأمننا من الفرقة فإن ذلك تحت قدمي، فوالله ما اغترني بذلك إلا ماكان بينك وبينه وقد نقض، فإذا شئت فأعد الحرب جذعة[1] وائذن لي في تقدمك إلى الكوفة فأخرج عنها عامله وأظهر خلعه ونَنْبِذُ إليه على سواء إن الله لايحب الخائنين، وتكلم الباقون بمثل كلام سليمان[2].

فقال الحسن: أنتم شيعتنا وأهل مودتنا فلو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أربض وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني بأسا، ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة، ولكني أرى غير مارأيتم، وما أردت بما فعلت إلا حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله وسلموا لأمره والزموا بيوتكم وأمسكوا، أو قال كفوا أيديكم، حتى يستريح بر أو يُستراح من فار.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي ومحمد بن حاتم المروزي قالا: ثنا أبو داود صاحب الطيالسة عن شعبة عن يزيد بن حمير عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفير عن أبيه قال:

قلت للحسن: إن الناس يتقولون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله، ثم أريدها بأهل الحجاز، وقال أحدهما: بأتياس الحجاز.

---

(١) الجذع: صغير أنساب، وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جذعة أي ما يبتدأ فيها - اللسان.

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٦٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٠ - رأى الحسين بن علي فى بيعة الحسن لمعاوية:

لما بايع أهل الكوفة الحسن أطاعوه وأحبوه أشد من حبهم لأبيه، واجتمع له خمسون ألفا فخرج بهم حتى أتى المدائن، وسرح بين يديه قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى فى عشرين ألفا فنزل بمسكن، وأقبل معاوية من الشام فى جيش. ثم إن الحسن خلا ناحية الحسين، فقال: ياهذا إنى نظرت فى أمرى فوجدتنى لا أصل إلى الأمر حتى يقتل من أهل العراق والشام من لا أحب أن أحتمل دمه، وقد رأيت أن أسلم الأمر إلى معاوية فأشاركه فى إحسانه ويكون عليه إساءته.

فقال الحسين: أنشدك الله أن لاتكون أول من عاب أباك وطعن عليه ورغب عن أمره، فقال: إنى لا أرى ماتقول، ووالله لئن لم تبايعنى لأشدنك فى الحديد فلا تزال فيه حتى أفرغ من أمرى، قال: فشأنك، فقام الحسن خطيبا فذكر رأيه فى الصلح والسلم وما كره من سفك الدماء وإقامة الحرب، فوثب عليه أهل الكوفة وانتهبوا ماله وخرقوا سرادقه وشتموه وعجزوه، ثم انصرفوا عنه ولحقوا بالكوفة، فبلغ الخبر قيسا، فخرج إلى أصحابه، فقال: ياقوم إن هؤلاء القوم كذبوا محمدا ﷺ وكفروا به ماوجدوا إلى ذلك سبيلا، فلما أخذتهم الملائكة من بين أيديهم ومن خلفهم وعن يمينهم وشمالهم دخلوا فى الإسلام كرها وفى أنفسهم ما فيها من النفاق، فلما وجدوا السبيل إلى خلافه أظهروا ما فى أنفسهم، وإن الحسن عجز وضعف وركن إلى صلح معاوية، فإن شئتم أن تقاتلوا بغير إمام فعلتم، وإن شئتم أن تدخلوا فى الفتنة دخلتم، قالوا فإننا ندخل فى الفتنة، وأعطى معاوية حسنا ما أراد فى صحيفة بعث بها إليه مختومة اشترط الحسن فيها شروطا[1].

فلما بايع معاوية لم يعطه مما كتب شيئا، فانصرف الحسن إلى المدينة ومعاوية إلى الشام.

قالوا: ولما صالح الحسن معاوية وثب حمران بن أبان فأخذ البصرة، وأراد معاوية أن يبعث إليها رسلا من أهل الشام من بلقين فكلمه عبيد الله بن عباس فى ذلك فأمسك، وولى عتبة بن أبى سفيان البصرة فقال له ابن عامر: إن لى بها أموالا وودائع فإن لم تولنيها ذهبت فولاه البصرة.

---

(١) مقاتل الطالبيين أبو الفرج الأصفهانى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢١ - ما جرى بين الحسن وزياد بن أبى سفيان:

حدثنى أبو مسعود عن ابن عوف عن أبيه، قال:

لما دعى معاوية زيادا وولاه، طلب زياد رجلا كان قد دخل فى صلح الحسن وأمانه، فكتب الحسن فيه إلى زياد ولم ينسبه إلى أب، فكتب إليه زياد: أما بعد فقد أتانى كتابك فى فاسق يؤوى مثله الفساق من شيعتك وشيعة أبيك، وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك فإن أحب لحم إلى آكله للحم أنت منه.

٢٢ - الحسن وحق الخطأ:

يعتبر الحسن بن علي أول من حل بيعته بنفسه وأول من تنازل عن حقه فى البيعة لخصمه معاوية حقنا لدماء المسلمين وإطفاء لنار الحرب التى أكلت العرب أكل النار للهشيم، ولم يكن الحسن بالراغب عن الخلافة أو الكاره لها راكنا إلى الراحة والدعة إنما الأمور وفق نظره - وهو على حق فيما قرر - أنى نظرت إليها لا تأتى بخير - فمن جهة الشام فما زال معاوية يملك مقاليد الأمور فى قبضته وهو فى الحكم والإدارة محنك قد خبر المناورة والحرب ومعاملة شيوخ القبائل. وفى مكة ما زال ابن الزبير بجيشه متعلقا بأستار الكعبة حتى مات فيها - وجيش علي قد انقسم على نفسه وانشق عليه الخوارج بقيادة الراسبى. وقبائل خاب أملها ووقفت فى مفترق الطرق بعدما غدرت بالإمام علي فلم تستطع اللحاق بمعاوية وهو حسير، لقد كان الحسن مصيبا فيما رأى وله حق الخطأ ويبوء بأجره إن أخطأه الصواب، ولا شك أن تنازله عن الخلافة لمعاوية يلقى من جانب آخر وعلى رأس قيس تفسير العجز والمهانة فى قوله: وإن الحسن عجز وضعف وركن إلى صلح معاوية فإن شئتم أن تقاتلوا بغير إمام فعلتم وإن شئتم أن تدخلوا فى الفتنة دخلتم، قالوا فإنا ندخل فى الفتنة.

٢٣ - معاوية يتقول على الحسن بالقول بالرفض:

حوارات فى الأدب السياسى: الحسن ومعاوية:

انفرد الأصفهانى فى كتابه «مقاتل الطالبيين» بذكر مراسلات جرت بين الحسن ومعاوية، وهى - ولاشك - لون من ألوان الأدب السياسى الرفيع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذى يقرأ التراسل بينهما يعلم أن الحسن ما صالح معاوية صلح المتعجل لمتاع دنياه ولا من أجل إغراء معاوية له بخزائن البصرة كما زعمت دائرة المعارف الإسلامية، وسبق مناقشته. فقد بسط فى رسائله موقف العرب من قريش، وقريش من العرب، وأن قريشا نالت الفضل بقولها: ولا يحل أن تنازعونا سلطان محمد ﷺ فى الناس وحقه ـ فرأت العرب أن القول ماقالت قريش.

ثم يقول الحسن: ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاجت به العرب. فلم تنصفنا لشىء إنصاف العرب لها.

٢٤ - تأويل معاوية لرسالة الحسن:

ثم يقول لمعاوية: فاليوم فليعجب المتعجب من توبتك يامعاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل فى الدين معروف ولا أثر فى الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ.

ثم يرد عليه معاوية مأولا خطابه تأويلا لايحتمله نص خطاب الحسن إليه ويحمل عليه بهتانا وزورا أنه يتهم أبا بكر وعمر وأبا عبيدة الأمين، وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار، فحمله مسئولية الرفض والرافضة.

وذلك واضح من رد معاوية على رسالة الحسن فى قوله: وذكرت وفاة النبى ﷺ، وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبى بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبى عبيدة الأمين وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار فكرهت ذلك لك، فإنك امرؤ عندنا وعند الناس غير ظنين، ولا المسىء ولا اللئيم. وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

ويقول: واختاروا أبا بكر، كان ذلك رأى ذوى الحجى والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بمخطئين.

وليس معاوية للحسن بالناصح الأمين فى قوله وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل» وايم الحق لقد كان قوله سديدا وذكره جميلا ولو كان معاوية ناصحا ما عرض بالحسن تعريضا مشينا ولا أوله معانى لا يحتملها خطابه تحمل من السوء لأبى بكر وعمر وأبى عبيدة أمين هذه الأمة ما تحمل.. والموعد الله وليس للحسن وهو من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذوى الرأى أن يخوض فى صحابة رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو بكر. فالخطاب لمعاوية والتعريض لمعاوية وهو الذى خرج على اجتماع السقيفة. وذلك ما أكثر عليه الحسن فى خطابه حين قال: فادخل فى السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك.. وهاتيك المراسلات:

وكتب الحسن إلى معاوية مع جندب بن عبد الله الأزدى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان، سلام عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإن الله ـ تعالى عز وجل ـ بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين، ومنة على المؤمنين، وكافة إلى الناس أجمعين ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس]، فبلغ رسالات الله، وقام على أمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان، حتى أظهر الله به الحق، ومحق به الشرك، ونصر به المؤمنين، وأعز به العرب، وشرف به قريشا خاصة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ... ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] فلما توفى ﷺ تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولايحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد ﷺ فى الناس ـ وحقه، فرأت العرب أن القول كما قالت قريش، وأن الحجة لهم فى ذلك على من نازعهم أمر محمد ﷺ فأنعمته[1] لهم العرب وسلمت ذلك، ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ماحاجت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج فلما صرنا أهل بيت محمد ﷺ وأولياءه إلى محاجتهم، وطلب النصفة منهم باعدونا، واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا، والعنت منهم لنا، فالموعد الله، وهو الولى النصير.

وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا، وسلطان نبينا ﷺ وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده، فاليوم فليعجب المتعجبون من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل فى الدين معروف، ولا أثر فى الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن

(١) أنعمت: أى قالت لهم نعم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعدى قريش لرسول الله ﷺ، ولكن الله خيبك وسترد فتعلم لمن عقبى الدار، تالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد.

إن عليا ـ رضوان الله عليه ـ لما مضى لسبيله ـ رحمة الله عليه ـ يوم قبض، ويوم مَنَّ الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيا ـ ولأنى المسلمون الأمر بعده، فأسأل الله أن لا يزيدنا فى الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامته، وإنما حملنى على الكتاب إليك الإعذار فيما بينى وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى أمرك، ولك فى ذلك إن فعلت الحظ الجسيم، وللمسلمين فيه صلاح، فدع التمادى فى الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى، فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ، ومن له قلب منيب، واتق الله، ودع البغى، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك من خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، فادخل فى السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منك، ليطفئ الله النائرة[1] بذلك، وتجمع الكلمة، وتصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التمادى فى غيك نهدته[2] إليك بالمسلمين، فحاكيتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين[3].

فكتب إليه معاوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغنى كتابك، وفهمت ما ذكرت به رسول الله ﷺ من الفضل، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله، قديمه وحديثه، وصغيره وكبيره، فقد والله بلغ فأدى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من التهلكة، وأنار به من العمى، وهدى به من الضلالة، فجزاه الله أفضل ما جزى نبيا عن أمته، وصلوات الله عليه يوم ولد ويوم قبض، ويوم يبعث حيا.

وذكرت وفاة النبى ﷺ، وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبى بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبى عبيدة الأمين، وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك، فإنك امرؤ عندنا وعند الناس غير ظنين، ولا المسىء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

---

(١) النائرة: العداوة والبغضاء.

(٢) نهد إليه: ارتفع.

(٣) ابن أبى الحديد ١٢٤.